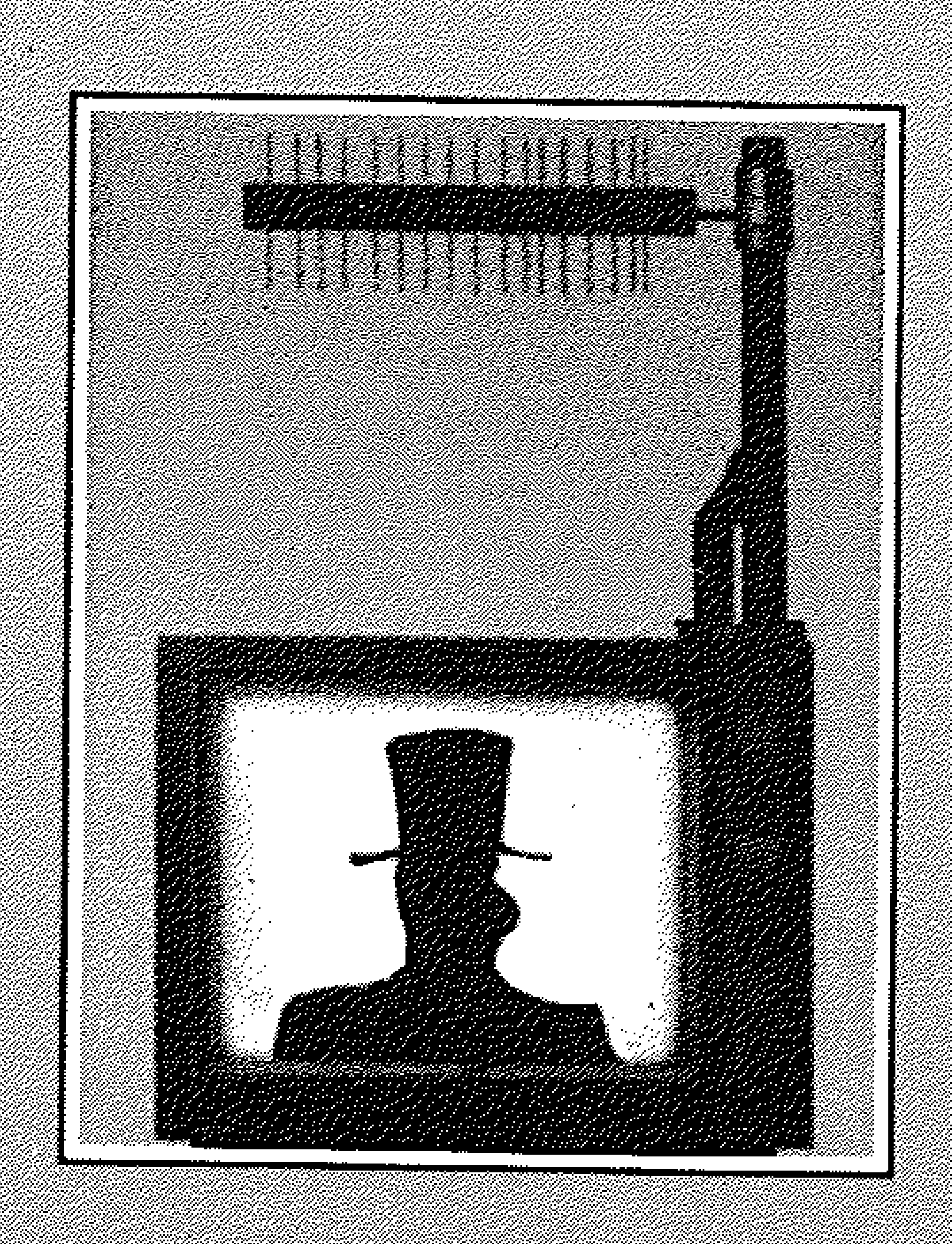
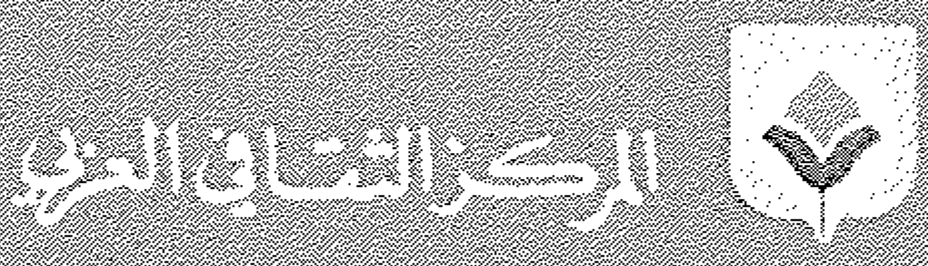
مصطفى حجازي

حصار الثقافة

بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية





حصار الثقافة

بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية

* حصار الثقافة ـ بين القنوات الفضائية والدعوة الأصوليّة

* تأليف: د. مصطفى حجازي

* الطبعة الأولى، 1998

* الناشر: المركز الثقافي العربي

العنوان:

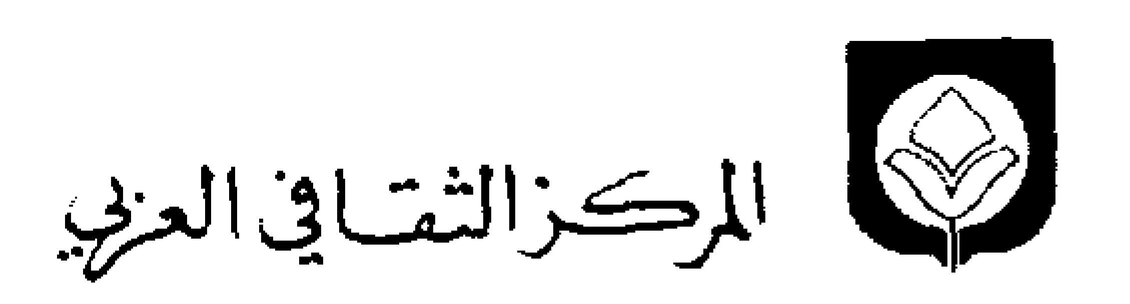
□ الدار البيضاء/ ● 42 الشارع الملكي (الأحباس) * فاكس /305726/ * هاتف/ 303339 - 307651/.
● 28 شارع 2 مارس * هاتف /271753 - 276838/ * ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

□ بيروت/ الحمراء ـ شارع جان دارك ـ بناية المقدسي ـ الطابق الثالث.
* ص.ب/ 113-5158/ * هاتف/ 352826 - 343701/ * فاكس/00961-1-343701/.

مصطفى حجازي

حصار الثقافة

بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية



تصدير

السؤال الثقافي في طرحه، كما في المحاولات غير المحدودة في الإجابة عليه هو من شؤون الفكر الثابتة إنسانياً ووطنياً. ولقد كان له مكان الصدارة في الهم الفكري العربي المعاصر.

إن إطلالة القرن الحادي والعشرين، ومعها بداية الألف الميلادي الثالث صعدت أولوية الملف الثقافي وزادت من حدته بشكل غير مسبوق. ولا عجب في ذلك إذا تذكرنا أن الثقافة راهناً ومستقبلاً أصبحت إحدى الإستراتيجيات الأربع الموجهة لقرارات وممارسات الدول الكبرى. ونعني بذلك استراتيجيات: السياسة، والمال، والحرب والثقافة. أما في بلدان العالم الثالث، فإن الثقافة تمثل خط الدفاع الأخير عن الهوية الوطنية من خلال دورها النواتي على هذا الصعيد.

لم تقم نهضة في أمة إلا وكانت الثقافة في قلب مشروعها. كما لم تتعثر أمة أو تتخبط في حالات الانتكاس والتقهقر، إلا وكان السؤال الثقافي ومحاولة الجواب علية في قلب جهودها للخروج من عثراتها واستعادة مكانتها وانطلاقتها. وبالتالي فليس عجيباً أن يتراكم هذا الكم الهائل من الأسئلة ومحاولات الإجابة في الإنتاج الثقافي العربي المعاصر.

على أن طفرة نهاية القرن أعادت تشكيل العالم من خلال انهيار حدود الزمان والمكان وذلك بفضل تكنولوجيا المعلومات المتسارعة في نموها، والتي تأخذ البشرية في مغامرة معرفية غير مسبوقة في التاريخ، وغير محدودة الأفق. ولهذا تبرز الضرورة لمراجعة منظوراتنا ونماذجنا الفكرية على هذا الصعيد، وخصوصاً فيما يتعلق بتنشئة الأجيال الطالعة، ونوع الزاد الثقافي اللازم لها لإعدادها للمستقبل. يأتي هذا العمل من ضمن هذا الهم، وهذا التوجه.

يتراءى لنا من ضمن هذا المنظور، أن هناك حالة جديدة من الاستقطاب الثقافي بدأت تتشكل خارجاً عن الطروحات المعتادة.

إنها تتمثل في كل من ثقافة الصورة المرئية والثقافة الأصولية في مقابلها. هذا الاستقطاب يتجلى على المشهد العالمي، وهو بصدد مزيد من التبلور والبروز والانتشار، إلا إذا حدثت تحولات كونية ليست في الحسبان. تلك هي الفرضية التي يأخذ بها هذا العمل، ويحاول تقديمها والتفكير بصددها. يتجلى ذلك من العنوان: حصار الثقافة ما بين القنوات الفضائية والأصولية وثقافة كل منهما. بعد استعراض كلاً منهما بمقاربة تحليلية تعرض لأسسهما وآلياتهما ووظائفهما وتوجهاتهما، وتنتهي بوقفة نقدية أولية، تعرض مسألة شراكتهما وتحالفهما في حصار ثقافة العقلانية. ويتبين من هذا العرض أن كلاً من هاتين الثقافتين تتغذى من الأخرى، على تناقضهما، في تشديد حالة الحصار، وفي محاولة كل منهما فرض أحقيتها الواحدة الوحيدة. إلا أن فرض الأحقية الوحيدة من قبل كلتيهما يحمل مآزقه الجادة من حيث تنكره للجدليات المميزة للوجود الإنساني.

ولذلك يطرح هذا العمل ضرورة تغيير المنظور، كما يقدم اقتراح تغيير المسار من خلال مقولة الذكاء الجماعي، في تدبر قضايا المصير وطنياً وعالمياً.

قد يجد كثير من القراء ما يثير حماسهم في هذا العمل حيث يقدم مادة تؤيد مواقفهم الفكرية. إلا أن من أثيرت حماسته على صعيد ما، قد تثار حفيظته على صعيد آخر. وقد يكون ذلك بنفس الدرجة من الشدة، أو بدرجة أكبر من الحدة. وإذا حدث ذلك فسيكون فيه برهان يؤيد صحة الفرضية التي انطلقنا منها، ونعني بها فرضية الاستقطاب الثقافي. إلا أن ما نطمح إليه في المقام الأول هو أن يثير طرحنا مقداراً كافياً من الأسئلة تغذي الملف الثقافي العربي الذي انزلق في مواضع كثيرة إلى حالة من الاجترار، والدوران على الذات. ذلك هو مبرر ما نذهب إليه من مناداة بتغيير المنظور.

أما إذا جاءت ردود الفعل بما ينقض الفرضية، ويبطل مبرر تغيير المنظور، فقد يكون فيه تعزيز مطمئن لسلامة مسارنا الثقافي وحيويته. وفي ذلك فائدة كبرى بالطبع. فحيوية الثقافة كما فاعليتها تتغذيان من تنوع الإسهامات والطروحات، وصولاً إلى احتلال مكانة معقولة في الشراكة المستقبلية.

المقدمة

من الغزو إلى الحصار

أمضينا القرن العشرين بكامله ونحن نطرح الملف الثقافي وقضية العقل العربي بكامل أبعادهما. وتراكمت أدبيات هائلة في هذين الموضوعين: الهوية الثقافية مسائل الثقافة، الأصالة، التعريب والتغريب، الحداثة والمعاصرة، إشكاليات الفكر العربي، أزمات الثقافة والعقل، إشكاليات النهضة، المشروع الحضاري العربي، نحن والغرب وعكسها، الغزو الثقافي والتثاقف، الاستشراق ماله وما عليه. وتطول قائمة القضايا والمفاهيم والطروحات. وتتقدم المسيرة بدرجات متفاوتة. وتبرز حالات عود على بدء. ويستمر تلمس معالم الكيان في الكتابات واللقاءات والندوات، والمناظرات...

شكل الغزو الثقافي إحدى القضايا الأساسية: هل نحن بصدد هيمنة وغزو من قبل عقلانية الغرب وماديته تهدد أصالتنا، أم إزاء فرصة الدخول في التاريخ الحي المتحرك بدءاً بالتنوير ووصولاً إلى ما بعد الحداثة في مختلف تجلياتهما؟

وها نحن الآن نداهَم من حيث لا ندري بحصار ثنائي بدأ يلتف حولنا متجاوزاً قضايانا وطروحاتنا. ولابد من المسارعة إلى القول أن هذا الحصار لا يستهدفنا تحديداً. بل هو حالة كونية جديدة نندرج فيها مع غيرنا ممن نلتقي معهم، أو نصارعهم. الحصار

الجديد داهم العقلانية وثقافتها، مما كنا نتباين بشأنه. ولم تعد المسألة قضية غزو ثقافي وفكري غربي للعالم الثالث، بل غزو للكون وفي مقدمته الغرب ذاته الذي نتصارع معه، فنتلاقي ونختلف. فمن جانب، نحن بصدد ملف إصطياد الكرة الأرضية بمن وما عليها من خلال مشروع التنميط الثقافي الكوني الذي تشكل الثقافة الألكترونية وقوتها التكنولوية حالته الجديدة. ثقافة الصورة والبلاغة الألكترونية تلف الكون من خلال تغطيته بشبكاتها المتعاظمة، خالقة فرصاً معرفية غير مسبوقة في تاريخ البشرية وواضعة العالم بين يدي المستقبلين. إلا أنها تحمل تحديات متعاظمة بقدر قوتها التكنولوجية وتغطيتها الشمولية من خلال الخيارات التي تروج لها. وهي خيارات تتقنع بقناع البراءة والتسلية والإمتاع والإخبار. وهي ثقافة تتوسل لغة جديدة وأبجدية جديدة هما لغة الصورة، وأبجدية الحواس، مما يكاد يشكل قطيعة فعلية مع الثقافة المكتوبة وعقلانيتها[1].

وبالمقابل بدأت تطفو على السطح ملامح تيارات متنامية في عدد متزايد من البلدان، على اختلاف توجهاتها الفكرية والعلمية والسياسية والاقتصادية. إنها ثقافة العودة إلى الأصول على اختلاف تجلياتها القومية والعرقية والدينية والطائفية، كما الإثينة. وهي بدورها تمثل حالة ضاغطة ومفاجئة بقوتها الإستقطابية؛ مما يشغل بال أصحاب القرار. إنها بدورها ذات مشروع تنميطي، إنما منكفىء على الداخل.

في الحالتين، نحن إزاء أحادية التوجه، ولو اتخذ الأمر طابع

---

(1) المقصود هنا ثقافة الصورة التي تقدمها محطات كبريات الشركات الإعلامية الخاصة، والتي حولت الثقافة إلى مشروع ربحي أساساً.

التعارض في الإتجاه، والتناقض في معالم المشروع. إلا أنهما يتلاقيان في حصار ثقافة العقلانية، وتشديد الخناق عليها، طالما أن كل منهما يطرح مشروعه على أنه البديل المستقبلي، والحل الأمثل لقضايا الكيان والمصير.

ولكن أين هو الغريب في ذلك؟ لقد عرف الفكر البشري دوماً هذه الثنائيات، أو التعدديات المتجابهة، المتصارعة، المتعارضة والمتناقضة. وكل منها كان يتخذ الطابع الأحادي نفسه، باعتباره الحل الواحد الوحيد، الذي يلغي ما عداه. إنما كانت هذه المجابهات في الآن عينه فرصة البشرية لنمو الفكر والوعي. فما الجديد إذاً وأين هي المشكلة؟

يتمثل الجديد في عدة أمور: أولها البعد الكوني فعلياً على مستوى الكرة الأرضية، بعد إنهيار حدود الزمان والمكان بفضل تكنولوجيا المعلومات، وطرقها السريعة وشبكاتها فائقة التوصيل. على أن هذا الجديد قد يكون فرصة إغناء غير مسبوقة للثقافة والفكر بعد أن جعلتها تكنولوجيا المعلومات في متناول الجميع، على تفاوت حظوظهم وفرصهم. إلا أن المشكلة تكمن في نوعية الخطاب ومرتكزاته واستهدافاته[2]. ثقافة الصورة والثقافة الأصولية يلتقيان كلاهما في تعطيل العقل والنقد. ويحلان محل الفكر ولغته، لغة الحس ولغة الهوى. يقدمان عالم الإثارة، ونشوة الرسالة. ويتلاقيان في تبديد الموارد وعنف الأهواء.

وبينما كانت الصراعات الفكرية والإيديولوجية التي تغذي

---

(2) سنبيّن في الفصل الأول كيف أن هذه الثقافة ترتبط أساساً بأسواق المال ومشاريع الربح، وتخدم إيديولوجيتهما.

الثقافة العقلانية تحمل مشاريع مستقبلية ذات طموحات، أو على الأقل ادعاءات بناء ونماء، إذا بالثقافتين موضع البحث تشكلان مصدر انشغال فكري جدي بكل معنى الكلمة حول الأجيال الطالعة. فما يقدم يقع على محور اللذّات الحسية الآنية في مقابل الماضوية الأسطورية.

أوليس في هذا الكلام إطلاق لتعميمات وأحكام تفتقر إلى السند؟ أولا يتضمن شكوى وتحفظاً تقليدياً إزاء كل حالة جديدة؟ قد يكون هناك شيء من ذلك. إلا أن الأكيد أن القرن الحادي والعشرين يشكل، بتوافق الآراء، حالة طفرة في طرق الحياة والوجود، والعلاقات الاقتصادية والعلمية والدولية، تمثل قطيعة واضحة مع ما ألفناه من استمرارية تاريخية في القرون الثلاثة الماضية.

ستكون البشرية، تبعاً لرأي العالمين بالأمور في حالة غير مسبوقة من (3):

1 ـ الفرص الكبرى التي يحملها العلم بقوته الخارقة، وانفجار الإنفتاح الكوني والتقارب الإنساني غير المسبوق على سطح الكوكب؛ حيث يرتبط الإنسان بكل البشرية من مكانه وفي أية لحظة، ويتابع ما يجري على سطح الكوكب ويشارك فيه. وحيث تتوفر ثروة المعرفة البشرية لكل راغب، حتى لمن تواضعت إمكاناتهم. وهو ما يفتح إمكانات النمو الذاتي بدون قيود لمن يحسن تدبر أمور التعامل مع هذه الفرص، أفراداً وأوطاناً.

---

(3) يمكن الرجوع بهذا الصدد إلى العديد من الدراسات الإستشرافية التي يضيق المقام بذكرها هنا تفصيلاً.

2 ـ التحديات الكبرى غير المسبوقة التي يمثلها عالم القوة والتنافس والتزاحم بدون حدود أو قيود. إنها تحديات قانون القوة الذي يحكم اللعبة الدولية، كما الوطنية، في المعرفة والعلم والتكنولوجيا؛ حيث لا مكان إلا لمن يملك الإقتدار، ولا حماية إلا من خلال التسلح بأسلحة القوة المعرفية والتكنولوجية.

3 ـ إنه كذلك عالم المفاجآت والتحولات الكبرى التي تحتاج إلى استعداد عظيم. فهو عالم انعدام اليقين، وانعدام إمكانية الإستئناس إلى أوضاع مستقرة، أو تنبؤ أكيد بالمسقبل كما درجت عليه عادة المخططين سابقاً. إنه عالم التعقيد والتفاعلات وانعكاساتها ومضاعفاتها التي قضت على وهم السيطرة الأكيدة على زمام الأمور. وهو ما يقتضي إعداد عدة القدرة المتقدمة على التكيف والتعامل، والتسلح بإمكانات السيطرة المعقولة على الأوضاع والتعامل مع المفاجآت.

4 ـ وهو أيضاً عالم الأخطار الكبرى؛ أخطار المسار والمصير، سواء في البيئة وقابليتها للحياة، أم في الأسواق المالية ومبادلاتها وإغراءاتها وتلاعباتها واحتمالات أحداثها. إنها أخطار الإنفجار السكاني، وانفجار الفقر وانفجار التلوث، وأخطار سهولة إمتلاك الأسلحة الفتاكة. وهو كله مما يقتضي أعلى درجات اليقظة والقدرة والفاعلية والحصانة الوطنية والمجتمعية، لكل مجتمع يريد ضمان بقائه.

لقد بدأ يبرز تيار عالمي متعاظم من الإنشغال بهذه الحالة من قبل المفكرين والفلاسفة والعلماء وأساتذة الجامعات تبصراً بما تستقبله البشرية من أمرها، وتوعية بخصائص ما تجابهه من تحديات، وما يمكن أن تمتلكه من إمكانات، وما قد يداهمها من

أخطار. هنا أيضاً يعيش هؤلاء حالة قطيعة مع ما سبق أن تعاملوا معه من قضايا.

هذه الحالة التي يحملها القرن الحادي والعشرين تحتاج أكثر من أي مرحلة مضت إلى القدرة على الاستيعاب والفهم والتبصر والتدبر، والإلتزام والمشاركة والحسّ العالمي، والاقتدار المعرفي والحصانة القيمية. إنها تحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى عقلانية التعامل مع المسار والمصير، والخروج من الذاتية (فردياً وجماعياً) إلى الغيرية (وطنياً وعالمياً). إنها الحاجة إلى العقلانية معززة بالحكمة والرؤى الفاعلة والهادفة.

الأطروحة الرئيسية لهذه الدراسة تذهب إلى القول بأن هناك حالة من التناقض الأساسي بين ما تحتاجه الاجيال الطالعة للتعامل مع المستقبل بفرصه وإمكاناته وأخطاره وتحدياته، وبين حالة الانشطار الثقافي التي تتجلى معالمها بمزيد من الحدة ما بين ثقافة الصورة والثقافة الأصولية. فما بين مذهب اللذات الحسية الآنية، وأحلام الماضوية، تحاصر مقومات وإمكانات التعامل مع المقتضيات المستقبلية. ذلك أنه، في حين أصبح الحديث عن العالم كقرية صغيرة مبتذلاً، يذهب الإنشطار إلى تجاهل مقتضيات التسيير والتدبير التي تستلزمها الحتمية المتصاعدة للمصير المشترك، ومتطلباته من القدرة الذاتية والإقتدار المعرفي. فلكل من ثقافة الصورة وبلاغتها الألكترونية وثقافة الأصولية وأسطوريتها المثالية، مشروعها الغارقة فيه، مما يدفع بها في مسارات قد لا يكون من المبالغة وصفها بأنها ذات نتائج مأزقية.

من هنا لابد من وقفة باحثة محللة متفكرة لكل من هاتين الثقافتين في مرتكزاتهما وآلياتهما وتجلياتهما، ومشروعهما. حيث

لم يعد يكفي مجرد إطلاق الأحكام بالسلب أو الإيجاب حول هذه الحالة الجديدة والمرشحة للتصعيد والمزيد من الانتشار. كما لم يعد يكفي التنكر أو التجاهل أو التساهل، أو دق ناقوس الخطر والقلق. لابد من فهم كل من هذين المشروعين بمقاربة علمية كي يمكن التعامل الفاعل معهما، من خلال تعزيز الإيجابيات والإمكانات، والتصدي للسلبيات.

نبحث تباعاً في الثقافة الألكترونية وقضاياها، ثم نتحول إلى الثقافة الأصولية في منطلقاتها ومرتكزاتها. وفي الحالتين ندرس آليات فعل كل منهما. ومن ذلك نصل إلى إقامة مقارنة بين هاتين الثقافتين في نقاط إلتقائهما واختلافهما وآثارهما. ونختتم العمل في محاولة تفكر بما يجب أن يكون؛ مما أصبح يمثل هماً واهتماماً حقيقيين لنخبة من المفكرين عالمياً.

قبل الخوض في هذه القضايا لابد من وقفة عند مفهوم الثقافة الذي سيعتمد في هذه الدراسة.

لقد عرف مفهوم الثقافة القديم لغوياً انتشاراً واسعاً في مختلف العلوم الإنسانية منذ القرن الماضي. واستُخدم بأكثر من معنى. وأُدرج في كل معنى أكثر من مضمون. كما أُعطيَ أبعاداً متفاوتة في اتساعها، تتراوح ما بين الحديث عن التهذيب والحصيلة الفكرية على الصعيد الفردي، وبين مطابقته مع مفهوم الحضارة على صعيد علم الإنسان (الإناسة).

على المستوى اللغوي نجد في لسان العرب، وقاموس محيط المحيط أن كلمة ثقافة تنتسب إلى فعل ثقف؛ وهو يدل على عدة معانٍ: حيث يفيد الحذق والفهم وسرعة التعلم، وثبات معرفة المرء بما يحتاج إليه علماً وعملاً. وفي معنى آخر يدل فعل ثقف على

الغلبة والظفر على الغير بالحذق. أما في معنى ثالث فيدل على التسوية والتقويم والإصلاح، ومن ذلك تسوية الرمح. هذا المعنى هو الذي تمت استعارته في مجال التأديب حيث يقال ثقّف الولد؛ أي علمه وهذبه ولطّفه.

ومن هذا المعنى أيضاً تأتي مسألة تنمية الملكات العقلية بالمران والتدريب الذهني، كما يرد في قاموس **Petit Robert**. على المستوى الفكري تعنى كلمة ثقافة اكتساب المعارف التي تنمّي الحِسّ النقدي والذوق والحكم. كما قد تتخصص من خلال التعمق بالفلسفة والعلوم والآداب والمجالات الفكرية المختلفة. وهو ما يفتح سبيل التعامل مع القضايا الإنسانية والاجتماعية بدرجة متميزة من الاستيعاب والشمول.

على أن مفهوم الثقافة بالمعنى الفكري قد تطور كي يتخذ طابع الموقف النقدي الملتزم من قضايا المجتمع والإنسان. وذلك في مقابل كل من صاحب العقيدة (الإيديولوجيا) الذي يروج لمذهب معين في السياسة أو سواها، والتكنوقراط الذي يتصف بالاختصاص في حقل معين والفاعلية في أدائه. المثقف هو ذلك الإنسان الذي يحلل ويكشف القضايا ويتخذ منها موقفاً يتصف بالشجاعة الأدبية والمواجهة. ولهذا فهو في موقف حرج قد يعرضه لدفع أثمان غالية مادياً ومكانة. وكونه يتخذ الموقف النقدي أساساً فهو أميل إلى الشك والتشاؤم طالما أنه يتصدى للسلبيات. وذلك على عكس الإيديولوجي المتفائل والتكنوقراط الطموح.

أما بالمعنى الاجتماعي الواسع فقد شاع مفهوم الثقافة في علم الأناسة الاجتماعية، على يد تايلور على وجه الخصوص، وعلماء الأنام (الأتنولوجيا) الأميركان عموماً. الثقافة تصبح بهذا المعنى تلك

التوليفة من المعارف والمعتقدات والممارسات والتوجهات والأعراف والأخلاق والفنون، التي يكتسبها المرء خلال تنشئته كي يصبح عضواً في المجتمع. الثقافة بهذا المفهوم الاجتماعي عامة، حيث لكل مجتمع ثقافته وخصوصياتها، طالما أنها تمثل عملية التنشئة للعبور من الحالة البيولوجية إلى حالة العضوية الاجتماعية: الثقافة بهذا المعنى تعطي حاملها هويته الاجتماعية، وتحدد أفقه الوجودي وتوجهه، ومرجعياته العامة. كما أنها تقوم بالعديد من الوظائف التي تؤدي إلى تماسك المجتمع وفاعليته. فالثقافة هي أداة تكييف الفرد بمجتمعه وإطار ممارسة هذا المجتمع لوظائفه[4]. هذا المعنى الاجتماعي هو الذي سيعتمد في هذه الدراسة. ومن هنا ما ذهبنا إليه من القول بالقولبة والتنميط. إذ تفترض هذه الدراسة أن كل من الثقافة الألكترونية والأصولية تشكلان مشروعاً لتشكيل أساليب التفكير والمعرفة والسلوك والتفضيلات والمواقف والنظرة إلى الذات والكون والمرجعية الجماعية، وصولاً إلى توحيد المنتمين إليها في فئة اجتماعية خاصة بهم وكيان ينتمون إليه. فالثقافة الالكترونية ليست مجرد متعة وتسلية، كما أن الثقافة الأصولية ليست مجرد دعوة أو التزام. من هنا زعم القول بالحصار الثقافي. ذلك أن الشأن الثقافي مع تهاوي حدود الزمان والمكان أصبح من قضايا الإنسانية الكبرى، كما هو قضية وطنية في المقام الأول. فكيف السبيل إلى الانفتاح على الدنيا بدون التبدد الثقافي الكياني؟ وكيف يمكن الحفاظ على الهوية الثقافية الوطنية بدون الوقوع في العزلة (غير

---

(4) يمكن الرجوع من أجل تفصيل هذه القضية إلى كتابنا:

ثقافة الطفل العربي، الرباط 1988، المجلس القومي للثقافة العربية، الفصل الأول.

الممكنة أصلاً) والإنغلاق والتصلب الذي يفقدنا إمكانية التفاعل والتعامل والمشاركة وأخذ نصيبنا من الفرص، وتقديم إسهامنا في بناء المستقبل؟ تلك هي القضية الأساس التي أملت القيام بهذه الدراسة. ثم أي ثقافة هي الملائمة للمستقبل في فرصه وتحدياته الكبرى التي أشرنا إليها؟ هل هي العالمية التي تروج لها الثقافة الالكترونية، أم الإنكفاء الماضوي الذي تسعى إليه الأصولية؟ أم أنه لابد من المشاركة في صياغة حالة ثقافية تتجاوز هذه وتلك، وتقع على عاتق المعنيين بالشأن التربوي والإعلامي والسياسي، والمثقفين على رأس قائمتهم؟

لابد للمثقفين من أن يكون لهم دور هام في هذه القضية، حيث أنهم الأكثر تعرضاً للحصار. فكلا المشروعين اللذين نحن بصددهما يدفع باتجاه الآحادية في الرؤية، ويعمل على أفول نجم الثقافة، بمعنى الانفتاح والاهتمام والنقد والمشاركة. ونمو كل من هاتين الثقافتين يزداد على حساب انحسار دور ومكانة قيادات الرأي والفكر. وهو ما يدفع إلى التصادم والتباعد بدلاً من اللقاء والتفاعل والتعددية؛ مما يذهب على عكس المهام المستقبلية واحتياجاتها.

الفصل الأول

ثقافة الصورة
واقتصاد السوق

أولا تمهيد:

قد يبدو الحديث سهلاً للوهلة الأولى عن ثقافة الصورة. إلا أن التوقف عند هذا الملف ملياً واستعراض مختلف أبعاده، سرعان مايبرز ضخامة وتشعب الموضوع، وتعقيده وتعدد أوجهه. وبالتالي فلا يكفي البته إطلاق أحكام قطعية متسرعة؛ كما يحدث في الحياة اليومية ما بين حماس مؤيد، أو رفض متشدد. فلا هذا ولا ذاك يوفيان الموضوع. ذلك أننا بصدد التعامل مع الثقافة السائدة مستقبلياً سواء شئنا أم أبينا. وإذا كان الجيل الحاضر مخضرماً، قد عرف الثقافة المكتوبة وثقافة الصورة، فإن الاحتمال كبير في أن تكون الصورة الألكترونية هي المرجعية الثقافية الأساسية للأجيال الطالعة. يلخص الخبراء هذا الأمر بالقول أنه إذا كان القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين هو عصر المواصلات التي قربت المسافات، فإن النصف الثاني من القرن العشرين، وما سيأتي من المستقبل هو بلا منازع عصر الاتصالات[1]. وهذه خلقت تحولاً جذرياً. فبينما

---

(1) انظر عرض جورج طرابيشي لكتاب MARTINE STORA بعنوان A PROPOS DU XX SIECLE, 1994 PARIS, L'HARMATTAN في عدد الحياة 11693، 24/ 2/ 95 م، حيث تستعرض المؤلفة آراء نخبة من العلماء والمثقفين. والقول الذي

يسرت ثورة المواصلات الحركة في المكان، فإن ثورة الاتصالات حركت المكان ذاته كي يصبح بين يدي الناظر. فالعالم لأول مرة أصبح فعلاً بين أيدينا. الكرة الأرضية بأكملها تقدم لنا في قضاياها ووقائعها في الآن واللحظة. وإنه لمن المذهل حقاً أن نتأمل مدى هذه الثورة إذا تذكرنا أن عمرها بالكاد يزيد عن نصف قرن. أصبح التلفزيون مالىء الدنيا وشاغل الناس، ومنظم حياتهم وتفاعلاتهم، خالقا بذلك حالة اجتماعية جديدة فعلاً. فلنتصور للحظة ماذا تكون عليها حياتنا الراهنة لو بقينا لمدة أسبوع بدون تلفزيون!

على أن الأمر تجاوز مسألة ملء الدنيا، وصولاً إلى صناعتها. الإعلام المرئي هو الذي يصنع راهنا عالمنا. وهو مرشح إلى احتلال دور متعاظم في صناعة هذا العالم. أولم يسيطر راهنا على صناعة الرؤساء؟ الرؤساء منتجات الصورة. إن هذه الثقافة الجديدة بما تتمتع به من قدرات تكنولوجية خارقة ومتعاظمة في سرعة تطورها مرشحة أن تهيمن كلياً على «صناعة الموافقة»[2] للكبار، وبالتالي التنميط الكوني للأجيال الطالعة.

= نحن بصدده هو لبول فيريليو، عالم الجماليات المستقبلية.

(2) ورد هذا التعبير بقلم محمد عارف في جريدة الحياة، العدد 11738، 11/4/95 م في مقالته بعنوان «حرب المعلومات هدفها إجبار العدو على التفكير كما تريد» حيث يعتقد الخبراء الإعلاميون والاستراتيجيون إن حرب المعلومات التي تشكل أجهزة الإعلام الدولية، وفي مقدمتها التلفزيون العالمي، سلاحها الرئيسي ستكون الحرب الأساسية المقبلة التي يدور فيها الصراع حول السيطرة على تدفق المعلومات العالمية. ولقد ساهم في هذا الموضوع وطرحه نخبة من العلماء العالميين والفلاسفة، وخبراء المستقبليات. ويرد في هذا المجال «إن هدف حرب المعلومات هو إعادة تشكيل إرادة شعب آخر، عن طريق تغيير تصوره للواقع». ويعتقد أحد الخبراء العسكريين في الموضوع إن «الانتصار في حرب المعلومات هو أن تجبر العدو على أن يفكر كما تريد».

من هنا أصبح تناول هذا الموضوع يمثل تحدياً فعلياً، لأنه سيفلت حتماً من أية عملية استيعاب. ليس لنا إلا أن نحاول فنطرح بعض القضايا التي تتعلق بموضوعنا، وهو الحصار الثقافي.

يتعين علينا في هذا التمهيد تبرير عنوان هذا الفصل الذي قد يثير التساؤل. فما علاقة الثقافة، وثقافة الصورة الألكترونية بالاقتصاد وأسواق المال؟ لقد درجت العادة على أنهما ملفان مستقلان، فما وجه الصلة الذي يجيز الربط بينهما؟

إنها أطروحة نتبناها في هذه الدراسة، وسنحاول البرهنة عليها بالطبع. لكل مجتمع ثقافته ووسائطها. والمجتمع هو في الأصل حالة حضارية. وبالتالي فثقافة المجتمع هي التعبير عن حالته الحضارية. وهكذا فللبداوة ثقافتها المعروفة: العصبية، الحسب والنسب، انفتاح قنوات الاتصال والتفاعل عامودياً وأفقياً، وكذلك قيم الخشونة والشجاعة والشهامهة والفروسية والكرم وإغاثة الملهوف. وفي مقابلها الغزو والسبي والعيش من ثمار حد السيف. هذه كلها التي عرضها ابن خلدون في علمه عن العمران، تمثل حالة التكيف لنمط العيش في البيئة الصحراوية بالغة القسوة ونادرة الموارد[3]. كذلك فإن الثورة الصناعية أنتجت ثقافتها القائمة على العقلانية والفاعلية والتخطيط والبرمجة والجدولة، وتسيير الموارد المادية والبشرية، والنظم والمؤسسات والقوانين. كلها قامت لخدمة احتياجات وأغراض الثورة الصناعية في السيطرة المزدوجة على الموارد الطبيعية من خلال العلوم والتكنولوجيا، وعلى الطاقات الإنسانية، من خلال العلوم الإنسانية. فهذه الأخيرة وخصوصاً علوم

---

(3) انظر محمد عابد الجابري في كتابه «فكر ابن خلدون ـ العصبية والدولة، بيروت 1992 م، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الخامسة.

النفس والاجتماع والتربية لا تعدو كونها علوم إعداد وتسيير وصيانة. ومن خلال السيطرة كغاية كبرى موجهة للثورة الصناعية، حدثت الإنجازات الحضارية الراهنة كلها. إلا أنها حملت معها بالطبع سلبياتها التي كلفت الإنسانية أثماناً باهظة كذلك. قوة السيطرة لخدمة أغراض الإنتاج، هي عماد ثقافة الثورة الصناعية من خلال إطلاق العقل من عقاله(4) وتحريره من كل قيوده، وتحطيم المعوقات التي تقف في وجه انطلاقته في مغامرته الكبرى. ومن هنا تأتي تسمية العقلانية كصفة عامة لما يميز ثقافة هذه الثورة.

جل معارك الفكر الغربي الفلسفية الكبرى كانت ترمي إلي إحلال العقل والعقلانية في موقع الصدارة. حتى أصبح العقل هو الفضيلة الكبرى. وفي مقابلها تم تهميش واستبعاد كل ما هو غير عقلي(الجنون، الماورائيات)، كما تشير أعمال فوكو(5). على أن قوة السيطرة عادت فاستوعبت كل ما أخرجته من دائرة المعقول: استيعاب الجنون وفهمه علمياً، استيعاب الجسد وطاقاته من خلال ولادة العيادة وعلم التشريح، استيعاب الطاقات المنتجة وتقنينها من خلال الضبط والبرمجة والتنظيم (في المدرسة والجيش)(6).

---

(4) كم هو طريف أن نجد لغوياً إن مصدر كلمة عقل في اللغة العربية يعني القيد والربط والضبط، بينما يعني في الغرب التفكير والاستيعاب وإيجاد الأسباب.

(5) انظر خصوصاً كتابه L'HISTOIRE DE LA FOLIE A L'AGE CLASSIQUE, PARIS, GALLIMARD.

(6) انظر بهذا الصدد كتاب فوكو SURVEILLER ET PUNIR حيث يقدم عرضاً جميلاً لكيفية قيام الغرب بضبط وتنظيم الطاقات البشرية من أجل حسن توظيفها في الصناعة والجيش. ولقد أمضى الغرب ما يزيد عن القرن من الزمان لضبط وتنظيم الفلاح، الخاضع للاقطاعي حيث كانت طاقاته مفلتة، إلى الجندي والعامل في المصنع بطريقة الحركة والزمن والإدارة العلمية. يقدم فوكو في هذا

ووصولاً إلى استيعاب اللاوعي وعقلنته من خلال اكتشاف لغته ومنطقه على يد فرويد. واستيعاب الرغبات ومنطقها، كما ورد في أعمال فوكو حول إرادة المعرفة، وسلطة المعرفة. اندفاعة قوة سيطرة العقلانية لم تترك شيئاً خارج نطاقها[7]. وكان للتربية وعلم النفس من ذلك نصيب كبير. فمن التجريب على الحركات والسلوك والطاقات، إلى التيارات السلوكية التي تضبط وتقنن السلوك وتفرزه إلى مرغوب يعزز، وغير مرغوب يعدل؛ لخدمة توظيف السلوكات وتكييفها لأغراض الموافقة والإمتثال والإنتاج. ومن ثم تجاوز هذا من خلال بروز التيارات المعرفية: معرفة كيف يعمل العقل، وكيف يدرك المعلومات ويخزنها ويشتغل عليها ويعيد انتاجها، وكيف يعي. وهي كلها تشكل أحد الموضوعات الأكثر راهنية في علم النفس، مما يرتبط بأغراض الوصول إلى بناء آلات ذكية، وتطوير الذكاء الصناعي من خلال فهم آليات عمل الدماغ الإنساني والبناء على نسقها.

ثقافة العقلانية هذه في مغامرتها الكبرى وانجازاتها الرائعة، تميزت بالقطيعة وتجاوز ذاتها دوما (كما يذهب إليه فلاسفة العلوم من مثل باشلار) من أجل مزيد من الاقتدار المعرفي على السيطرة والضبط والتوجيه وفاعلية الانتاج. إلا أنها انتجت بدورها ما يتجاوزها، أي حضارة ما بعد التكنولوجيا. وها هي الآن أمام إحدى

= الكتاب من ضمن ما يقدم عرضاً جميلاً لكيفية قيام مدارس اليسوعيين بضبط وتنظيم حياة التلاميذ بالدقائق في المدارس الداخلية.

(7) يلخص ميرلو بونتي، الفيلسوف الفرنسي، هذا الأمر أروع تلخيص حيث يقول: «إن استقصاء اللامعقول ودمجه في عقل موسع يمثل مهمة هذا القرن»، ورد في كتاب التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، تأليف السيد ولد أباه، بيروت 1994، توزيع الدار الجامعية للدراسات والنشر (مجد).

ثمارها (ثقافة الصورة وإيديولوجيتها الجديدة) التي بدأت تحاصرها. ذلك أن الغاية الكبرى قد تحولت من الإنتاج إلى الربح السريع. كان الإنتاج يحتاج كي يتحقق إلى ثقافة العقلانية. أما الربح السريع الذي بدأ يشكل الظاهرة الجديدة في الاقتصاد (أقتصاد السوق، والسوق المالية) فهو يحتاج إلى ثقافة مغايرة هي التي نتناولها بالبحث في هذا الفصل: إنها ثقافة الصورة الألكترونية، التي بدأت تمثل حالة شبه قطيعة مع ثقافة العقلانية. على أنه لا بد من الإشارة إلى أن ثقافة الصورة لم تبرز كلياً في الأصل لخدمة اقتصاد السوق، بل هي مرتبطة به من خلال تكنولوجيا المعلومات المشتركة بينهما من ناحية، ومن خلال وضع يد سوق المال على الإعلام ووسائطه من ناحية ثانية. إنها حالة ليس من المبالغة في شيء تسميتها بالمصادرة التي بدأت تتعاظم، وإن لم تصبح بعد شمولية. ذلك أن هناك قوى سياسية تقليدية لا زالت تنافسها في عملية المصادرة هذه، كما هو حال الإعلام في عدد كبير من بلدان العالم الثالث؛ حيث يُجيّر لخدمة تعزيز السلطة في المقام الأول.

ثانياً: ثقافة الصورة وتكنولوجيا المعلومات:

حتى تتضح معالم تأثير ثقافة الصورة، لابد من وقفة سريعة حول مرتكزاتها التكنولوجية. المعلومات المتوافرة في هذا الموضوع متعاظمة دوما. ويمكن إيجاز الأمر في القول بأن الكتابة فيه تتقادم بسرعة. فالمعلومات التي كانت تعتبر ثورة في الإتصال تصبح في زمن وجيز من الأمور الشائعة حتى في الأوساط الشعبية. وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أننا بصدد حالة مفتوحة النهاية متسارعة الخطوات. التقدم التكنولوجي في هذا المجال يمر بقفزات ذات تسارع هندسي. وأما على صعيد الاستهلاك فما كان يعتبر

محصوراً في قلة قليلة، سرعان ما أصبح تكنولوجيا عامّ الإنتشار والاستخدام. لا تلبث التكنولوجيا الجديدة تنزل إلى السوق حتى تصبح من الأمور المألوفة من مثل «الكيبل» والأطباق؛ حيث يكون العالم كله بين يديك فعلاً وباللحظة عينها، من خلال برامج البث المباشر. التسارع الزمني يصاحبه انتشار مكاني، حيث أصبح فضاء الكرة الأرضية مغطى بشبكة كاملة. لم يعد هناك فضاء محظور، وما هو مغلق اليوم يصبح مفتوحاً ومشاعاً غداً (أمريكا قررت فتح موجات البث الفضائية للمبادرات الخاصة). نحن إذا إزاء ما يطلق عليه العاملون في الميدان «الحتمية التكنولوجية الإعلامية».

تقوم وراء هذه الحتمية، تكنولوجيا فائقة القدرة على تبادل المعلومات ونشرها من خلال ثلاثي الحاسوب ـ القمر الصناعي ـ التلفزيون. ناهيك عن ادماج هذه التكنولوجيا من خلال التلفزيونات ذات الحواسيب المدمجة، وذات القدرة على الإلتقاط الرقمي للصورة. وبالطبع أصبحت التلفزيونات المدمجة في الحواسيب الشخصية مسألة شائعة[8]. من هنا فإن ثقافة الصورة لا تملأ علينا

(8) إننا راهناً ندخل عصر التقنيات الرقمية في معالجة المعلومات وتوصيلها، حيث تحول جميع أنواع البث الصوتي والصوري إلى أرقام معالجة حاسوبيا تضغط الإشارات وتضاعف حجم الإرسال. إذ يمكن استخدام خط واحد للبث التلفزيوني والمكالمات الهاتفية والدخول إلى قواعد المعلومات مع توفير الوضوح العالي والدقة في الصوت والصورة والشاشة متعددة النوافذ. ولقد أتاحت هذه التكنولوجيا الرقمية راهناً انتاج جهاز صغير بحجم الكف البشرية يحمل في اليد ويقوم بوظائف متعددة: استقبال البث الإذاعي والتلفزيوني وإرسال الفاكس عبر القمر الصناعي، كما يمكن وصله بالحاسوب وقواعد المعلومات لبث النصوص والرسوم والخرائط الملونة، وأفلام الفيديو.. ويتسائل أحد الخبراء حول الاسم الذي يمكن اطلاقه على جهاز من هذا النوع يتجاوز كل من الفاكس والتلفون والتلفزيون والفيديو والكمبيوتر والراديو إذ يجمعها كلها.

دنيانا فقط، بل هي تصنعها شكل متزايد في يسره ونفاذه وشموله. ولن يمضي وقت طويل قبل أن يلتقط جهاز التلفزيون العادي عدة مئات من البرامج من محطات تُبنى كي تبث دفعة واحدة ما يزيد عن 1000 برنامج من كل فن ولون وذوق. إننا بصدد حالة فعلية من إغراق إعلامي يعبر عن مدى تزايد قوة ثقافة الصورة ونفاذها.

كما لن يمضي وقت طويل، قبل أن يتحول جهاز التلفزيون في المنزل إلى سوبر ماركت إعلامي لا يلتقط ما تبثه المحطات فقط، بل هو مربوط بقواعد المعلومات التي تختزن مجمل الثروة البشرية من المادة المصورة والمرئية. ومن هنا يتكاثر الحديث عن «إدمان الشاشة» وعن «نساك الشاسة». تلك هي التكنولوجيا التي ستقدم الثقافة التي تتلقاها وتتعامل معها الأجيال الطالعة. إنها ليست مجرد تلقي ومشاهدة فقط، وليست مجرد اختيار من لا محدود، بل هي تفاعل نشط من خلال بداية انتشار تكنولوجيا الكتب الالكترونية التفاعلية. حيث المشاهد مؤلف ومخرج في آن معاً: يعدل في النص زيادة ونقصاناً وتحويراً، كي ينتج نصاً جديداً. وهو ما أخذ يشغل اهتمام الناشرين حول حقوق النشر والتأليف، التي أصبح البعض يراها مسألة بائدة، لا مكان لها بعد اليوم في الثقافة الألكترونية[9]. ومن الكتب التفاعلية إلى الأفلام التفاعلية، المسافة ليست بعيدة؛ بل

= وتتطور تكنولوجيا الذكاء الرقمي هذه بسرعة خارقة.

(9) انظر جريدة الحياة العدد 11697 بتاريخ 28 شباط/فبراير 1995 م الصفحة 12، حيث تعرض تقريراً بعنوان المؤتمر الدولي للكتاب إلالكتروني يناقش نهاية عصر الكتب المطبوعة، بعد عام 2000: الكتب الكترونية وناطقة توزع عبر الخطوط الفورية. في هذا العرض يطرح الناشرون همومهم وحقوقهم مع انتشار الكتاب التفاعلي الذي يمكن للقارىء ـ المشاهد أن يدخل عليه ما يحلو له من تعديلات مما يحور النص الأصلي بمقادير متفاوتة.

هي بصدد الشيوع من خلال الواقع الإفتراضي.

التلفزيون لا يملأ علينا دنيانا فقط من خلال نقل الواقع الحي مباشرة أو غير مباشرة، بل هو بصدد صناعة دنيا الأجيال الطالعة من خلال الواقع المخلَّق: الواقع المصنوع حاسوبياً. هذا الواقع الذي يمكن مزجه بدرجات متفاوتة مع الواقع الطبيعي، يتعذر حتى على الأكثر فطنة تمييزه. بدأ الأمر مع أفلام الرسوم المتحركة للأطفال المصنوعة بالحاسوب، وهو بصدد الحلول محل التمثيل السينمائي والممثلين، واستحضار النجوم التاريخيين في تمثيل مصنوع.

هذا الواقع المخلق وإمكانات مزجه تكنولوجيا مع الواقع الفعلي يخلق حقاً عالماً جديداً كلياً من ثقافة الصورة. عالم له قوة تأثيره التي يمكن إطلاق تسمية «البلاغة الالكترونية» عليها.

البلاغة الالكترونية تأتي كي تعزز وتضاعف بلاغة الصورة المرئية التقليدية، والتي أصبح معروفاً مدى استخدامها في الإعلام: مؤثرات الصوت المجسم والألوان المبهرة، وتقنيات التكثيف والتركيز والتكبير والتصغير والدمج والفرز والإنزال، والمزج والتسلسل، إلى ما هناك من تقنيات إخراج. وهي تتوسل كل مبادىء التأثير الحديثة في علوم نفس الحواس والاستقبال الحسي والإدراك. هذه البلاغة لا يمكن المشاهد إلا الاستسلام لمتعها العديدة، وبالتالي تأثيرها الصريح منه والخفي، المباشر والمداور، الآني واللاحق، حيث أصبح معروفاً في علوم الإدراك أن مقدار الوعي بما يدرك من مثيرات لا يشكل سوى نسبة محدودة مما يتم تلقيه. كما أن بلاغة الصورة مضافة إلى البلاغة الالكترونية وتلقيها من أكثر من حاسة في آن معاً، وتوجهها إلى أكثر من رغبة ودافع في الوقت نفسه، وقوة نصوعها وتماسكها وانسجامها كأشكال وسيناريوهات، تجعل عملية بناء الشبكات العصبية المعرفية الخاصة باستيعابها

وتخزينها أقوى بكثير. إضافة إلى كونها لا تتطلب جهداً عقلانياً واعياً ومركزاً. ومن هنا تتكون شبكات معلومات في الدماغ ذات حجم وسرعة لا يقارنان ببطء تكون الشبكات المعرفية الناتجة عن النص المكتوب الذي يحتاج إلى جهد عصبي كبير لفك رموزه وتأويله ثم استيعابه. بلاغة الصورة تقدم مادة مشغولة سلفاً وجاهزة للاستيعاب.

فكم هي رائعة وعظيمة هذه الأمكانات المعرفية! وكم هو عظيم تأثيرها الذي يفلت جله من التصفية النقدية والانتقاء. وبالتالي كم هي كبيرة الأخطار؛ إذا تحولت المسألة إلى عملية تلاعب وصناعة موافقة! قوة النفاذ تدعمها قوة الانتشار والتوصيل والتنويع اللامحدود، مما يبين بصدد أي حالة ثقافية غير مسبوقة سنكون عليه مستقبلا.

من هنا ارتفاع المطالبة بدراسة «أبجدية الصورة»[10] واستيعاب بلاغتها وصرفها ونحوها ومؤثراتها. ومن هنا المناداة الراهنة والمتزايدة بحق المشاهد والملتقي بأن تمحي أميته الثقافية الجديدة، كي يستعيد زمام الموقف النشط وحق الاختيار الفعلي. وفي نفس السياق نجد دعوات المناداة بمواثيق دولية جديدة لحقوق حماية المشاهد من «تلاعب العقول» وحقه في وضع الضوابط على المغريات الكثيرة الوطنية والعالمية للتلاعب الإعلامي الثقافي المرئي.

---

(10) انظر PHILPPE QUEAU، في مقالته في مجلة لوموند ديبلوماتيك، عدد آب/ أغسطس 1993 م بعنوان LA REVOLUTION DES IMAGES VIRTUELLES والعنوان الفرعي: L'ERE DE L'APRES TELEVISION A DEJA COMMENCE.

ثالثاً: ثقافة الصورة واقتصاد السوق:

ثقافة الصورة في قوة تأثيرها وانتشارها، تمثل فرصة غير مسبوقة في تاريخ البشرية للإعلام والتوعية والتثقيف وكسر حواجز العزلة، وربط الإنسان بالكون، وتفتيح آفاقه الفكرية على قضاياه. إنها فرصة للتوعية والتربية والتنشئة. وقد تكون مشروعاً حضارياً للارتقاء بنوعية حياة الإنسان، من خلال المعرفة والتدريب والتبصر بأحوال الحياة واللقاء والتفاعل. فأين هو الواقع من هذه الإمكانية؟

كما هو معلوم هناك مصادرة مزدوجة الاتجاه لثقافة الصورة محلياً وعالمياً. محلياً تدرك السلطة وأصحاب الشأن فيها مدى أهمية الإعلام المرئي. ولذلك فهي تفعل كل ما يمكنها لمصادرته خدمة لمصلحتها، ومصلحة تعزيز سلطتها ونفوذها على المواطنين. ويتم ذلك عموماً باسم الحفاظ على الخصوصيات الوطنية، وإبراز القضايا والدفاع عن المصالح. وتكون النتيجة كما هو معروف وشائع تحول هذه الوسائل إلى منابر دعاية وتمجيد للسلطة. ويتوسل في ذلك كل مداخل الإطالة والتكرار والأحادية في الرؤية والتركيز لدرجة التشبع.

ونظراً لقلة الأمكانات المادية والفنية تأتي المادة الإعلامية متواضعة المستوى والمحتوى، تفتقر إلى الكثير من مقومات البلاغة الألكترونية ذات القدرة على النفاذ إلى الأذهان والنفوس.

كما أن تواضع الإمكانات الفنية والمادية يؤدي غالباً إلى سد الفراغ وملء ساعات البث بمادة لا تتمتع بمواصفات الجودة المطلوبة من إنتاج محلي. إنما الغالب هو ملء ساعات البث بمادة إعلامية قديمة من مسلسلات وسواها تُشترى بثمن زهيد، أو هي توزع على تلفزيونات العالم الثالث مجاناً من قبل المنتجين بعد أن استنفذت أغراضها لديهم. وذلك طمعاً في قيمتها الدعائية. وهكذا

يتكرر مشهد ازدحام الشاشة المحلية بنفس الأفلام تُعرض العديد من المرات على فترات، فيما بين فقرات البرامج الدعائية للسلطة القائمة وإنجازاتها، أو الدعاية التجارية.

هذه الحالة، مع كسر الحصار المحلي من قبل المحطات الفضائية تجعل الجمهور يتوجه إلى الإعلام الخارجي الذي يحمل له التشويق والإثارة والغنى والتنوع والمتعة. وهنا تحدث المصادرة الأخرى.

لقد دخلت التكتلات الصناعية الكبرى إلى مجال الإعلام وثقافة الصورة وفرضت سيطرتها عليه من خلال مداخل متعددة.

إشترت هذه التكلات قنوات التلفزيون الرئيسية: وستنجهاوس إشترت CBS، جنرال الكتريك اشترت NBC، والت ديزني إشترت ABC. أصبح التلفزيون الأمريكي سوقاً تجارية مربحة تتحكم فيه هذه التكتلات(11). وبالطبع فلقد حددت السياسة الإعلامية خدمة لمصالحها. وهو ما أدى إلى تقييد التعددية الثقافية وإختزالها في عملية تنميط أحادي الإتجاه هو ثقافة السلعة والاستهلاك. دخلت شركات المعلوماتية والتلفونات على الخط لتأسيس شركات بث كبرى ذات طابع تجاري ربحي؛ مما حول الإعلام إلى سلعة تجارية. هذه الشركات هي التي تقوم حالياً بتطوير تكنولوجيا الإعلام

---

(11) انظر مقالة PAUL MORIERA في مجلة لوموند ديبلوماتيك عدد سبتمبر/ أيلول 1995 م، بعنوان: LES ENFANTS MALADES DE LA PUBLICITE.

يقول هذا الكاتب إن هذه الشركات الصناعية المالية العملاقة هي مؤسسات محافظة أدت من خلال سيطرتها على الإعلام المرئي إلى فرملة الكلام عن «التعددية الثقافية». وإن الإرسال الموجه إلى الأطفال ليس له من هدف سوى حشوهم بـ «الثقافة الأحادية للسلعة».

وتملك وسائله التقنية والمالية. وبالتالي فهي تدير مشاريع ربحية في الأساس.

تمويل إنتاج المسلسلات التلفزيونية يشكل مجالاً آخر للسيطرة. يمثل اتفاق شركة بروكتر وكامبل (وهي أكبر معلن عالمي للمساحيق والصابون) مع شركة بارامونت للأنتاج التلفزيوني حالة بالغة الدلالة[12]. تمول شركة بروكتر وكامبل إنتاج بعض المسلسلات إنما بشروطها هي. ومن أبرزها إنتاج مسلسلات جميلة ومشوقة تدغدغ أحلام المشاهدين كي تعرض في ساعات الذروة، وتبث عليها إعلانات صابون الجمال. وتصر هذه الشركة، وسواها من الشركات المعلنة، على تجنب الأفلام الخلافية التي تطرح إشكالات وقضايا وتفتح المجال للجدل، حيث ترفض الإعلان عليها. وهو ما يضطر شركات التلفزيون، نظراً لأهمية التمويل الإعلاني، إلى الخضوع لرغبة المعلنين الذين يهمهم الترويج لسلعهم من خلال ربطها بالتشويق وإدراجها في سياق تقديم عالم وردي.

ومثل هذا الأمر يحدث في تحكم الشركات الكبرى المعلنة بنشرات الأخبار. فيتم مراعات شروطها من مثل تجنب الخوض في الموضوعات التي قد تثير تساؤلات حول ممارساتها (التسليح، التلوث...). تتفنن شركات البث بالتغطية الإعلامية للأحداث التي تتصف بالإثارة والإبهار وشد انتباه المشاهدين، وصولاً إلى اقناع الشركات المعلنة بشراء الحيز الإعلاني: من يقدم البرامج الأكثر تشويقاً يستقطب الكمية الأكبر من الإعلانات. المذيع ومقدم البرامج الذي يستطيع شد الانتباه إليه أطول فترة ممكنة يحظى بتدفق

---

(12) جريدة الحياة، العدد 11732، نيسان / ابريل 1995 م.

الإعلانات، وتدفق الأموال المجزية[13].

وهكذا يتم شراء الإعلاميين وتحويلهم إلى مجرد أدوات لتنفيذ توجهات الشركات الكبرى. حتى المناظرات والحوارات تتحول أحياناً إلى استعراضات ضمن نفس الإطار (تفتح مئة زهرة في بستان سوق المال والأعمال). إرتهان الإعلام أدى إلى فرض رؤى الشركات الكبرى المعلنة، أو الممولة أو المالكة، وترويج فكرها الواحد الوحيد[14]. فما هو هذا الفكر، وما هي توجهاته، وأين هي المشكلة في ذلك أصلاً طالما أنه لابد من تحكم بشكل أو بآخر؟.

رابعاً: اقتصاد السوق وفلسفته:

قبل بحث كيفية وأليات تأثير اقتصاد السوق على ثقافة الصورة، لابد من وقفة سريعة للنظر في ملامحه وتوجهاته وفلسفته، مما يطبع هذه الثقافة بطابعها في نسبة هامة من القنوات الفضائية.

1 ـ خصائص اقتصاد السوق:

نهايات القرن وضعتنا أمام حالة جديدة قوامها ثنائي اقتصاد

---

(13) انظر مقالة ادوار سعيد بعنوان «الإعلام الامريكي المستقل وحادث أوكلاوهما»، جريدة الحياة العدد 11765 بتاريخ 8 أيار/ مايو 1995 م.

(14) انظر مقالة SERGE HALIMI بعنوان «بؤس الإعلام في فرنسا»، مجلة لوموند ديبلوماتيك، العدد 491، شباط/فبراير 95 م. يقول حليمي بأن قطاع الأعمال والصناعة العملاق يشتري الاعلام المرئي خصوصاً ويحَول الصحافيين إلى مجرد أدوات لتنفيذ توجهاته الكبرى تاركاً لهم التصرف ببعض التفاصيل. . . ويتحول هؤلاء الصحافيون إلى قساوسة دنيويين للفكر الوحيد PENSEE UNIQUE، مما أدى إلى إفقار المساجلات العامة. وهكذا، يقول حليمي بأن الإعلام المرئي يقدم مشهد الشمس التي لا تغيب عن امبراطورية اللامبلاة الحديثة، يقدم الحلم الذي لا يعبر سوى عن مجتمع الفرجة SOCIETE DU SPECTACLE.

السوق ـ المعلوماتية. تلاقي هاتان القوتان خلق وضعا يتمتع بقوة هائلة يمتد نفوذها كونيا، وصولا إلى نسف حدود الزمان والمكان. تفاعلهما الوظيفي هو الذي أسس للعولمة: عولمة السوق وتغطية الكرة الأرضية بشبكة معلوماتية. ومن هنا الحديث عن سوق مالية كلية. اقتصاديا، لم يسبق للبشرية أن عرفت هذا القدر من تراكم رأس المال في أيدي شركات عملاقة ذات سطوة وامتداد على مساحة الكرة الأرضية، فيما يتجاوز مفاهيم رأس المال الوطني والعمالة والإنتاج الوطنيين. ويرافق هذا التراكم لرأس المال العملاق تحول متسارع الوتيرة من اقتصاد السلع والخدمات إلى السوق المالية التي أصبحت تشكل الاقتصاد الرمزي الجديد. ويقدر الخبراء بأن حجم هذه السوق المالية (أسهم ومبادلات وعمليات مالية) يتراوح ما بين 60 ـ 100 ضعف حجم التداول السلعي الخدماتي عالمياً[15]. وهم يقدرون حجم التبادلات المالية في هذا السوق بحدود 1000 (ألف) مليار دولار يومياً تمثل رأس المال الجوال أو الطيار (كما يسمونه)[16] ما بين مختلف أصقاع الأرض، على مدار الساعة

---

(15) ذكره PHILIPPE QUEAU في مقالته بعنوان «الاقتصاد السيبرنطيقي من يضبطه؟» في مجلة لوموند دبلوماتيك، العدد 493 نيسان/ ابريل 1995 م. وفي هذا المقال يعرض العديد من أوجه السوق المالية الإلكترونية، والعملة الرقمية، والتواقيع الرقمية التي تتجاوز عمليات البنوك المباشرة في حالة من الاقتصاد المخلق ECONOMIE VIRTUELLE حيث يجري كل شيء على مستوى التعامل الرمزي الكامل على النطاق العالمي.

(16) ورد هذا التعبير بقلم الفيلسوف الفرنسي ROGER LESGARDS في مقال بعنوان L'ELITE ET SON PRAGMATISME، (النخبة وذرائعيتها)، في مجلة لوموند ديبلوماتيك، عدد 493، نيسان/ ابريل 1995 م. في هذه المقالة يتحدث من ضمن ما يتحدث فيه عن الاقتصاد ـ العالم ECONOMIE - MONDE حيث يتجول رأس المال الطيار بدون أن يقرّ له قرار، بحثاً عن فرص الربح الآني

وطوال العام، بحثاً عن فرص التبادلات التي تحق ربحاً عاجلاً.

تتعزز قوة هذه السوق المالية من خلال طفرات المعلوماتية وشبكات ربطها لمختلف نقاط الكرة الأرضية حيث يمكن للمال أن يوظف أو ينشط لتحقيق المكاسب. ولقد أصبح يعرف هذا الربط الألكتروني باسم الفضاء التفاعلي الألكتروني الذي ألغى فعلا حدود وقيود الزمان والمكان: كل ما على وجه الكرة الأرضية يمكن أن يعامل هنا والآن في أي من نقاط هذه الشبكات.

لقد أصبحت المعلوماتية أكبر اقتصاد عالمي مستقبلي. وبدأ ينشأ تقسيم عالمي جديد للعمل. هناك اقتصاد انتاج السلع المعتادة التي سيوكل أمرها إلى العمالة الرخيصة في العالم الثالث، إضافة إلى تحميله عبء التلوث الناجم عنها. وهناك اقتصاد النخبة المتمثل بالتعامل مع الرموز الرقمية: انتاج تكنولوجيا المعلومات وتشغيلها وتقنينها وحماية عملياتها وصيانتها. تتخصص فيها بلدان ما بعد التكنولوجيا بقيادة أميركا[17].

ثنائي المعلوماتية ـ السوق المالية أدى إلى انفجار الانفتاح الكوني متجاوزاً حالة السوق الاقتصادية الدولية إلى ما أصبح يطلق عليه اسم «العالم ـ السوق» حيث الكون بإمكاناته وخيراته وفرصه على الشاشة متعددة الوسائط. ويتم ذلك بشكل حي مباشر ودائم. إنها نوع من السوق المالية الرقمية التي اتخذت تسمية «الإقتصاد السيبرنطيقي» (أي الاقتصاد المتفاعل والمتبادل الضبط والتأثير بشكل الكتروني) العمليات مباشرة بلا حدود ولا

= بفضل طرق المعلومات السريعة التي تعلم وتطمس INFORMENT ET DESINFORMENT، متضافرة كي تشوش الآفاق والرؤى.

(17) انظر مقالة PHILIPPE QUEAU السابقة في الهامش 14.

آجال، ولا وسطاء فيما يطلق عليه «ما فوق التراب الوطني» «EXTRA TRRITORIALITY»[18].

تراكم رأس المال الهائل في أيدي الشركات العملاقة جعل تمويل طرق المعلومات فائقة السرعة ممكناً، حيث تقدر كلفته بنحو 1000 (ألف) مليار دولار، وينفذ على مدى عشر سنوات من قبل هذه الشركات[19]. وهو يهدف إلى الاستيعاب الألكتروني المعلوماتي الكامل للكرة الأرضية. ويستفيد منه بالطبع من يموله أساساً. ذلك أن رأس المال هذا لديه وحده الإمكانات التقنية للإنشاء والتشغيل. بينما سيظل حظ بلدان العالم الثالث من ذلك ضئيلاً بسبب فقر إمكاناته المالية ـ التقنية[20]. العالم الثالث في موارده وفرصه سيربط بهذه الشبكة، بدون أن يكون له فرصة وطنية معقولة بما فيه الكفاية للاستفادة من ثمراتها. وهكذا يزداد تركيز رأس المال، وتزداد قوة هيمنته.

2 ـ فلسفة اقتصاد السوق:

يلازم هذا الواقع، بناء إيديولوجية جديدة تخدمه، هي إيديولوجية إقتصاد السوق التي يروج لها عالمياً حالياً، من قبل مراكز القوى المالية ـ السياسية الدولية.

من أبرز مبادىء هذه الإيديولوجية: صدارة الاقتصادي على السياسي، مع دولة الحد الأدنى (أو الدولة الكومبارس الأداة) لصالح

---

(18) نفس المصدر.

(19) انظر مقالة JACQUES ROBIN بعنوان «أخطار مجتمع المعلومات الكونية»، مجلة لوموند ديلوماتيك، العدد 491، شباط/ فبراير 1995 م.

(20) لقد شبه أحد مفكري أمريكا الجنوبية هذه الحالة بسباق الدابة مع الطائرة النفاثة للدلالة على نوعية ميزان القوى، ونسب الحظوظ.

ولخدمة الاقتصاد الحر. التنافس والتبادل بدون قيود أو حماية. عولمة الإنتاج والتوزيع. رفع الدعم عن الخدمات الاجتماعية والصحية والتربوية من أجل زيادة القدرة المالية التنافسية، وتعويم العملات الوطنية.

تروج هذه المبادئ كونيا على أنها الحالة الطبيعية للأشياء، فيحل السوق محل الاجتماع والتاريخ. وتقوم حملة منظمة في كل وسائل الإعلام من أجل تسفيه كل معارضة أو نقد، على أنها تخلف وخروج عن روح العصر، وفقدان للفرص. وبالمقابل تكرس الوهية المال Moneytheisme.

وأما بلدان العالم الثالث فمطلوب منها تنفيذ الشعار المهذب المتمثل في «التكيف البنيوي»، كي تُعطى جواز الدخول إلى الجنة الموعودة.

وأما المنهج الجديد لهذه الإيديولوجية فيتمثل في براغماتية الربح الآني أو السريع باعتباره، كما يقول جون برجر[21]، الوصفة السحرية الوحيدة والفريدة الشافية لعلل البشرية؛ فلا حل آخر ولا سبيل آخر. إنما يغفل هذا الربح السريع كل الاعتبارات الأخرى: التبصر، التفكير، الرؤى بعيدة المدى، التشاور والحوار بما هي ضرورات أي بناء مستقبلي.

ويقوم تنميط وتدجين كونيين للسلوكات والممارسات

---

(21) جون برجر كاتب وناقد بريطاني معاصر، يعيش في أوروبا. وردت هذه الفكرة على لسانه في مقابلة تلفزيونية مع محطة BBC، في أيار / مايو 1996 م، حيث أبدى ثورته على هذا الاختزال. كما أبدى قلقه العميق على كون من يديرون هذه العمليات المالية الكونية ويتحكمون بها هم أناس غير ظاهرين على المسرح، وغير منتخبين أو مفوضين سياسياً من المجتمع، وبالتالي فهم يفلتون من المساءلة.

والخيارات والتوجهات في نوع من الفكر الأحادي، الذي أطلق عليه تسمية «الظلامية الجديدة» NEW OBSCURANTISME.[22]

3 ـ آليات تحكم ثنائي السوق المالية ـ المعلوماتية:

يتوسل هذا الثنائي آليات تحكم مزدوجة المستوى: الحكومات، والإعلام.

على المستوى الأول تقوم حكومات الدول المتقدمة بلعب دور المروج والمدافع عن هذا المشروع. توجهاتها السياسية والاقتصادية منخرطة في العولمة وزيادة القدرة التنافسية على حساب دورها التقليدي في القيام بمهمة الحكم الساهر على حسن سير مؤسسات المجتمع وتوازناتها. رجال المال ينظمون جداول الأعمال، ورجال السياسة يناقشون وينفذون.

وتقوم الحكومات بدور آخر هو لعب دور الدرع الواقية لهذا المشروع تجاه الجماهير واحتجاجاتها على حرمانها من مكتسباتها

---

(22) وردت هذه التسمية بقلم IGNACIO RAMONET، رئيس تحرير مجلة لوموند ديبلوماتيك، في إصدارها للعدد 27 من MANIERE DE VOIR، آب/ اغسطس 1995 م، في مقالته الافتتاحية بعنوان PPII (كوني ـ دائم ـ راهن ـ لا مادي). وفيها يتحدث عن ألوهية المال وأركانه الأربعة: الامتثال، الإيمان، العبادة، والرهبنة الجديدة. إلا أنه كرس المقالة في الأساس للحديث عن تعاليم سوق المال التي تروجها وتفرضها وكالاته التي أطلق عليها اسم «الشرطة الخفية» التي تحاول أن تخنق كل محاولة للتفكير الحر الذي ينتقد تعاليم الخصخصة والتكييف البنيوي. وذلك في تجاهل كامل لكل الآثار والمآزق البيئية والاقتصادية التي سوف تخلفها وكذلك الصراعات الاجتماعية والتطرف، وكأنها سراب لا وجود له. أو كأن الإشارة إليها هي من نوع الهلاوس المذنبة التي تشكك بالجنة الموعودة. وهو ما يؤدي برأيه إلى تخدير الوعي، حيث بدأت قوانين السوق تحل محل قوانين الطبيعة والتأريخ في التفسير العام لحركة المجتمع في نوع الداروينية الاقتصادية: التنافس، الانتقاء، التكيف.

التي حصلت عليها بعد معارك مديدة. وهو مشهد أصبح مألوفاً في هذه البلدان.

ويضاف إلى دور الحكومات بعد ثالث هو تغطية وعلاج الآثار الكارثية للصفقات المالية المتهورة والمغامرة، أو الممارسات غير المشروعة، مما تأتينا أخباره عن فضائح بعض البنوك العالمية المعروفة التي أخذت تتكرر أو تتكشف. ذلك أن الاقتصاد الالكتروني يشكل إغراء لا تسهل مقاومته للمغامرين أو المتحايلين. ويكون على المال العام دفع ثمن تغطية الفضيحة في كل مرة، حتى يستمر أمر سوق المال. أما محاكمة بعض المغامرين الماليين فهي لا تعوض الضرر بالطبع.

وينحو الحال المنحى نفسه في دول العالم الثالث، حيث تُدفع أنظمتها إلى تنفيذ تعليمات التكيف البنيوي من ناحية، ومحاولة إغراء الناس بالجنة الموعودة وربطها بالمشروعية الوطنية من ناحية ثانية.

أما على صعيد **الإعلام** فهناك سيطرة عليه كما سبق بيانه. وهناك توجيه لثقافة الصورة لخدمة الإيديولوجية نفسها، وصولا إلى تحويلها إلى سلعة.

ما هي المشكلة في كل ذلك؟ ولماذا هذا التحفظ، وهل له ما يبرره؟ يتساءل ميتران في خطابه إلى قمة كوبنهاجن صيف 1995 حول «التكييف البنيوي» في العالم الثالث قائلاً «هل سندع العالم حقاً يتحول إلى سوق عالمية، لا تحكمها أية قواعد باستثناء قانون الغاب ولا غرض من ورائها إلا تحقيق أكبر مكسب، أكبر ربح في أقصر وقت ممكن؟»[23] أما خلفه شيراك فيعلن ضيقه من «إيدز السوق المالية».

---

(23) انظر جريدة الحياة بتاريخ 13/ 3/ 95 م.

أما تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية لعام 93، فيبرز كيف أن الدول الفقيرة لم تتوفر لها أي حماية من الشروط المرهقة لأسواق المال الدولية. كما أن الوكالات المالية العالمية التي أنشأتها الأمم المتحدة (البنك الدولي وصندوق النقد الدولي) لمساعدة الدول الفقيرة في تبادلاتها المالية وقروضها مع الدول الغنية، فلقد «شردت بعيداً عن تفويضها الأصلي»[24]. فسياسات الصندوق في الإقراض للدول النامية «والشروط المتعنتة التي وضعها عليها، أدت إلى خنق النمو الاقتصادي من خلال خفض الإنفاق العام والخاص»[25].

أما البنك الدولي فيقدم بناء للتقرير نفسه معدلات فوائد إقراض متعاطفة مع معدلات السوق. وهو «تحول أساسي عن دورة الأصلي في حماية الدول الفقيرة»[16].

وهكذا فالشركات العالمية تسخِّر هذه الوكالات لتنفيذ مشروعها وهو ما يذهب إلى تحقيق الربح السريع على حساب التنمية طويلة الأمد.

ويشير هذا التقرير إلى ظاهرة متفاقمة في البلدان المتقدمة والفقيرة على حد سواء، وهي التفاوت بين النمو الاقتصادي وفرص العمل. فبينما كان هذا التفاوت في تقدير التقرير بحدود 18٪ عام 1990، سيصبح حوالي 30٪ عام 2000.

ويدور الصراع عالمياً ما بين النمو الاقتصادي الفوقي الذي

---

(24) تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية 1993 م.

(25) نفس المصدر.

(26) نفس المصدر.

يذهب إليه اقتصاد السوق، وبين التنمية من القاعدة إلى القمة التي تحتاجها الدول النامية.

ونظراً لإغراءات سوق المال وضخامة التعاملات وسرعتها، فإن الباب أصبح مفتوحاً لكل التلاعبات الضخمة التي يقوم بها مغامرون شبان توكل إليهم مهمة إدارة هذه التبادلات الإلكترونية. فنحن كما قال أحد خبراء الأمم المتحدة إزاء «ظاهرة عالمية الأسواق بدون عالمية المسؤولية عن المصير»[27]. ومن هنا تفاقم الصراعات من كل نوع. هناك حسب تقارير الأمم المتحدة (1996) حوالي 70 بلداً يعاني من الصراعات. وهو أمر غير معرض للانحسار.

القضية الأساس في هذا كله هي استنزاف الموارد، وتحويل خيرات الكوكب إلى نفايات، سعياً وراء تكديس رأس المال. الربح الراهن لا يراعي مقتضيات نوعية حياة قابلة للبقاء.

والقضية الأساس هي في المفاضلة ما بين المشاركة في حمل مسؤولية المصير، وترك مجال حيوي قابل للعيش للأجيال الطالعة، وبين أحادية مفروضة تتمثل في اقتصاد الربح كحل وحيد، يحمل في طياته المآزق والأحقاد.

من هنا فإن وضع اليد على الثقافة الإلكترونية أمر يستحق التوقف عنده واتخاذ موقف منه.

خامساً: ثقافة الصورة وأيديولوجيا السوق:

كما هو شأن كل حالة اجتماعية ـ اقتصادية ـ سياسية، فإن للسوق المالية إيديولوجيا تخدمها، وهذه ذات شقين: علني ـ

---

(27) الدكتور عبد الله عبد الدايم، تجديد الاستراتيجية العربية في التربية.

سياسي ـ اقتصادي، وضمني ثقافي.

تتمثل الإيديولوجيا العلنية في أنظمة وقوانين وخيارات وسياسات وتوجهات منظورة، تشكل في مجملها العقيدة الموجهة. وهي في حالتنا إبعاد الفلسفة التي أشرت إليها، والتي يشكل الربح نواتها الأساسية، وتشكل التعليمات التي تروِّج سياستها التنفيذية (دولة الحد الأدنى، حرية الاقتصاد، إلغاء القيود، إلغاء التقديمات.. وصولاً إلى الحد الأقصى من المنافسة) وسائلها.

أما الإيديولوجيا الضمنية فهي تروَّج من خلال الإعلام والفلسفة التي توجهه، ومن خلال محمل الأنشطة الثقافية التي تهدف إلى قولبة وتنميط الجمهور عموماً، والشباب والناشئة خصوصاً. باعتبار أن قولبة هذه الفئة ترمي إلى بناء رؤية عن الذات والكون وما يتبعها من قيم وتفضيلات وأنماط وجود، وسلوكات وإشارات ورموز. وهي تتم عادة بشكل غير مباشر، وغير علني من خلال نظام متكامل من الأنشطة والعمليات. ذلك هو شأن كل ثقافة باعتبارها لا تخلو من إيديولوجيا ضمنية. وهو بالتالي شأن ثقافة الصورة.

ولا يستهدف هذا التنميط بلدان العالم الثالث تحديداً، كما كان شأن الغزو الثقافي التقليدي، بل هو يستهدف في الأساس جمهور البلدان المتقدمة التي تشكل المركز. ومنها يعمم كنموذج كوني على جميع الأقطار، وبدرجات متفاوتة الشدة. أبرز مثل على ما نذهب إليه هو التنميط الراهن للشباب عالمياً مما بدأ يعرف انتشاراً في كل مكان، من خلال المظهر والسلوكات والتفضيلات:

الجينز والـ تي شيرت T. Shirt والأحذية شبه الرياضية، قصّات الشعر، اتّباع موضات أصبحت عالمية وتشكل سوقاً تجارية لا يستهان بها، موسيقى الديسكو وموضاتها، نجوم الغناء والرقص، والوجبات السريعة من سلاسل ماكدونالد وأمثالها، والبيبسي على

رأسها. هذا التنميط على مستوى المظهر ليس مسألة عابرة، بل هو مكون أساسي من ملامح وسمات صورة الشباب، التي تمارس ضغطاً كبيراً على الأجيال الطالعة لاتباعها، على اختلاف درجات الانخراط فيها. ذلك أنها تقدَّم باعتبارها النموذج للشباب المعاصر، المنفتح على الدنيا. إنها تمثل الثقافة الفرعية للشباب، يجد هويته وتميزه من خلالها، وبالتالي فليس من اليسير مقاومتها، وعدم الانتماء إليها: إذا أنت لم تجار التيار فلست من شباب اليوم!

تذهب هذه الدراسة إلى الافتراض بأن القنوات الفضائية التجارية والمملوكة للشركات الكبرى تقوم بعملية القولبة هذه من خلال ترسيخ نموذج الإنسان المتمثل لمعايير وتوجهات اقتصاد السوق. وبالطبع فلا يعني ذلك عدم وجود قنوات كبرى لا زالت خارج اللعبة حيث تقدم مادة إعلامية وبرامجاً لها قيمتها التثقيفية والإعلامية الفعلية. إنما هي قنوات مدعومة من الدولة. وهذا الدعم بدأ يتعرض لضغوطات الخصخصة المعروفة، مما يثير تساؤلات واقعية حول مدى قدرتها على الاستمرار والصمود في وجه التيار. على أنها حتى مع هذا الدعم، فهي مضطرة لأغراض المنافسة وجذب الجمهور أن تجاري القنوات التجارية في الشكل والمضمون والإخراج. وهو ما نشاهده في محاولة القنوات الوطنية مجاراة تقنيات الجذب والإثارة التي تتقنها القنوات التجارية الدولية.

أما القنوات الوطنية التقليدية فإنها بإمكاناتها المتواضعة تقنياً وإخراجاً وتقديماً ومادة وقدرة على التغطية، تترك حالة إعلامية أطلق عليها المشتغلون في الميدان تسمية «الأرض العطشى إعلامياً»[28].

(28) الخطة الشاملة للثقافة العربية، منظمة الالكسو، الكويت 1986 م.

وبالطبع فإن هذا العطش سترويه القنوات الفضائية الدولية. وقد لا يخلو هذا الواقع من الإيجابيات. ذلك أن الاحتكار المحلي للجمهور من قبل قنوات «التعطيش الإعلامي» قد يكون أفدح في أخطاره من الانفتاح على القنوات الاعلامية الدولية. فنحن في حالة أمست معها العزلة الإعلامية تشكل مقتلاً، إضافة إلى تعذرها التكنولوجي أصلاً!

قبل الحديث في محتوى ثقافة الصورة وعناصرها، لابد من الإشارة إلى مسألتين إضافيتين:

تتمثل الأولى في البلاغة الالكترونية بجانبها التقني. فكل هذه القدرات الهائلة تقنياً التي تتمتع بها بعض المحطات الدولية في الصوت والصورة والإيقاع، والمؤثرات السمعية البصرية، وسرعة نقل الخبر، وطريقة تقديم المذيعين للمادة، لا تقتصر على زيادة قوة إيصال الرسالة، بل إنها تتحول هي ذاتها إلى عنصر إقناع من خلال الإبهار. ينبهر المشاهد بهذه التقنية المؤثرة. كما بسرعة تغطية الأحداث وسرعة الوصول إلى أي مكان، مما يدل على عظيم الإمكانات. وينبهر بالكفاءة العالية للمذيعين وكيفية إلقائهم، ومدى الثقة والقوة التي يسبغونها على خطابهم. كل ذلك يجعل المشاهد يحس بأنه إزاء آلة قديرة قوية متمكّنة، وبالتالي ذات قدرة إقناع كبيرة ومصداقية عالية. هذا الإعجاب يجعله يسلم عفوياً بما تقدمه له، تماماً كما تسبغ السلطة الفعلية قوة ووزناً على ما يصدر عنها. إنه بإزاء سلطة إعلامية تحتل عنده موقع الصدارة في مرجعيتها. ولهذا فالمشاهد يميل عفوياً إلى متابعة ما تبثه هذه القناة فيما يهمه من قضايا؛ ليس فقط لأنها أسرع وأوسع في التغطية، بل لأنها في قناعته أقوى وأكثر مصداقية. والمصداقية تؤدي بالطبع إلى

التصديق[29]. ولا يبقى على الوصول إلى التبعية إلا خطوة واحدة.

وهذا يؤدي بنا إلى النقطة الثانية التي أفاض في عرضها هربرت شيللر في كتابة القديم نسبياً «المتلاعبون بالعقول»[30]. عالج هذا الباحث المتخصص في الإعلام الأمريكي مسألة الانتقائية في بث المادة. هذه الإنتقائية هي بطبيعة الحال جزء لا يتجزأ من أي تواصل إنساني. إلا أننا هنا بإزاء التحكم في تحديد أطر المعلومات المتاحة. من يطرح الإشكاليات، ومن يختار مجالها. كيف ستعالج، وأي الأبعاد يتم التركيز عليها، وأيها تحجم، أو تغفل أو تعطي مكانة ثانوية، أو يشار إليها على عجل؟ هذا كله يحدد في النهاية مصير المعلومات المقدمة كما يحدد العناصر التي تجعل الشيء مقبولاً أم لا.

وتتم هذه العملية بشكل مدروس، يسبغ عليها الواقعية والمصداقية، مما يجعلها تبدو طبيعة. فمثلاً يشيع في هذه القنوات إبراز صورة الطفل الإفريقي الهزيل المريض البائس، في كل مرة يراد فيها الحديث عن المآسي البشرية. وقد يحل الطفل الآسيوي محله. أما حين يراد الحديث سواء في مقدمات البرامج، أو لازماتها، عن المستقبل والتقدم والعافية فإن ما يبرز دوما هو صورة الطفل الغربي الأشقر. وندر أن حدث العكس. وبالتكرار تتحول المسألة إلى حكم قيمة على عالمين: الرخاء والصحة والنمو والمستقبل، في مقابل

---

(29) لاحظ مثلاً الميل التلقائي إلى مشاهدة المحطات الدولية حين نريد متابعة حدث عالمي، أو حتى إقليمي عاجل. اننا نذهب رأساً إلى الموقع الذي نعتقده أكثر مصداقية. ويرجع جزء من ذلك إلى بطء وقلة إمكانات القنوات المحلية، إضافة إلى ما تمارسه الرقابة من تعتيم أو مسخ.

(30) هربرت شيللر، المتلاعبون بالعقول، سلسلة عالم المعرفة (106)، الكويت 1986 م.

البؤس والمرض والمآسي.

خلال كتابة هذه السطور كانت معركة انتخابات الرئاسة الروسية محتدمة. وشاهدنا تغطية كبيرة جداً لأخبارها من مشاهدات ومعلقين ومراسلين، حتى أن الحدث أصبح هو محور الأخبار والتعليقات. يبدو ذلك عملا إعلامياً هاماً يضع المشاهد في قلب الأحداث. وإنه لكذلك بالفعل. إلا أن متابعة هذه الوقائع لفترة أيام يظهر بجلاء موقفاً أبعد ما يكون عن الموضوعية في التغطية. وهو موقف متحيز للمرشح المؤيد للغرب والمدعوم منه. كل المادة تتحول إلى وضع المشاهد في حالة يحس معها أن الخلاص والسلام العالمي مرهون بنجاح هذا المرشح المقرَّب من الغرب. أما المرشح الآخر، فرغم الإشارة إليه والحديث عنه فإنه يربط بسياق المأزق الوطني الروسي، والمأزق الدولي المهدِّد للأمن والرخاء، والانفتاح على المجهول.

واستكملت العملية بعد نجاح المرشح المقرَّب من الغرب، باستفاضة في التحليلات والتقارير واللقطات والمواقف، التي تجعل المشاهد يتنفس الصعداء بمرور الأزمة على خير. هذا إضافة إلى إطراء ديموقراطية الانتخابات والتأكيد على الآمال الموعودة، وتعزيز صورة ومكانة الرئيس الجديد، الذي سيتصدى لكل المشكلات المتفاقمة في روسيا؛ أي التي تفاقمت خلال ولايته الأولى.

سادساً: بنية ثقافة اقتصاد السوق:

تبين المقاربة البحثية لبرامج القنوات الدولية التي تتخصص في الأخبار، وتلك التي تتخصص في التسلية والترويج، أن هناك مكونات أساسية أصبحت تشكل ملامح البرامج ومحتوياتها. ولقد أخذت المحطات الوطنية الناشئة بتقليدها بمقادير متفاوتة، وخصوصاً

تلك التي تدار من قبل القطاع الخاص. نشرة الأخبار على سبيل المثال أصبحت مقننة في عناصرها في العديد من المحطات: أخبار الأحداث، الإعلانات، سوق المال، الطقس، والرياضة. وفي ذلك، كما في المحطات المتخصصة بالتسلية تتكرر العناصر التالية: الومضة ـ المرح والمتعة ـ الصفقة ـ النجومية الرياضية ـ والعولمة المناخية ـ ويحتل الإعلان مكانة ذات شأن في كل ذلك.

1 ـ الومضة Flah[31]:

إننا بصدد تكثيف المعلومة، وإحاطتها بأكبر قدر من الزخم في المحتوى وضغط الزمن؛ إلى أقصى الحدود الممكنة، سواء في الأخبار، أم في الإعلانات. تتسارع الأحداث في الأخبار في عملية قفز من حدث إلى حدث آخر، ويبحث عن الإثارة والتأثير والطرائف. يختزل الواقع في مجموعة صور. وتقدم أخبار معدَّة على عجل من قبل المراسلين. وفي الحالتين يعزل الحدث، أو الصورة، عن سياقه، ويكاد يصبح غاية في حد ذاتها هدفها أكبر قدر من شد الجمهور. وهو ما يرتبط بضغط زمن البث المرتفع السعر من ناحية، وبالقدرة على جذب الإعلانات من ناحية ثانية. ذلك أن

(31) انظر JEAN CHEVENEAUX، أستاذ الفلسفة في باريس، في مقالته بعنوان: CLIPS, SPOTS FLASHE, NEWS في مجلة لوموند ديبلوماتيك عدد 486، سبتمبر/ أيلول 1994. حيث يتحدث عن ثقافة الراهن ومنطق السرعة والآنية. فالديمومة وحس الديمومة هما حالياً الغائبان الأكبران من الوعي الاجتماعي والأفق السياسي. وهو ما يفرض على الشباب الواقع في البطالة أو البحبوحة البحث عن متع اللحظة الراهنة وثقافة اللحظة ونسف التاريخ والهوية لصالح الاستهلاك والإثارة. وهنا يستبدل المواطن بالمستهلك. يستحوذ الحاضر حالياً على كل المجال ويحتل محل عمق الديمومة واستمرارية التاريخ وذاكرته، في حالة من فرض منطق الربح مكان منطق الجدوى الاجتماعية والانتماء.

المعلنين يهمهم في الكثير من الأحيان أن يدخل إعلانهم في سياق يكون فيه الجمهور مشدوداً إلى الشاشة.

وهكذا يعيش المشاهد، نظراً لتسارع الأحداث، في حاضر أبدي وفقدان للتاريخ حيث يصبح البحث عن الإثارة والسبق إليها أهم من الإعلام عن القضايا المحلية أو العالمية وأبعادها. الواقع يتحول إلى مقتطفات مبتسرة منه. ذلك ما دعا أحد أساتذة تاريخ الحضارة في جامعة كاليفورنيا إلى القول بأن «ثمة ما يغري بالقول إن وظيفة وسائل الإخبار بالذات، ليست سوى دفع الوقائع الحاضرة في الماضي بأسرع وقت ممكن»[32]. تتغير نقاط التركيز على الموضوعات من مكان إلى آخر في العالم، مما يجعل القضايا الكبرى تتقادم بسرعة غير مسبوقة. إننا «بصدد وكلاء آليات فقدان الذاكرة الذي أصابنا بالذات» يتابع القول. وهكذا يعيش المشاهد في الآنية والراهنية واهتمامات اللحظة التي تدفع ما قبلها كي يدفعها ما بعدها.

لا نكاد في نشرات الأخبار (من مثل حال CNN) نصل إلى نهاية النشرة، إلا ويكون قد طُوِيَ أولها. لا وقت للتفكير والتحليل والتبصر والاستيعاب وبالتالي إتخاذ المواقف. انطباعات تتراكم بدون

---

(32) فريدريك جيمسون في مقالته الهامة في مجلة الحداثة، عدد 2 محور الوطني ـ الاختلاف ـ حداثة الآخر، مؤسسة عيبال، شتاء 91.

يقول هذا الفيلسوف إن أحد أبرز سمات الأعلام المرتبط بظهور الرأسمالية الاستهلاكية متعددة القوميات، هي اختفاء التاريخ. فالنظام الاجتماعي بأكلمه بدأ يفقد شيئاً فشيئاً قدرته على الاحتفاظ بماضيه هو ذاته. إنه يعيش في حاضر أبدي. الماضي القريب يصبح تاريخاً بعيداً. مما يطمس المرجعيات الاجتماعية. وكأن وسائل الاعلام لا تقوم سوى بقتل الأخبار. أهم القضايا الإنسانية سرعان ما تصبح قديمة ويطويها تلاحق الأحداث.

وقت كاف للشغل عليها. بعد إثارة الأحداث والمآسي والكوارث، والمجازر، والحروب، في لقطات مؤثرة إنما مسلوخة عن سياقها وخلفياتها وأبعادها، ومآلها، تأتي الإعلانات الجميلة التي تدغدغ الأحلام وتخدر المشاعر وتثير المخيلة عن سلاسل الفنادق الفخمة وما يحيط بها من روائع الطبيعة ومسرات الحياة في عملية دعائية لهذه المحطة ذاتها. ثم تطوى الصفحة في جولة عن حالة الطقس في الكون خلال دقيقتين. ثم تأتي أخبار المال والأعمال وسوق الأسهم والأوراق المالية ومعدلاتها صعوداً وهبوطاً، وصور التزاحم والهياج في قاعات البورصة، ورقائق الأوراق النقدية تخرج من المطابع، أو تعدها الآلات. وينتهي العرض بأخبار النجومية الرياضية، ثم الإعلانات الجميلة. ويتلوه لقاءات وحوارات مكثفة تشبه التراشق الناري (وهي تسمى كذلك في CNN). كل شيء يُطوى ويتقادم في لحظة، والشاشة في عجلة من أمرها. وليس هناك من مجال لتريث أو تأمل.

وإذا نسفت الديمومة بهذا الشكل، وتسارع الزمان حتى يصبح مجرد تراكم لحظات ولقطات متدافعة لا تقدم من القضايا إلا مظهرها، فإن التاريخ بحد ذاته هو الذي ينسف معها. وإذا تفتت التاريخ تعذر التموضع في الزمان، وبالتالي تهددت الهوية من خلال العيش في الراهنية الدائمة. هل هي سمة العصر، أم أن الأمر ينتهي بتغييب الثوابت، كي تحل محلها مرجعية كونية غير منغرسة لا في الزمان ولا في المكان؟ سؤال مباح طرحه! إلا أن الأكيد الذي يخرج به المشاهد هو دفعه كي يعيش في حاضر مكثف ومشحون سرعان ما يصبح ماضياً. صحيح أنه يعيش حالة من الزخم، ولكنه يبدو كمن يسافر في قطار فائق السرعة، لا يكوِّن عن المشهد الخارجي سوى انطباعات عامة جداً.

2 ـ الصفقة والقنص المالي:

أصبحت أخبار الأسهم وأسواق المال مكون أساسي من مكونات نشرات الأخبار عالمياً، كما محلياً. تحمل الشاشات جميعاً في بنية أخبارها مشاهد أسواق المال وأسعار العملات والمؤشرات صعوداً وهبوطاً. كما تحمل حركة وكلاء البورصة شبه الإهتياجية، ومشاهد آلات عد النقود، أو مطابع الأوراق المالية، على إيقاعات موسيقية ذات نبرة عالية مؤثرة.

لماذا هذا التركيز على أخبار أسواق المال؟ مع العلم أن الخبراء والمتعاملين في هذه الأسواق لهم شاشاتهم الدائمة التي توافيهم بتحركات السوق المالية الكونية. المشاهد العادي نادراً ما كانت له صلة بالأمر. فهل المقصود التثقيف المالي؟ أم أن المقصود هو جعل المال والسوق المالية مرجعية أساسية عند المشاهد سواء أكان يملك أم لا يملك؟ الطريف في الأمر أن الأحداث تتوالى وينسخ بعضها بعضاً بسرعة، أما أخبار سوق المال فهي من الثوابت. كما أن وتيرة العرض خلالها أكثر هدوءاً مما يتيح مجالا لدرجة أكبر من الاستيعاب. طبعاً المال عصب الحياة! إنما تقديم هذه الوجبة للمشاهد كل ساعة، قد يعزز لديه الإنشغال بالأمر. وتثار في مخيلته مسألة دخوله الحلبة إذا استطاع، أو إحساسه بهامشيته إذا لم يستطع إلى ذلك سبيلا. ألا يفتح هذا الأمر الباب لتحويل الناس إلى قناصين للفرص: هوس الأسهم والتوظيفات المالية؟ أو لا يفتح الشهية لتجربة الحظ الذاتي في الدخول إلى حلبة رأس المال الطيار والمتجول: اقتنص فرصة ربح آني وامش! إغراءات الصفقة والضربة المالية! إحلال الحس المالي محل العلم والجهد والعمل الدؤوب والانتاج. التحول من الجهد الانتاجي الذي

نادراً ما يأخذ حقه في الأخبار، إلى براعة اقتناص فرص الربح. ويتزاحم القناصون؛ منهم الصغار ومنهم الكبار. وكل منهم طامع بصيد سمين في جولة أو جولات سريعة. وذلك من خلال التشاطر في إدارة التوظيفات قصيرة الأجل، وتحقيق أكبر ربح بدون أي اعتبار لما عداه. على أن القناصين الكبار يقتنصون الصغار عموماً. وهو ما يفتح الباب على مصراعيه إزاء إغراءات التلاعبات المالية والصفقات غير المدروسة أو غير المشروعة. ويزيد من احتمال هذا الأمر إيكال أمر التبادلات المالية الضخمة في أسواق المال لفئة من الشباب المتحمسين والمغامرين الذين لديهم الحس إنما يفتقدون الحكمة والتبصر. ذلك أن سوق المال تحتاج إلى قدرات هائلة على التحمل الجسدي والعصبي لا تتاح إلا للشباب. وليس غريباً إذا أن تتوالى أخبار فضائح العمليات المالية الضخمة غير المشروعة وآثارها الكارثية[33]. ولكن من يدفع الثمن؟ إنهم المنتجون والعاملون، من جهدهم ومدخراتهم. إنه المال العام الذي يوظَّف لتغطية كوارث الممارسات المغامرة.

الغائب الأكبر في كل ذلك هو ثقافة الجهد طويل النفس. أخبار الإعداد والتدريب والإنتاج، التي تكاد تبدو نوعاً من العناء بدون طائل، أمام إغراءات الربح السريع. قضايا المجتمع والتربية والتنشئة والمصير لا مكان لها، لأنها تتطلب وقتاً طويلاً لطرحها والتفاكر بشأنها. إننا إذا بصدد ثقافة التشاطر والاقتناص التي يتم

---

(33) أخبار فضائح التلاعبات المالية الكبرى أصبحت من الأمور المعتادة التي لا يطفو منها على السطح إلا قمة جبل الجليد الذي تعذر طمسه أو إخفاءه. إن التراكم الهائل لرأس المال يغري بمثل هذه المغامرات التي تحقق أرباحاً خرافية فيما لو نجحت. أما إذا فشلت وانكشفت فيحصر الأمر في كبش فداء يحمل وزر المغامرة الطائشة.

ترسيخها على مدى نشرات الأخبار في كل المحطات. وهكذا تتلاقى ثقافة الصفقة مع ثقافة الومضة في الراهنية والكسب الآني.

3 ـ النجومية و«بزنسة» الرياضة:

في بحثها عن الإثارة وجذب المشاهدين تركز الشاشات التجارية على النجومية على اختلاف ألوانها. وتعطي لأخبار النجوم من المساحة ووقت البث ما لا يقارن مع الأوقات المخصصة للموضوعات الأخرى. لازالت محاكمة أو جي سمبسون ماثلة في الأذهان كنموذج على هذه المسألة. شاشة CNN كانت خلال المحاكمة تخصص حوالي 20 دقيقة من إحدى ساعات البث لعرض أدق تفاصيل المحاكمة وشهادات الشهود. هنا تأخذ الأمور وقتها، وبهدوء، وبدون مؤثرات صوتية. بينما في نفس الساعة كان يخصص ثلاثون دقيقة لأخبار العالم كله. وما تبقى فهو للإعلانات، وخصوصاً المرافقة لمحاكمة سمبسون. صحيح أن هذا الشخص نجم. إنما لا يعدو كونه واحد من كثيرين. وهو ما يثير التساؤل هل أن هذه المحطة استغلت تعلق الناس بأمثال هذه القضايا الجنائية لأغراض شد الجمهور (والكسب من وراءه بالطبع)؟ أم أنها أسهمت هي ذاتها في تحويل قضية جنائية إلى أسطورة شغلت بها الناس؟ أو ليس في ذلك صناعة للنجومية لأغراض ترويجية؟ لقد نال الترويج كل شيء حتى القاضي. وهو ما أثار الرأي العام لاحقاً لجهة ضغط الإعلام على عمل القضاء.

على أن الرياضة على الشاشات أصبحت أبرز مجال للنجومية. الإعلام المرئي يَسَّر سبل المتعة والمشاركة الرياضية لمليارات المشاهدين على سطح الكوكب في مختلف المباريات الدولية والأولمبية. وخلق فرصاً غير مسبوقة للتفاعل الإنساني الملتقي على

أكثر الأنشطة نبلاً وارتقاء؛ وهي الأنشطة الرياضية بالطبع. الرياضة بما هي أسمى قيم الجهد غير النفعي والأداء الإنساني السامي والعطاء وتجاوز الإنسان لقدراته وأخلاقيات السلوك، كلها تشكل أبرز نموذج لتهذيب السلوك وترسيخ القيم. ولقد تحولت الرياضة إلى لحظات الحماس للإنجازات الخارقة والتنافس على تجاوز الذات وقدراتها. كما خلقت نوعاً جديداً من الشراكة العالمية وفرصها بفضل الشاشات. حتى أنها أصبحت العقيدة الجديدة للشباب والأجيال الصاعدة، التي حلت محل العقائد السياسية والاجتماعية[34]. وهذا كله إنجاز بشري من طراز مميز.

على أن للمسألة جانب آخر خفي لا بد من الوقوف عنده. لقد حوّلت الشاشات بقدرتها على البث، وانطلاقاً من أخلاقيات اقتصاد السوق، الرياضة إلى سلعة يتم التعامل معها «كبزنس». تسليع الرياضة أصبح ظاهرة شبه كونية من خلال الشاشات، وبالطبع قبلها. إنما الشاشات أضفت عليها المدى الكوني. نحن هنا بصدد المنطق الربحي للرياضة. فالنجومية لم تعد تقاس بأدائها الخارق فقط، بل كذلك بأثمانها: كم كسب النجم الفلاني؟ وكم يساوي بالمقايضات بين الأندية؟ والكسب ليس بالقليل على أية حال. فما يكسبه نجم عادي خلال موسم رياضي يزيد عن رواتب أساتذة كلية بأكملها من

---

(34) انظر مقالة: JEAN - FRANCOIS BOURG: LA RELIGION DU SPORT في مجلة لوموندماتيك عدد 27 ن آب/اغسطس 1995 م. يقول الكاتب إنه بعد انحسار الإيديولوجات ظهرت الرياضة كدين جديد للشراكة الإنسانية كي تقدم توظيفات عاطفية، تحتضن رمز، وتغذي أساطير. ويبقى النجاح سيد الموقف. أما سوق المعدات الرياضية فتنمو بمعدل 15٪ سنوياً والأهم هو السوق الاعلانية خلال المباريات الكبرى.

ذوي الرتب والرواتب العالية[35].

نحن هنا إزاء حالة تتجاوز مسألة رعاية الرياضة والرياضيين كما هو مفروض. إننا بإزاء قطاع أعمال ذي رأس مال كبير جداً، مما يشيع تسميته بالأندية الناجحة تجارياً. مع النجومية وتسليع الرياضة بدأت تنحرف الأخلاقيات الرياضية النبيلة. وبدأت تظهر وبشكل متزايد أخبار الصفقات والفضائح على مستوى الأندية واللاعبين والمديرين والمستثمرين. وتكاثرت الضغوطات غير المشروعة على الرياضيين ودفعهم لوضع الفوز كهدف أعلى تصبح كل الممارسات مباحة من أجله: المنشطات وقضاياها.

وكذلك فإن التحالف التجاري بين الشاشات وشركات الإعلان وإنتاج المواد الرياضية أصبح يشكل سوقاً مالية ذات شأن عظيم[36].

في كل هذا لا يبدو على الشاشات سوى سلوكات النجومية. أما الجهد والعناء والتدريب والمراس والإنضباط بما هي نموذج راق

---

(35) لقد كسب بن جونسون، لاعب كرة السلة الامريكي الشهير من الإعلان عن الحذاء الرياضي الذي يلبسه ما يوازي، أو يزيد عن مجمل دخل العاملين في مصنع انتاج هذا الحذاء!!

(36) كتب الكثير عن الألعاب الأولمبية في أتلانتا 96 م والتي تولت تنظيمها وإدارتها شركات أمريكية خاصة وتوالت التعليقات حول المشكلات الإدارية والتنظيمية التي حدثت خلالها، حيث كان هم هذه الشركات جني أكبر الأرباح الممكنة. ولقد تحولت هذه الألعاب وباعتراف الهيئة الدولية المسؤولة عنها إلى واحدة من أكبر المشاريع التجارية الدولية. حيث قدرت مداخيل أتلانتا 96 م بما يزيد عن 5 مليارات دولار، كان نصيب «الفيفا» منها ما يقرب من ثلاثة أرباع مليار دولار، وهو أكبر دخل حققته في تاريخها. إلا أن الفيفا تلت فعل الندامة، وقررت على ما يبدو عدم تكرار تجربة التلزيم هذه حفاظاً على مستوى الألعاب الأولمبية وسمعتها.

في التنشئة، فلا يتم التوقف عندها.

وفي العالم الثالث، حيث الشباب المهمَّش الذي لا فرص له، تحولت الرياضة إلى الأمل السحري بالخلاص: فلعل الحظ يوافي هذا اللاعب أو ذاك، ويحدث إختراق حاجز البؤس، ويقفز إلى النجومية وما يرافقها من حظوة ومكاسب ومتع. كرة القدم على طول بلاد العالم الثالث وعرضها أصبحت أمل من لا أمل لهم. وحلم من يخلو واقعه من إمكانية الحلم، بالقفز فوق سور البؤس. ذلك ما يقبع في لا وعي هؤلاء الشباب، وما يمر بأحلام يقظتهم. وذلك ما أصبح يستقطب طاقاتهم الحيوية وحماسهم الوجودي. بالطبع إن الاهتمام الرياضي وما يرافقه من حماس هو، من قنوات تصريف الطاقات الأكثر إيجابية. إلا أن ردود الفعل التي تكاد تشبه الثورات والتمردات الوطنية لخسارة الفريق الوطني، والإحتفاء بنشوة النصر المسكرة، بل المخدرة، تضعنا أمام مسائل تتجاوز مجرد الحاجة الإنسانية إلى البطولات والانتصارات والشعور بالانتماء. إنها ظواهر جديرة بالدرس، طالما أنها تهدد استقرار بعض أنظمة الحكم في العالم الثالث، فيما لو خسر الفريق الوطني!

نجومية الرياضة، كما نجومية الفن لم تعد غريبة عن ثقافة الربح. أما نجومية الجهد والانتاج والعلم فتقبع في مكانها المتواضع. وبالطبع تتسابق كبريات الشركات الدولية على رعاية المباريات الكبرى. فالكوكاكولا هي أكبر مموِّل للمباريات الدولية. ومعها يأتي جيش جرار من إعلانات مختلف الشركات حتى ليخيل للمشاهد أحياناً أن المباراة وإمتاع الجمهور ما هي سوى وسائل للإعلان عن سلع الشركة الراعية. ويتم التفنن في ذلك بالطبع.

وفي هذا الصدد تطالعنا التقنية الرقمية كل يوم بشيء مثير.

آخره مشروع طباعة الدعايات على أرض ملاعب كرة القدم خلال المباريات الدولية، بواسطة تقنية الواقع الإفتراضي. هنا تضاف بواسطة الحاسوب وخلال البث المباشر للمباراة أي دعاية يراد الإعلان عنها، وتبدو وكأنها مرسومة على أرض الملعب، بدون أن يكون لها وجود فعلي في الواقع المادي الحقيقي. هذه التقنية تسيل لعاب شركات الإعلان الكبرى التي تقدر مردودها بحوالي 17 مليار دولار سنوياً. إلا أنها تثير موجة عارمة من الجدل والنقد حول تضليل الجمهور، وحقه في عدم فرض الدعاية عنوة على صلب برنامج المباراة التي تجذبه، وإغراق دماغه بالدعاية بشكل غير مباشر ولا مهرب له منه.

4 ـ المرح التسلية والإثارة:

يأخذ بعض المفكرين على القنوات التجارية تحولها إلى قنوات للتسلية والترفيه. وهو ما يبقيها على سطح الأحداث. ويجعل منها أدوات للتمويه وتغيير صورة الواقع. المرح والتسلية تعليق للفكر واستسلام وإستئناس بالأحاسيس السارة، ومتع اللحظة الراهنة، إذا كانت هي أساس البرامج ومادتها الرئيسية.

كبريات الشركات التلفزيونية تتسابق في صناعة المتعة والتسلية. تحالفت شركتا CNN وWARNER لتأسيس أكبر شركة تلفزيونية عالمية للتسلية برأسمال قدره سبعة مليارات ونصف المليار دولار. قيمة هذا التحالف هو في كونه يرسي نموذجاً له قوة جذب كبيرة، وبالتالي قدرة تنافسية عالية. وهو ما يدفع الآخرين إلى مجاراته بمقادير متفاوتة وحسب المستطاع.

وتتحول التسلية إلى بناء عالم من المتعة والإنشراح والحيوية اللذوية ـ الحسية، في حالة حلم برغد العيش وطيبه.

ليس المقصود هنا منع المتعة أو إلغاءها؛ فهي حاجة إنسانية لاشك فيها كي يجد المرء توازنه، ويستعيد حيويته بعد العناء والكد. إنما النقد ينصب على تكريس المرح والتسلية كثقافة قائمة بذاتها، وكنمط من الوجود يقوم على مجرد الاستهلاك، واقتناص متع اللحظة الراهنة. المشكلة تبرز حين تقدّم هذه الثقافة للشباب على أنها نمط الوجود المفضل؛ مما يقولب القيم والسلوكات على حساب البناء والإعداد والإنجاز. وتبرز المشكلة حين يتم الربط الشرطي ما بين ثقافة المتعة وصورة الشباب المتمتع بالحيوية والفرح والانطلاق والتحلل من الأعباء والعناء، في حالة من اللهو وخفة الظل حتى العبثية. ذلك أن هذا الربط يدفع إلى الغرق في الراهنية دون ما عداها. ويرسخ صورة دنيا الحظوظ التي يجب الاستمتاع بها. متعة التسلية والمرح والراهنية، يواكبها متعة الإثارة الحسية من خلال قنوات الموسيقى الراقصة ذات التوسع المستمر والتي تتوالد كالفطر. قناة MTV هي الرائدة عالمياً في هذا المضمار تحت شعار بليغ الدلالة: «أرقص على مدار الساعة، على مدار العالم في العصر متعدد الجنسيات»[37]. التلوينات المحلية تأخذ الخصوصية الثقافية بالحسبان، إنما كي تنشر ثقافة الإثارة في قطاعات متسعة باستمرار. مادونا ومايكل جاكسون هما النجمان الأبرز، وواضعا نمط الموضة لعشرات الملايين من الشباب الباحث عن تخدير الحواس الذي يلغي الواقع. والمتطلعون لمجاراتهما يتكاثرون في مختلف الأصقاع لتقديم مشهد الشباب المأخوذ في الإثارة. الصورة بدون كلام، ونشاط لغة الجسد والإيقاع يعطلان عمل العمليات العقلية على

(37) ذلك هو الشعار الذي ورد على صورة غلاف مجلة نيوزويك، عدد نيسان / ابريل 1995 م وملفها حول قناة MTV.

المثيرات الواردة. الإثارة هنا تنفذ مباشرة إلى الدماغ مطلقة مثيرات النشوة العصبية في عالم لذوي متعي.

هذا الكلام ليس ضد حيوية وفرحة وإنطلاقة الشباب، طالما وازنتها ثقافة الجهد والبناء والإنجاز. أما صدارة ثقافة المتعة كنمط أساسي من الوجود فهو المشكلة. وهو يتلاقى مع بقية مكونات ثقافة اقتصاد السوق، التي أصبحت تشكل كلا متكاملاً يعزز بعضه بعضاً. ويحل الحظوة والمتعة والعيش في الحلم محل الالتزام.

على أن الإثارة لا تقتصر على فرحة الشباب وانطلاقته. فهذه لها إيجابيتها على كل حال. قد يكون الأخطر منها الإثارة من خلال العنف.

لقد أمست الصورة المرئية، خصوصاً تلك التي تبثها المحطات الفضائية للأخبار، مشحونة أساساً بمحتوى عنفي حقيقي. نشرات الأخبار تكرِّس لأحداث القتل والانفجارات والدمار والصراعات وطوفان المآسي البشرية الذي يصاحبها. ويتفنن المراسلون والمخرجون والمذيعون من أجل إحراز السبق في الإثارة، في التركيز على المشاهد الأكثر هولاً وقدرة على إحداث الصدمة الإدراكية. كما تتسابق الوكالات على التقاط أشد المشاهد فظاعة لأن لها أكبر سوق من حيث الإقبال على بثها. طبعاً نحن هنا أمام واقع إنساني حقيقي لا مراء في ذلك. إنما تكمن المشكلة في أن هذه المشاهد تعرض مسلوخة عن سياقها التاريخي السياسي. وتقدَّم مكثفة وكأنها حقيقة قائمة بذاتها. ندر أن اهتمت وكالات الأخبار الدولية وشركات البث بالوقوف عند تاريخ هذه الأحداث، ومسبباتها وأبعادها السياسية والإنسانية. كما يندر وبنفس الدرجة

الوقوف عند نتائج بث هذا الفيض من العنف الحي على نفسية المشاهد، وخصوصاً الأطفال والناشئة.

لقد قام جدل كبير حول تأثير العنف في أفلام الصور المتحركة، والتي تبدو أقرب إلى اللعب والهزل على الأطفال. وأُجريت العديد من الدراسات التي أثبتت تأثر الطفل بهذا النوع من العنف، وميله إلى محاكاته في سلوكه اللاحق. بينما شككت بعض الآراء بخطورة هذه المادة، على أساس أنها قد تعمل على تفريج الاحتقانات النفسية العنيفة عند الطفل. إلا أن ما لا يمكن الخلاف بشأنه هو تأثير هذا الفيض من الإثارة من خلال العنف الحي والفعلي في بث أخبار القتل والتفجير، والمذابح الحقيقية. فهذه ولا شك لها آثار نفسية صدمية. إنها تثير مشاعر القلق وانعدام الأمن والإحساس بالعيش في عالم مليء بالأخطار والتهديدات. وإزاء هذه المشاعر يميل الناس العاديون إلى توسل الدفاع النفسي من خلال آلية التبلد وتجميد المشاعر. وهذه لها خطورتها بالطبع على المشاركة الإنسانية والاهتمام بالقضايا العامة. وتكمن خطورة التبلد الإنفعالي في إمكانية تعميمه من خلال الإنكفاء إلى الذاتي. وإذا أضفنا إلى الأخبار مقدار نسبة أفلام العنف المتعاظمة التي تعرض على الشاشة، يتضح مقدار جرعة العنف التي تتراكم دماغياً عند الناشئة، حتى ليبدو معها حالة عادية مبتذلة. تذهب رابطة علم النفس الأمريكي APA، المعروفة برصانتها العلمية، إلى أن الطفل الأمريكي حين يصل إلى نهاية المرحلة الإبتدائية يكون قد رأى 8000 (ثمانية آلاف) حالة اغتيال و 100000 (مائة ألف) اعتداء عنيف على شاشة التلفزيون، بمعدل 3 ساعات مشاهدة يومياً. وإذا كان العنف يفرّج حتى عتبة معينة، إلا أنه يؤدي بعدها إلى تراكم الإثارة غير القابلة للاستيعاب. مما قد يقود إلى السلوك العنيف[38].

ويمكن أن يحدث ذلك في حالة من وهن الفواصل ما بين الصورة المرئية والواقع، واختلاط الخيال بالحقيقة، مما يجعل سلوك العنف يتم في حالة شبة حلمية، لا تتخذ طابع الفعل الخطير، بل طابع الفعل المبتذل على أساس أن هذا هو حال واقع الأشياء.

في كلتا الحالتين: إثارة التسلية وإثارة العنف، تفرض الصورة منطقها على النشاط العصبي للدماغ. ويكون ذلك بالطبع على حساب النشاط العقلاني، الذي يحتاجه الشباب أكثر من أي وقت مضى لمجابهة تحديات ومتطلبات عالمهم، والقدرة على التعامل معها: إنه عالم المغامرة والمخاطرة والإثارة، بدلاً من عالم التفكر والتدبر والتهيؤ لمقتضيات الاقتدار المعرفي الطلوب.

5 ـ الإعلانات وبيع الأحلام:

يبلغ الإنفاق الإعلاني العالمي راهناً حسب تقديرات الخبراء حوالي 620 مليار دولار سنويا، أي ما يقرب من ضعف الدخل العالمي من النفط[39]. وهو مرشح إلى التزايد كي يصل، تبعاً لبعض التقديرات، إلى حوالي 1000 مليار دولار عام 2000. ولا زالت المنطقة العربية تعتبر عموماً متواضعة مقارنة بالدول ذات الكثافة الإعلانية. ولهذا فإن العاملين في هذا المجال من العرب يشحذون قواهم لزيادة الإنفاق بما يتمشّى مع المستوى العالمي. وكأن هناك تأخر يجب تداركه كما هو شأن الصناعة أو التعليم! ويتحدث هؤلاء عن مؤشرات مشجعة لتوسع السوق الإعلانية العربية. وكأنّ هذا

---

(38) نقلاً عن IGNACIO RAMONET، رئيس تحرير مجلة لوموند ديبلوماتيك في مقالته بعنوان CITOYENS SOUS SUREVEILLANCE، في اصدار MANIERE DE VOIR عدد 27، آب/اغسطس 1995 م.

(39) جريدة الحياة، العدد 11691، 22 شباط/فبراير 1995 م.

التوسع هو برهان على دخول العرب في اقتصاد السوق ومنافسته[40]. أصبح الإعلان صناعة تقوم على أسس فنية وعلمية، وتعمل فيها فرق متعددة الاختصاصات. وهي تعرف قوة وفاعلية متزايدتين لهذا السبب. يدخل فيها كل علوم التأثير، ابتداء من مبادىء الإحساس والإدراك والتنبه، والمؤثرات الصوتية واللونية والحركية والإيقاعية. وفي الإعلان تمارس أكثر درجات التقنية التلفزيونية تطوراً كي تأتي الرسالة الإعلانية مكثفة قوية مؤثرة فاعلة تخترق الوعي مباشرة، وتتراكم في الذهن بدون حاجة إلى تأمل أو تحليل. المهم الانفعال بهذه الرسالة والإستسلام لها ولآثارها. ومن أجل ذلك توظف شركات الإعلانات العالمية الخبراء في علم النفس والتحليل النفسي والأنتربولوجيا، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع لدراسة دوافع الجمهور وسلوكاته وعاداته وقيمه وتفضيلاته، ونقاط مقاومته، ونقاط تجاوبه. كما تدرس تأثير الجماعة وضغوطاتها والمحاكاة التي قد تتحول إلى عدوى. من خلال هذه المعرفة الدقيقة تقدم الإعلانات كي تجد منافذ التقبل مفتوحة أمامها، وكي تتجنب الاصطدام بنقاط المقاومة[41]. نحن إذاً في صناعة الإعلان المتقدمة إزاء الاستخدام الأكثر شغلاً وكثافة لتقنيات التأثير وعلومه.

ومن المعروف أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل هو يتجاوزه لعقد جلسات التفاكر «العصف الذهني»، حيث تقوم جماعة من الخبراء بإطلاق العنان لخيال أعضائها كي تولد الأفكار الأكثر طرافة وجدة، وإمكانية تأثير ونفاذ، أو خروج عن المألوف، كي

---

(40) نفس المصدر، نفس العدد.

(41) انظر PAUL MORIERA، في مقالته سابقة الذكر، هامش 11.

تصاغ في إعلانات مشغولة عن مختلف السلع.

كل هذا يشكل تطورات متجددة لأساسيات علم الإعلان الحديث الذي يقوم على مبادىء تعديل السلوك والتأثير فيه. المرتكز الأساسي في هذه المبادىء هو مبدأ الترابط الذي قالت به السلوكية. فالسلعة ذات الطبيعة المحايدة، أو قليلة الجاذبية، تربط بشكل أو بآخر بموضوع أو موقف أو شيء ذي جاذبية عالية للمستهلك. ومن خلال هذا الاقتران تكتسب السلعة (موضوع الإعلان) قيمة استهلاكية وخيالية ووجدانية ليست لها بالأصل. البيبسي تركز مثلاً، إضافة إلى جمال الصورة واللون والإيقاع الذي يفتح الشهية ويثير الإحساس بالعطش والدافع إلى الشرب لإرواء هذا العطش، إضافة إلى هذا البعد الفسيولوجي، تركز أساساً على الشباب ومرح الشباب. ومن هنا أصبحت تعتبر مشروب الشباب. وبرزت منه تسمية الشباب الراهن عالمياً باسم «جيل البيبسي». يربط في الكثير من الإعلانات عن البيبسي بين هذا الشراب، وبين موقف شبابي فيه مرح، أو مغامرة، أو دعابة، أو إثارة. وفي كل الأحوال هو موقف يبدو أن الشباب فيه متميزون بانطلاقتهم. هؤلاء المتميزون يشربون البيبسي. ويصبح هذا الشراب بالتالي هو شراب الشباب المتميز. فكيف يمكن مقاومة هذه الحالة، إذا كان كل شاب بحاجة إلى الإحساس بالتميز، الإحساس بأنه يعيش دنياه بضحك ولعب، وفرح ومغامرة؟!

الكوكاكولا تربط بالبطولات الرياضية والملاعب العامرة بالجمهور والمباريات الحاسمة والتي تثير الحماسة الجماهيرية منقطعة النظير. لا عجب إذا أن تكون شركة الكوكاكولا هي أكبر معلن عالمي في مجال الرياضة وأكبر ممول للمباريات.

أما السجائر، وعلى عكس آثارها الضارة والتي يشار إليها

بشكل خجول ومطموس في أسفل الإعلان، فترتبط بالقوة والرجولة والمغامرة والفروسية في بلاد وبراري تربية الأحصنة، أو في سباق الدراجات النارية ذات القوة والضجيج والتأثير، أو سباقات السيارات، أو أنواع المغامرات الأخرى. وتكتسب السيجارة بذلك دلالات هذه المناسبات ذات الحيوية الجسدية الخارجة عن المألوف. وتأتي كمكافأة على المغامرة والظفر فيها بعد مطاردة، أو كسب سباق. أو هي تأتي لتتوج متعة المحظوظين في الليالي الحالمة على يخت في وسط البحر والحسان.

وهكذا تربط العطورات ومساحيق الجمال بالحسناوات وملكات الجمال، أو المميزات فعلاً في الجاه الاجتماعي. وكل إمرأة تريد أن تكون مميزة بالطبع، مما يجعل شراء العطر هو الطريق إلى تميزها.

وأما أغذية الأطفال فإنها تربط بالطفل المدهش جمالاً وصحة وانطلاقاً وسعادة.

وهكذا فسيكولوجية الإعلان تقوم على بيع الأحلام، ودغدغة المشاعر وإثارة الرغبات، من خلال مختلف أشكال الربط ما بين السلعة والصحة أو الجمال، أو الجاه، أو الشباب أو الحظوة، أو المغامرة. . . وهو مما لا تسهل مقاومته.

ويتعزز التأثير الإعلاني من خلال ما يسمى بمبدأ «الإغراق الإدراكي». تتكرر الدعاية مرات ومرات، بنفس السياق، أو بسياقات مختلفة. والثاني أفضل وأكثر تأثيراً. حتى أنها لتحاصر المشاهد بدون أن يدري. ذلك أن الإعلان المكثَّف أو المشغول والذي ينفذ مباشرة إلى الذهن مفلتا من التحليل والنقد، ومتوسلا الإنفعال والتأثر يؤدي إلى تكوين شبكات عصبية في الدماغ خاصة به. هذه

الشبكات، كما هو شأن كل استيعاب وكل تعلم، تصبح قنوات جاهزة تمر فيها المثيرات عندما يتعلق الأمر بإشباع حاجة ما. شبكة البيبسي هي التي تنشط حين إحساس الشباب بالعطش. وهكذا يميل المستهلك عفوياً إلى التوجه لشراء السلعة التي حدث إغراق ولأحاسيسه بها. وهو ما يعرف في علم نفس الإدراك باسم مبدأ «صدارة الانطباع»[42]. فكل مثير جديد ينتمي إلى موضوع ما، يحرك الانطباع الذي أصبح مشبكاً عصبياً. وهكذا يُربط إشباع الحاجة عفوياً بما تم الترويج له. ولقد تم التحقق من ذلك تجريبيا. إلا أن الإعلان يذهب أبعد من ذلك حيث يثير أكثر الهوامات المتعلقة بالرغبات واللذائذ، والحاجة إلى صورة ذات مميزة. وبالتالي فهو يكاد يحدد لنا هويتنا في مجال معين: أنت مهمّ بالطبع لأنك تستهلك سلعة كذا. ومنها أبعد من ذلك، إذا كانت تريد أن تكون مهمّاً فعليك بسلعة كذا كي تدخل فئة المميزين أو المحظيين. وتذهب الإثارة اللاواعية التي تفلت من التحليل والنقد، أبعد من هذا كي تطرح التحدي: هل يعقل أو هل يجوز أن لا تكون مهمّاً؟ فأنت لم تستهلك هذه السلعة بعد! فمن يقاوم؟ إنها القلة غير الراغبة، أو الكثرة غير القادرة. على أن هذه الأخيرة ستعاني بشكل دفين من مرارة الإحباط وعسر الحال. وهو ما قد يفتح الباب أمام الغواية والإغراء بالمرور إلى الفعل بكل السبل، حتى غير المشروعة منها.

ينجح الإعلان حين يتعطل الحس النقدي وتثار الرغبات والتخيلات والأحلام. فالإعلان هو بالأساس صناعة الموافقة. على

---

(42) انظر DREW WESTEN (1996) PSYCHOLIGY; MIND, BRAIN, AND CULTURE, NEW YORK, JOHN WILEY AND SONS, CHAP.4.

أن ذلك يقدَّم من خلال مبررات تبدو منطقية عبر شعارات من مثل: الإعلان هو حق الاختيار. كيف يمكن أن تختار إذا لم تعرف ماذا يوجد على الساحة؟ عليك إذا أن تستهلك أكبر قدر من الإعلانات كي تمارس حقك الكامل في الاختيار من بين البدائل المتاحة. على أن ما يتم السكوت عنه هو طبيعة هذا الاختيار ذاتها. إنها ليست اختيار بين انجاز أو أداء أو موقف، بل هي اختيار للاستهلاك بين عدة سلع. وهنا بيت القصيد: الإعلان هو إعلان استهلاكي أساساً. إنه إبن اقتصاد السوق. ندر أن وجدنا إعلانات عن الأداء أو الإنتاج. وإذا أغرق المشهد بالإعلانات الاستهلاكية فإننا سنكون أمام صناعة ثقافة الإستهلاك ليس إلا. الإستهلاك يصبح هو القيمة، وهو المرجع، وهو الموجه، وبصرف النظر عن كيفياته. ولكن ماذا بخصوص من لا يملكون القدرة على الاستهلاك؟ كيف سيمارسون حقهم في الاختيار إذا؟ وما الذي يجري حين تتعذر ممارسة هذا الحق؟ كلها أسئلة تظل مطموسة.

ليس هناك من حالة تعبِّر عن ثقافة السوق بقدر الإعلانات التي تدعوك بالقطع إلى متعة الاستهلاك الآني. إننا من جديد بصدد الراهنية والإثارة والمتعة. على الأقل إذا استعرضنا واقع الإعلان التجاري الذي يغمر الثقافة المرئية.

لقد سيطر الإعلام المرئي على الثقافة. وسيطر الإعلان على الإعلام. فالشركات المعلنة، هي التي تحدد كما رأينا نوعية المادة المرئية، بما يتمشى مع ترويج سلعها، سواء في الأخبار، أو البرامج الأخرى. ويصل الأمر ببعض القنوات التجارية أن يتحول البث التلفزيوني فيها إلى مجرد غطاء أو إطار للإعلانات. يملأ الفراغ ببرامج متنوعة: بعضها مثير والكثير منها رخيص، والنادر منها مميز،

من أجل الإعلان وما يدره من ربح. والمميز، وخصوصاً المثير منه، يقدّم لجذب الجمهور واصطياده بالإعلانات التي تتخلله والتي تبلغ أسعارها أرقاماً مذهلة. وعلى كل حال هي مبالغ مأخوذة من المستهلك ذاته: فإما أن تضاف على ثمن السلعة، أو تحسم من حساب الضرائب المتوجبة للمال العام، أو الاثنين معاً! شركات الإعلان تعقد الندوات لتنشيط السوق الإعلانية. والملفت كيف يحدث خلط مقصود أو غير مقصود ما بين تعابير الإعلام والإعلان في أدبيات هذه الندوات وشعاراتها، مما تحفل به أخبار الإعلان عنها. السوق الإعلامي يستبدل بالسوق الإعلاني من خلال إنزلاق لغوي ملفت للنظر. أو ليست هذه أيضاً من خدع الترابط: الإعلام = الإعلان، أو العكس؟ وإذا كان الأمر كذلك ألسنا في بؤرة اقتصاد السوق وثقافته؟

إغراق الأجيال الطالعة بالإعلانات أصبحت تشغل بال المربين والمفكرين، خصوصاً في الغرب. يقول بعضهم أن الطفل الأمريكي حين يصل إلى نهاية المرحلة الثانوية يكون قد تعرض لما يقرب من 500 ألف إعلان، تكدَّس كإثارات دماغية في ذهنه بدون تحليل أو نقد. وهو تكدُّس يؤدي إلى التشبيك العصبي الذي يجعل المثيرات الجديدة تمر من خلاله، ومبدأ الصدارة الذي ينشط ليسبغ دلالة خاصة على حاجة معينة وإشباعها: موضوع الإشباع يصبح هو السلعة التي أغرق الذهن بالإعلان عنها.

أطفال الغرب هم آخر سوق إعلاني ذي شأن، يبلغ في أمريكا وحدها ما يزيد عن 14 مليار دولار سنوياً. إغراق الأطفال

---

(43) جريدة الحياة العدد المذكور أعلاه.

بالإعلانات عن الحلوى والأغذية غير الصحية خلال ساعات البث المخصصة لهم، بدأ يطرح قضايا صحية جدية على خبراء الصحة العامة[44].

أبطال الأطفال المحبَّبين يُستخدمون كوسائط إعلانية للترويج عن لباس، أو حلوى، أو لعبة. كيف يمكن للطفل أن يقاوم استهلاك هذه السلعة؟ كيف يمكن أن لا يكون كالآخرين؟ ذلك ما أصبح معروفاً ويعاني منه الأهل إزاء إطلاق موضات وملابس وأدوات البطل الفلاني المحبَّب إلى الطفل. وهو بطل قد تمت صناعته بالأصل. ولا راحة للأهل إلا بتلبية رغبات الطفل بالطبع! فليس عجيباً إذاً أن يكون الطفل هو آخر سوق إعلانية.

ليست المشكلة في الإعلان بحد ذاته، بل في توجهاته والإيديولوجيا الاستهلاكية التي يروِّجها ويرسِّخها. إنها في بناء تصوُّر عن العالم ونمط من الوجود تقوم مرجعيته الأساسية وأحكام قيمته على الاستهلاك على اختلاف ألوانه. وبالطبع الشاشة التلفزيونية هي الساحة والأداة الأهم لهذا التنميط الكوني.

سابعاً: وقفة أولية:

هذه المقاربة النقدية لا تهدف إلى إدارة الظهر لثقافة الصورة أو التنكُّر لها. فذلك موقف غير مجد وغير ممكن أصلاً. الغاية منها هي التبصر في الأمر للتعامل مع تحدياته والاستفادة من إمكاناته عن علم ودراية.

إننا كما سبقت الإشارة بإزاء حتمية تكنولوجية متعاظمة في القوة والانتشار. حتمية تمر بقفزات من التطور المفتوح في قوة

---

(44) انظر PAUL MORIERA، المقالة الواردة في هامش 11.

الفعل والتأثير والشمول. وهي بصدد احتلال الدور الأول أو الرئيس في مصادر ثقافة الأجيال الطالعة. ويزيد من أهميتها، وبالتالي من ضرورة البحث فيها، إندراجها في سياق تكنولوجيا المعرفة وقواعد بياناتها التي تمثل الخاصية الأساسية لتحولات نهاية القرن، والتي لا زالت في بداياتها. وليس من المعروف يقيناً إلى أين ستوصل المغامرة البشرية بقدراتها الخارقة.

المسألة لا تكمن في الموقف من هذه الثقافة ومرتكزاتها التكنولوجية والمعرفية ـ فتلك من المسلمات ليس إلا ـ بل في المحتوى والفرص وأسلوب التعاطي.

العالم العربي، كالعالم الثالث، يستهلك هذه الثقافة الجديدة عن طريق الاستيراد أساساً نظراً لفقر إمكاناته في مجال الانتاج الأصيل. وهو على كل حال استيراد مفروغ منه بعد انهيار حدود الزمان والمكان وبالتالي استحالة الإنغلاق. وهي استحالة مطلوبة بإلحاح، طالما أن الإنتاج المحلي يجيِّر ثقافة الصورة في نسبة كبير منها لخدمة السلطات المحلية وزيادة هيمنتها، وليس لخدمة الجمهور وتثقيفه وإعداده. تكمن مشكلة العالم العربي، في المفاضلة ما بين التنميط الكوني والتدجين المحلي. والثاني قد يكون هو الأخطر في آثاره المستقبلية، طالما أنه يفرض حالات لم يعد لها أي نصيب من الفاعلية في إعداد الأجيال الطالعة للتعامل مع تحديات القرن القادم، والاستفادة من فرصه.

أما التنميط الكوني فمشكلتنا معه متعددة الجوانب بدورها. ثقافة الصورة كما تنتج في نماذجها وتوجهاتها في بلاد المنشأ، وبما تحمله من قيم وتوجهات أفضنا في عرضها، تجد في تلك البلاد ما يوازنها ويعوِّض عن سلبياتها، من خلال توفر قواعد المعلومات

لأعرض جمهور ممكن. من خلال انتشار هذه الخدمات يتاح للجيل الطالع أن يتعامل جدياً مع المعرفة واستيعابها وتوظيفها لبناء فرصه المستقبلية. من هنا يصبح التنميط الذي تحمله ثقافة الصورة بما فيه من سلبيات، حالة ثانوية مقارنة بفرص المعرفة والإعداد التي توفرها قواعد المعلومات. أما في العالم العربي فإن هذه الحال تبقى مقتصرة، وحتى إشعار آخر، على النخبة. بينما تظل غالبية الجيل الطالع، الأقل حظوظاً على الصعيد المعرفي، رهينة التنميط والتدجين في سلبياتهما. من هنا، ولهذا السبب وحده يتعين طرح قضايا ثقافة الصورة وتوجهاتها التي عرضنا لها. ذلك أن الاقتصار على هذا النوع من المادة الثقافية المرئية يحرم الشريحة الأوسع من الإستفادة من إمكانات تكنولوجيا المعلومات والإعلام الهائلة، وتوظيفها لأغراض التربية والتأهيل والتوعية والتثقيف وتكوين إنسان الغد. إننا بإزاء فرص تعليم مستمر ندر أن توفرت في تاريخ البشرية. تشكل حقاً الحل لنسبة هامة من احتياجات التثقيف والإعداد والتأهيل، مما أصبح غير متوفر بما يكفي من خلال القنوات التقليدية. وبالتالي فليس من المصلحة في شيء الإسترسال في هذا الاتجاه. وإلا فإن المصير يمكن أن يفلت من أيدينا.

إننا لا ندعو بالطبع ولا يجوز أن نسمح لأنفسنا بأن ندعو إلى حظر التسلية والترويح والمتعة وبهجة الحياة، فذلك يحمل بدوره أخطاراً فعلية. الدعوة هي إلى بذل الجهد للاستفادة من الفرص التي توفرها تكنولوجيا الإعلام للارتقاء بنوعية الحياة في العمل والجهد والتدريب والتأهيل، كما في التثقيف والانتماء، كما في التسلية والترفيه. إنها دعوة تبدو سهلة قولا وعزيزة المنال تنفيذاً.

أما الإسترسال في الاستسهال، والتسليم بما يجري، وحتى

الإنجرار إلى محاكاته في الانتاج المحلي وبنية البرامج المحلية، فهو خيار محفوف بالأخطار الجدية. ليس أقلها تراكم الإحباطات نتيجة العجز عن مجاراة إنفجار عالم المتع والاستهلاك والنجومية الذي تروِّجه ثقافة الصورة في حالتها الراهنة. ومن نافل القول الإشارة إلى أخطار تفشي الإحباط لدى الناشئة والشباب. أما الخيار الآخر فهو الهروب في الأحلام وبالتالي الخروج من الميدان. ويبقى التوجه نحو اصطياد المتع والفرص بأي وسيلة والعيش في الآنية وإثارتها، والانسلاخ عن التاريخ والانتماء، الأخطر على المدى البعيد؛ ليس على مستقبل الأجيال فقط بل على مصير الكيان الوطني ذاته. على أن ترك الساحة لثقافة اقتصاد السوق بخصائصها وتوجهاتها يحمل محذوراً آخر لا يقل أهمية في جهدنا لبناء المستقبل. هناك مبرر للتساؤل حول جدوى الإنخراط في هذه الثقافة وما تروِّجه من قيم، في الفترة التي بدأت نذر سلبيات اقتصاد السوق ذاته تتجمع في الأفق. فبعد فورة الحماس الأولى والتبشير بالجنة الموعودة، وإعلان نهاية التاريخ على شكل الانفتاح الليبرالي الكامل لخدمة اقتصاد السوق، وبعد الآمال الكبار حول العولمة التي تخدم الأهداف نفسها أساساً، وبعد التبشير بفكر أحادي جديد. بعد هذا كله، إذا بنا بالأصوات المرتفعة تتزايد في بلاد منشأ اقتصاد السوق ذاته. أصوات تحذر من المآزق الكبرى التي يحملها هذا التوجه الذي يُفرض كونيا على العالم المتقدم والثالث سواء بسواء. بدأت ملامح الجانب الخفي تظهر على شكل آفات متعددة من ناحية، واختلالات جذرية بين العالم المتقدم والعالم الثالث من ناحية ثانية. وكلتاهما تحمل معها علامات استفهام جدية حول مدى قدرة هذا التوجه على الذهاب بعيداً. وخصوصاً أنه لا يلتفت إلى هذه المآزق والاختلالات. وأنه حين يفعل قد يكون وقت العلاج أصبح متأخراً.

فهل من المصلحة الانخراط في هذه الثقافة بدون تبصر وتدبر، وجهد لتدارك الأخطار وتثمير الفرص والإمكانات؟ سؤال يحتاج إلى تفاكر جماعي؛ وطني وعالمي.

ولقد بدأ هذا التفاكر يطرح جدياً في مؤتمرات وندوات دولية. ففي ندوة «التقنيات الحديثة وأثرها في التلفزيون» التي عقدت في تشرين الأول/ أكتوبر 1996 في منتجع الحمامات في تونس، والتي جمعت لأول مرة في تاريخ التلفزيون كلا من مخططي الهندسة والبرامج من البلدان العربية والأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا واليابان، إضافة إلى ممثلي الشركات الدولية الصانعة لأجهزة التلفزيون والراديو ومعدات الاستديو والبث الإذاعي(45) طرحت بعمق الموضوعات الرئيسية لقضايا الإعلام الكوني المرئي، وأثيرت بعضاً من أبرز جوانب القلق حولها.

وكما يقول التقرير «تساوى لأول مرة المسؤولون العرب والأجانب في الشكوى (. . . .) من كثرة القنوات المتاحة. واتفق الجميع في التعبير عن القلق من أنهم لم يعودوا يمثلون «نافذة الدولة على المواطنين». وعبّر أحد المسؤولين العرب عن ذلك بالقول البليغ «إنقطع حبل السُّرَّة الذي يربط محطات التلفزيون العربية العامة والجمهور». كما أن عقد المشاهدين، يتابع التقرير نفسه بالقول، قد انفرط حتى داخل الأسرة الواحدة، وأصبح كل من أفراد الأسرة يتابع قناته الخاصة. إن في ذلك بالطبع فرصة هامة من الانفتاح وحرية التقرير، مما أصبح سمة كونية شبه عامة في العلاقة بين الأجيال. إنما تكمن الخطورة في احتكار الإعلام العالمي التجاري لجمهور

---

(45) جريدة الحياة، العدد 12329، بتاريخ 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1996 م.

الشباب، مما لا بد أن يؤدي معه، إذا استفحل وطال أمده، إلى تراخي الانتماء الوطني ووهن المرتكز الثقافي الذي يشكل أساس الهوية.

في هذه الندوة «اكتشفت مؤسسات التلفزيون العربية فقرها المدقع. فالقنوات الفضائية العربية تكرر في الغالب مسلسلات وأفلاماً قديمة». ويمكن مشاهدة نفس البرنامج في معظم محطات التلفزيون العربية خلال شهر رمضان. ويبدي مدير عام اتحاد إذاعات الدول العربية قلقه من نتائج رفض ملء هذه القنوات الفضائية المتدفقة وذات التقنية العالية على البث، أو العجز عن هذا الملء. ذلك أن المحطات الأجنبية التجارية ستملأها بعرض خدمات متطورة «قد تأخذ المشاهدين العرب إلى غير رجعة». أما رئيس الهيئة العليا للاتصالات في تونس فيتساءل حول كيفية استرداد التلفزيون العربي لجمهوره؟ كما يتساءل حول مصير الرسالة التلفزيونية وعما إذا كانت ستصبح سلعة تجارية؟ وكيف يمكن عندها الحفاظ على الحد الأدنى من الهوية الثقافية؟ أم أن التبعية للانتاج الأمريكي هي المصير شبه المحتوم من خلال تزايد قوة القنوات الفضائية وجاذبيتها؟

ليست هذه التساؤلات القلقة مقتصرة على العرب الذين طال وقوفهم في هذا الموقع. بل إن ممثلي محطات التلفزيون الأوروبية العامة يشاطرونهم الموقف نفسه. فلقد حذر ممثل التلفزيون الألماني من «أن كلمة ثورة هي أضعف من أن تصور ما تحمله التكنولوجيا الإعلامية الرقمية من تغيرات». وحذر هذا المسؤول من «تحول عصر المعلومات العظيم (. . .) إلى عصر التشوش العظيم». وتساءل حول إمكانية كسب الرهان، طالما أن الشركات الكبرى تضخ للسيطرة على السوق ومحتواه بلايين الدولارات، لشراء حقوق البرامج والأفلام واحتكارها.

في التعامل مع هذه التساؤلات بدأت المحطات الأوروبية العامة تحشد طاقاتها وصولا إلى الحفاظ على قسط معقول من رسالة التلفزيون العام المتمثلة، تبعاً للمسؤول الألماني المذكور أعلاه، «في وضع المعلومات في متناول الجميع، والحفاظ على جزء أساسي من الاتصالات خارج نطاق المصالح التي تستهدف الربح، والاستمرار في دورها في تحقيق الاندماج الاجتماعي». ذلك أن طوفان المحتوى الإعلامي التجاري المجزأ والمتقطع يحمل خطر تضليل المجتمع أكثر من إعلامه.

كبرى مؤسسات التلفزيون العام الأوروبية واليابانية والكندية انخرطت في ورشة جمَّة النشاط للتعامل مع فرص هذه التكنولوجيا المتسارعة التطور وصولاً إلى دخول السباق مع الشركات الاعلامية الربحية. لم يسبق أن، تصدر الهم الثقافي الأولوية، وحظي بمثل هذا الإجماع، طالما أنه يرتبط مباشرة بالكيانات الوطنية. إنها حالة التحدي الأكبر الذي تطرحه نهاية القرن بفرصه وأخطاره. وهو ما يبين الطفرة العربية المطلوبة في هذا المضمار، إذا أردنا حفظ حقنا وهويتنا.

الفصل الثاني

الثقافة الأصولية
والفردوس المفقود

أولا: تمهيد:

سطع نجم العقلانية ردحاً طويلاً من الزمن على المسرح العالمي. واحتلت هي وأركانها المتمثلة بالعلمانية والتقدم والحداثة والانفتاح والإيديولوجيات الكبرى، مرتبة الدين البديل الذي بشّر بالخلاص لكل من يهتدي بهديه؛ مجتمعات وأفراداً. على أن الخلاص هذا لم يأت، أو هو أتى منقوصاً. بل إن عثراته هي التي بدأت تتجلى مع إفلاس الإيديولوجيات الكبرى تباعاً، سواء في العالم الصناعي المتقدم، أم في العالم الثالث الذي تطلع إلى الخروج من سُباته، من خلال الدخول في دين التقدم والتنمية الذي حمل له وعود التحرر واستعادة الاعتبار لإنسانه. وحل محل الحماس تراكم تدريجي، إنما متصاعد لخيبات الأمل غرباً وشرقاً، شمالاً وجنوباً.

وفي خضم انشغال المفكرين بهذه الحالة تحليلاً، وتدقيقاً ونقداً وتوصيفاً للأسباب وعرضاً للحلول، إذا بحالة جديدة تظهر على المسرح. ظهور خجول ومحدود في البداية، إنما سرعان ما بدأ بالانتشار شمالاً كما جنوباً، مع تزايد الشكوك حول الحداثة وإمكانية

ذهاب مشروعها بعيداً. إنها الأصولية العائدة، بوجوه ومسميات عدة. أبرزها بالطبع الوجه الديني الذي ينال القسط الأكبر من الاهتمام، وتسليط الأضواء عليه في المجابهات السياسية والفكرية الحامية. إلا أن هذه العودة على بدء لا تقتصر على الأصولية الدينية، بل تتخذ أشكالاً عرقية أو قومية متطرفة. أو هي تتخذ مزيجاً من الدين والعرقية، أو الدين والقومية، أو كلها معاً. كما أنها تتفاوت في درجات الشدة والحدة بدءاً بالشيع الدينية التي تستلهم الأصول في استعادة هوية مفقودة، ووصولاً إلى حالات العنف المفتوح والتطهير العرقي والقومي والديني. ولقد أضحت هذه الحالة ملفاً ساخناً في الأخبار والمجابهات، كما في السجالات. ومع ازدياد انتشارها، فإن الأدبيات حولها تتراكم بشكل متصاعد. هناك على شبكة الأنترنت حالياً ما يزيد على أربع آلاف وخمسماية مادة تحت عنوان الأصولية. كما تضم قواعد المعلومات مئات المقالات والكتب تحت عنوان الملفات النفسية والملفات الاجتماعية[1]. ويضاف إلى ذلك بالطبع كم هائل من الكتابات من كل نوع في العالم الثالث. ولا يقتصر انتشار الأصوليات على اختلافها على العالم الثالث (الجنوب) فقط، كما يتم التركيز عليه في وسائط الإعلام، بل إن نصيب الشمال منها لا يقل حجماً؛ ولو أنه يتعرض للطمس والتمويه، أو التخفيف من حدته. يقول د. محمد

---

(1) تضم قاعدة المعلومات SILVERPLATTER 3.11 تحت عنوان ملفات اجتماعية من 1/ 1974 حتى 4/ 1991 ما يزيد عن 141 عنواناً لمقالات وكتب في الأصولية معالجة من مختلف جوانبها. كما تضم نفس القاعدة تحت عنوان أدبيات نفسية 52 مقالاً في الموضوع في الفترة من 90 ـ 96. وهناك ما يزيد عن 52 مقالة أخرى توفرها قاعدة بيانات ثانية في الفترة من 1992 حتى 1996. ومعظم المراجع الأجنبية التي ورد ذكرها هنا مأخوذة من الخلاصات التي تتضمنها.

الرميحي[2] في عرضه لكتاب «ثأر الله» في مجلة العربي بأن الكاتب «يعقد مقارنة بين ظواهر عالمية ليست مقصورة على وطن أو دين أو ثقافة، بل هي عالمية في شمولها، ونحن العرب والمسلمين جزء منها. إنها عودة ظهور الإيمان بالدين واتساعها في مجتمعات شتى، مع ظهور المعاناة والصراع الاجتماعي والسياسي»[3]. ويستوي في ذلك الديانات السماوية الثلاث كما غيرها من الديانات الشرقية، وصولاً إلى ظهور كل أنواع الشيع والفرق.

في رأي جيل كيبل، كاتب الكتاب، أن هناك تماثلاً بين أتباع الديانات الثلاث في العودة إلى الدين، على تفاوت في درجة الانتشار كما في الحدة؛ ما بين دعوات سلمية إيمانية، وأخرى تبشر بالهداية، ووصولاً إلى حركات التغيير السياسي بالعنف. ظاهرة هذه الدعوات تمتد على طول العالم وأقطاره من المشرق والجنوب إلى أوروبا وأمريكا في شمالها وجنوبها، وإلى أوروبا الشرقية، وإسكندنافيا ونيوزيلندا وإيسلندا واليابان[4]. ويتفاوت الأمر من

---

(2) د. محمدالرميحي، العودة إلى الله، عرض نقدي لكتاب GOD REVENGE للكاتب الفرنسي GILLES KEPEL والمترجم إلى الانجليزية عام 94، وذلك في مجلة العربي العدد 425، نيسان/ ابريل 1994 م.

(3) نفس المراجع، ص 14.

(4) انظر مقالة:

RAWLYK.G - A., (1992): FUNDAMENTALISMS AND FUNDAMENTALISM, IN QUEEN'S QUARTERLY JOURNAL, NO 99,2, SUMMER 1992. ONTARIO, CANADA.

يراجع هذا المقال كتاباً يستعرض التطور التاريخي والمكانة المعاصرة للأصولية في مختلف تياراتها الدينية السماوية والهندوسية، وفي مختلف أرجاء العالم. ويبين الكتاب أن الأصولية أبعد ما تكون عن الزوال في معظم الأنظمة الدينية العالمية. وإنه رغم التقدم الاقتصادي والاستهلاكي، فإن العديد من الفئات

الجماعات المغلقة إلى التبشير التلفزيوني؛ كما في السويد[5] وأمريكا. من دعوات للتخلص من الشرور والآثام، ووصولاً إلى ادعاء شفاء مختلف الأمراض والمعالجات الروحية أمام ملايين المشاهدين. ولقد تحولت المسألة في أمريكا إلى بروز عشرات الدعاة التلفزيونيين على شبكات الإذاعات الهوائية والمرئية في نوع من ظاهرة جماعية يطلق عليها اسم «الأغلبية الأخلاقية»[6]. وكلها تركز على التشدد في القضايا العامة المتعلقة بالأسرة والطلاق والإجهاض، وإقامة الصلوات في المدارس، متحولة بذلك إلى جماعات ضغط سياسي هام.

ويتزايد إقبال الحركات الأصولية بشكل متسارع على الاستفادة من شبكة الأنترنت في الترويج لدعواتها. كما تتزايد محطات الإذاعة الخاصة التي تنشئوها هذه الحركات وتديرها للغرض نفسه. فالأصولية اليهودية تدير مثلاً ما يزيد عن 5 محطات إذاعية، إضافة

= السكانية في عالم ما بعد الحداثة تبحث بلهفة عن قيمة مطلقة تساعدها على التعامل مع حاضر متزايد في تيهه. وأن الأصولية تقدم هذه القيم المنشودة.

(5) انظر ملخص مقالة:

COLEMAN, - SIMON - M (1994): REDIFINING SOLIDARITY: MEDIA TECHNOLOGY, RITUAL AND PROTESTANT FUNDAMENTALISM. ISA, ENGLAND.

يذكر الكاتب أنه حدثت صحوة خلال العشر سنوات الماضية للبروتستانتية المحافظة في السويد من خلال حركة الإيمان التي تستقطب حوالي 10000 عضو في ابسالا. ويستخدم هذا التجمع تكنولوجيا الإعلام المرئي من أجل إذكاء روح التضامن من خلال إثارة مشاعر الحماس. وتساعد تكنولوجيا وسائل الإعلام باختراق حواجز المكان التقليدية والوصول إلى شرائح واسعة، بوسائل فيها الكثير من التجديد في أساليب الدعوة.

(6) د. محمد الرميحي، نفس المرجع.

إلى دخولها بكثافة على الأنترنت، رغم تحريم التلفزيون ومشاهدته في تعاليمها.

لا يقتصر الأمر إذاً على المناطق الريفية المعزولة في الغرب وأمريكا، أو على أحزمة البؤس وتجمعات الفقراء التي تشيع فيها الأصوليات تقليدياً. بل تجاوزه إلى شرائح الطلاب الجامعيين والتقنيين والأكاديميين، والمهن الحرة؛ كما تفاجأ العالم في حادثة التسمم الجماعي في قطار الأنفاق في طوكيو. هذه الظاهرة ليست مقتصرة على اليابان بل نجدها في الكثير من أقطار العالم الصناعي الأكثر تقدماً.

أظهرت دراسة أمريكية على عينة من 281 شخصاً من سكان ميدل تاون[7] عدم صحة الفرض القائل بسلبية العلاقة ما بين الأصولية ودرجة التعليم بين البروتستانت البيض. بل إن العكس هو الذي ثبت؛ حيث وجد أن المتحولين إلى الأصولية هم أكثر تعلماً من سواهم.

وفي دراسة أخرى عن الموجة الأصولية الراهنة في تركيا[8]، يتضح أن الخطاب الأصولي وشعاراته ليس مجرد استمرار للتقاليد

(7) انظر ملخص مقالة كل من:

BURTON, - RONALD; JOHNSON, - STEPHEN; TAMNEY, - JOSEPH: EDUCATION AND FUNDAMENTALISM, IN JOURNAL OF REVIEW OF RELIGIOUS RESEARCH, 1989, 30, 4, JUNE.

(8) انظر مقالة:

BAYKAN AYSEGUL - C - (1989): MODERNISM, FUNDAMENTALISM AND THE WOMAN IN BETWEEN: THE CASE OF TURKEY.

في منشورات ASA (للاتحاد الأمريكي لعلماء الاجتماع).

والعادات الثقافية التاريخية الجامدة، كما حاول بعض المستشرقين أن يبينه. وخصوصاً تلك الأطروحة القائلة بالتلازم ما بين التخلف الاقتصادي والثقافة التقليدية، والتقدم والمساواة بين الجنسين. حاولت الدراسة أن تثبت أن الموجة الأصولية الراهنة هي نتاج التحديث والتحضر، حيث تشكك بشرعية صورة التقدم الكونية التي يطرحها النموذج الغربي.

في العالم الثالث تقدم الأصولية ذاتها كبديل عن إفلاس مشاريع التحرير والديمقراطية والتنمية وآمالها الكبيرة الموعودة. وكرد فعل على تفاقم القهر والغبن والمآزق السياسية والاقتصادية والإنسانية: من بطالة وأمراض، وتدهور خطير في نوعية الحياة وفرص الأجيال الطالعة.

أما في العالم الصناعي فإنها تأتي كرد على أزمة الضياع المتفاقمة ومتعددة الوجوه والدرجات، مع ما يرافقها من حيرة وتذبذب. إنها دعوة إلى تقويض الحداثة ومظاهرها وآلياتها وإيديولوجيتها، وما حملته من غياب المثاليات العالية. إنها رد فعل على الذرائعية التي أضعفت النسيج الاجتماعي وعرّت السياسات، وأظهرت فراغها من محتواها الإنساني في التسابق المحموم على الأنانية الاستهلاكية والغرق فيها. إنها رد على ذلك «العالم بلا روح»[9]. ورد على غياب معنى الوجود.

في الحالتين تدَّعي الأصولية أنها تملك الجواب، كما تملك البوصلة المرشدة إلى طريق الخلاص، واستعادة الإيمان باليقينيات التي انهارت. كل ذلك من خلال العودة إلى الأصول؛ إلى نقاء

---

(9) انظر، الكسندر كينج، وبرتراند شنيدر، في كتابهما الثورة العالمية الأولى، تقرير نادي روما، نشرة مركز دراسات الوحدة العربية 1992، بيروت.

الهوية والتخلص من الإحساس بالقهر والغبن، أو الإحساس بفقدان السيطرة على المصير. إنها تقدم ذاتها كرد فعل على التشاؤم المنتشر شمالاً وجنوباً حول مستقبل الكون والإنسان فيه.

وكما تدعو أصوليات العالم الثالث إلى تخليص الإنسان من قهره وغبنه وهدره، فإنها تدعو الناس في العالم المتقدم إلى خلاصهم من العبودية للمادة وألوهية السوق، وأخطار التلوث والتسلح وفقدان المعنى.

في كل الحالات، يبدو الخلاص في العودة إلى الأصول، واسترداد الفردوس المفقود. كما في استعادة حالة نقاء العقيدة، أو نقاء العرق أو القومية باعتبارها العلاج الشافي الوحيد والأخير. إننا إذاً بصدد ثقافة أصولية تطرق أبواب مختلف المجتمعات والجماعات بدرجات متفاوتة من الشدة والحدة والتوجه: بدءاً من معركة القيم[10] ونقائها، ووصولاً إلى التغيير السياسي بالعنف.

للوهلة الأولى، تبدو الكتابة في الثقافة الأصولية سهلة بل وحتى مبتذلة، نظراً لتراكم الأدبيات. إلا أن المواقف الملتهبة ما بين «مع وضد»، لا تترك إلا هامشاً ضيقاً جداً للكتابة التي تبتغي الخوض في هذه الظاهرة بغية فهم مرتكزاتها وبناها وديناميات‍ها وآلياتها. إن أي كتابة في الموضوع معرضة إلى التصنيف في إحدى الخانتين: مع أو ضد؛ مما يبطل إمكانية التفاكر والفهم. ذلك أن حكم الضلال القاطع متبادل ما بين أنصار الأصولية وخصومها، مما لا يفسح المجال لموقف ثالث يحاول الاستيعاب. إننا بصدد حالة اختزال شبه جذري للوقائع والحقائق وإعادة تأويلها في اتجاه أو في

---

(10) يعتبر تقرير الأونيسكو للتربية للقرن الحادي والعشرين أن معركة القيم ستكون في صلب الاهتمامات التربوية (تقرير صادر 1992، غير منشور).

نقيضه. أي كتابة معرضة إذاً إلى تعميم هذا الإختزال عليها. وهو اختزال لا بد أن يُتَّخذ بدوره موضوعاً للدرس والفهم، طالما أنه في صلب جدلية علاقة الثقافة الأصولية مع نقيضها السياسي أو الفكري.

لابد من تعليق الحكم النقدي بصدد هذه الثقافة كي نحاول استيعاب أبعادها وبناها وآلياتها أولاً. ذلك أننا بإزاء ظاهرة لا يجدي معها التنكر أو الطمس، طالما أنها في تصاعد راهن وفي المستقبل المنظور.

سنحاول أن نعالج تباعاً تحديد مفهوم الأصولية الذي يغرق في مجموعة من المفاهيم ـ الأحكام. ومن ثم نستعرض مقومات ثقافتها التي تشكل مجموعة توجهاتها. ونأتي بعد ذلك إلى بحث بنيتها السوسيولوجية وأبعادها النفسية، وديناميات الجماعة الأصولية في علاقاتها الداخلية ومع الخارج، وصولاً إلى خصائص ودلالات ووظائف نمط الوجود الأصولي. بعدها تكون لنا وقفة أولية من ذلك كله.

وسيكون منطلق الكتابة في هذه القضايا مستقى من مصدرين: بعض الأدبيات المتوفرة، ومتابعة المشهد العالمي والمحلي وتأمله.

ثانيا: تحديد وتعريف:

يوقع مصطلح الأصولية الباحث في الضياع والتشويش والإلتباس عند محاولة تعريفه وتحديده، نظراً لما حُمِّل من دلالات، وما أُلحق به من نعوت فيها الكثير من السلبية والقليل من الإيجابية. ولقد حدث ذلك بسبب الطبيعة الساخنة والحادة في الانقسام حول هذا الملف. وهكذا يتداخل مصطلح الأصولية مع كل من التمامية (Integrism) المتطرفة، والسلفية، والصحوة الدينية، وصولاً إلى العنف والإرهاب الدولي. ذلك ما يجعل مهمة التحديد والتعريف

أكثر إلحاحاً. يأتي مصطلح الأصولية تاريخياً من حركة بروتستانتية أمريكية محافظة أطلقت على ذاتها هذا الإسم[11]. ولقد نشأت هذه الحركة بدورها من الحركة الألفية في القرن التاسع عشر. ففي الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي، تولد في أمريكا حماس وإثارة كبيرين بتوقعات عودة المسيح الثانية وما سيتلوها من الخلاص واستتباب السلام على الأرض لمدة ألف عام ثانية. واستمرت الحركة الألفية متقلبة حتى ورثتها الأصولية. وهي تؤكد أن أساسيات الدين المسيحي تتمثل في: التأويل الحرفي لنصوص الإنجيل، والعصمة عن الخطأ، وعودة المسيح الثانية الوشيكة والغفران.

ولقد برزت الأصولية كحركة قائمة بذاتها، في بدايات القرن العشرين في مواجهة تيارات الحداثة في أمريكا. وتكونت جمعيات أصدرت العديد من البيانات أُطلق عليها اسم «الأصوليات». واشتد عودها بعد الحرب العالمية الأولى حيث تكوّن الإتحاد العالمي للأصولية عام 1919، وانطلق في حرب بلا هوادة ضد الحداثة وشياطينها، وأخصها نظرية داروين في التطور. كما دعت بحماس إلى تجاوز الانحسار الروحي.

ثم عادت فانتعشت بعد الحرب العالمية الثانية في مواجهة المد الشيوعي، والحرب ضد التطور، ومعارضة الإجهاض والجنسية المثلية، مع رفض حقوق المرأة، وفرض الصلاة في المدارس.

وفي جميع حالاتها ظلت الحركة تؤكد على عصمة وحي الإنجيل، وإنجاب العذراء للمسيح، والفداء والقيامة ومعجزات

---

(11) انظر مادة FUNDAMENTALISM في THE NEW ENCYCLOPEDIA BRITANICA حيث تعرض الأصول التاريخية لهذه الحركة في نشأتها وتحولاتها ومبادئها.

المسيح، كأساس للعقيدة الدينية. وما زال معظم الأصوليين يمتنعون عن التدخين وشرب الخمرة، والرقص ومشاهدة الأفلام، مع حضور حلقات الصلوات والأناشيد الدينية.

استعمل لفظ الأصولية كترجمة حرفية لكلمة FUNDAMENTALISM الأمريكية، للدلالة على الدعوة إلى العودة إلى أصول الإسلام الأولى. وهي تعني في اشتقاقها اللغوي «معاني التأسيس والتأصيل، والقاعدة والحقيقة والجوهر»[12]. ويصور مجموعها الدعوة إلى الرجوع إلى أصول الإسلام وقواعده، والتمسك بحقيقته وجوهره، اعتقاداً وممارسة، وصولاً إلى تصحيح واقع المسلمين، بجعله مطابقاً للأصول الإسلامية الأولى.

هذا الاستعمال لا يحمل معنى الحكم القيمي. إلا أن الإعلام الغربي شن ولا يزال، حملة منظمة على هذه الدعوة الإسلامية، مسبغاً عليها صفة الأصولية التي حوَّلها إلى مسألة تطرف وتعنت وظلامية، وصولاً إلى الإرهاب.

ويقابل مصطلح الأصولية البروتستانتي الأمريكي مصطلح «التمامية» Integrism الكاثوليكي الأوروبي[13].

نحن هنا بإزاء النزعة الكاثوليكية المتشددة في القبول التام لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية وقوانينها، والإلتزام غير المشروط بها، والحرب على الليبرالية. وهي نزعة نشأت في أوروبا في بداية هذا القرن للتمسك بحرفية النصوص وكمالها، ورفض أي تأويل لها،

---

(12) عبد الهادي أبو طالب: قراءات في مفاهيم الأصولية، الجمود الديني، العنف والإرهاب، السلفية والصحوة الإسلامية، مجلة «الأكاديمية» العدد 11، 1994 م، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.

(13) نفس المصدر، ص 19.

وقبولها كما هي، مع رفض أي تطور أو حداثة.

هنا أيضاً أطلق الغرب تسمية التمامية على الحركات الإسلامية بمعناها المتعنت في تصلبه ورجعيته وجموده.

أما من وجهة نظر أصحاب التيار الأصولي الإسلامي فإنهم يقدمون دعوتهم على أنها صحوة. وعلى أنها حركة تصحيحية تدعو إلى العودة إلى أصول الدين والسير على خطى السلف الصالح الذي طبق العقيدة بتمامها في السلوك والحياة. إننا بصدد قدوة ماضية تستلهم في الصحوة من الثبات، والعودة إلى الحركة بعد سكون، وتلمس الضوء المرشد إلى الطريق الصحيح بعد تخبط في لجة الضلال[14].

من ذلك يتضح كم أن جدلية العلاقة بين الموقف ونقيضه مأزقية. فما تُنعت به الحركة الأصولية، هو على النقيض تماماً مما تعرّف به ذاتها.

على كل حال سنستخدم في هذه الدارسة مصطلح الأصولية بمعنى موسَّع، يشمل إضافة إلى الدين الحركات العنصرية والعرقية والقومية المتطرفة. ذلك أنها كلها تشترك في نفس الجدلية والحركية: فساد الحاضر وضياع إنسانه، وضرورة العودة إلى حالة النقاء السلفية كطريق وحيد للخلاص. إلا أن العودة إلى الحالة هذه، ومتابعة حلم الفردوس المفقود، ينزلق إلى الدخول في صراع مفتوح مع الآخر، ورفض الاعتراف بحقه في الاختلاف والمغايرة، مما يفتح السبيل أمام احتمالات العنف.

وهكذا فالأصولية على اختلاف مناحيها بالمعنى الموسَّع، قد تتدرج في درجة الصدام مع الآخر، ما بين مجرد عودة إلى الأصول بحثاً عن معنى روحي أو ماورائي للوجود، وبين فرض الجماعة

---

(14) نفس المصدر، ص 26.

لذاتها في حالة رفض للغيرية.

بل إن البعض يذهب أبعد من ذلك متحدثاً عن أصولية الحداثة واقتصاد السوق[15]، مما يمكن تسميته «الأصولية الدنيوية». نحن بإزاء حالة كاملة من الحقائق القطعية، ونظام المعتقدات الذي يعطي لذاته طابع المشروع الكوني. فهي بالنسبة لبعض النقاد لا تقل تصلباً وتعميماً عن ذلك الشائع في الأصوليات الدينية والعرقية: ادعاء امتلاك الحل الواحد الوحيد لمشكلات الكون، والخلاص الدنيوي من خلال الاقتصاد المفتوح وميتافيزيقا الحداثة. وهو ما تبشر به الأصولية الدنيوية بيقينية ـ دوغمائية مشابهة لما نجده في التعصب الديني. أما الشيع الدينية Cults فهي تشكل تبعاً لبعض الكتاب[16] وباءً عالمي الانتشار للأصولية وإيديولوجيتها الكليانية: حركة إصلاح فكري، وقائد كاريزمي، وترويج فكرة النقاء والطهر بشكل متزمت وأسطوري ـ صوفي، مع طقوس اعتراف وسيطرة وسطوة على الأعضاء، ونظام متكامل من الرموز التي تشكل عناصر الانتماء إلى الجماعة، وتعزل الأعضاء عن الوجود. والشيع العرقية والقومية لا تقل عنها انتشاراً على كل حال. وهي تتوسل الآليات والديناميات نفسها.

---

(15) انظر ملخص مقالة:

SEABROOK, - JEREMY (1992): ON THE DANGERS OF WESTERN FUNDAMENTALISM, JOURNAL OF PHILOSPHY AND SOCIAL ACTION, NO 18,3,1992.

(16) انظر ملخص مقالة:

LIFTON - ROBERT - J (1991): CULTFORMATION, JOURNAL OF CULTIC STUDIES, VOL 8(1). N. Y.

وتقترح إحدى الدراسات(17)، بهذا الصدد وجود تشابك وتشابه على المستوى الأثري اللاواعي ما بين الأصولية المسيحية والإيديولوجية النازية. فرؤية المستقبل عند الأصولية المسيحية شبيهة بنبوءة النازية بحكم العرق الآري المتفوق بعد التخلص من كل العناصر الشيطانية. واستتباب الأمر لألف عام من إرتقاء العيش لنخبة يخدمها عمال الطبقات الدنيا. ويشبه عقاب الضالين في الأصولية المسيحية، تطهير العرق في النازية من كل عناصر الفساد، من خلال برامج القتل الجماعي.

ولا تختلف العنصرية الصهيونية في شيء عن ذلك كله، لجهة أسطورة شعب الله المختار، والاعتقاد بصفاء العنصر وامتلاك الحق المطلق، مع إسقاط حق الإنسانية عن الآخرين. وهو ما يبرر المجازر التي ترتكب بحق «الغونيم» (الآخر، الغريب، اللاإنسان). حيث لا يتم التنكر للحقوق في الوطن، بل يتجاوزه إلى إنكار الوجود الإنساني من أساسه(18).

---

(17) انظر ملخص مقالة:

STROZER, - CHARES - B. (1990): CHRISTIAN FUNDAMENTALISM, NAZISM, AND THE MILLENIUM, JOURNAL OF PSYCHOHISTORY REVIEW, VOL, 18(2), WIN. 1990, N.Y.

(18) انظر ملخص مقالة:

SPRINZAK, EHUD (1995): WHEN PROPHECY FAILS: THE CRISIS OF JEWISH RELIGIOUS FUNDAMENTALISM IN ISRAEL. CONTENTION: - JOURNAL OF DEBATES IN SOCIETY, CULTURE, AND SCIENCE, WINTER 1994,4,2, JERUSALEM UNIVERSITY.

يطرح المؤلف في هذه المقالة موقف الأصولية الإسرائيلية من العنف، متخذاً من مجزرة الحرم الإبراهيمي نموذجاً لذلك. ويرى في هذه المجزرة تعبيراً واضحاً عن الأزمة الحادة التي تصيب الأصولية اليهودية من حيث تبريرها للعنف.

من هذه الجولة الخاطفة يتضح أن للأصولية أوجهاً متعددة تتجاوز المسألة الدينية المحضة التي يركز عليها الإعلام الدولي. إننا بصدد منحى متعدد الألوان، متصاعد الانتشار وثابت الآليات والديناميات.

ثالثاً: الثقافة الأصولية:

يقصد بالثقافة في هذا المقام، المفهوم الأنتروبولوجي الواسع للمصطلح الذي تم عرضه في مقدمة هذا العمل. ونعني بها بالتالي ذلك الإطار الفكري الجامع، الذي يقوم بتوحيد الأفق الذهني للمنضوين تحت لوائه كأعضاء في انتماء إلى كيان واحد. وهو ما يتم عادة من خلال نظام متكامل ومتماسك من اللغة والرموز والشعارات والشعائر والمعتقدات الموجهة لسلوك ومواقف وعلاقات وتفاعلات أعضاء الجماعة. الثقافة الأصولية بهذا المعنى، هي إذاً تلك المبادىء الموجهة لسلوك الجماعة الأصولية وأعضائها.

على أنه لا بد من الإشارة إلى العلاقة ما بين هذه الثقافة وبين الإيديولوجيا. بالطبع إن كل ثقافة هي في النهاية نوع من الإيديولوجيا. إلا أنه في الحالة الأصولية قد تتجاوز الثقافة حالة الإطار الجامع كي ترتفع إلى مرتبة العقيدة الصريحة التي تمثل مشروعاً وجودياً وسياسياً. يتم الإنتقال عندها إلى حالة اليقين المطلق المتسم بالحق واحتكاره، في نظر من يعتنق هذه العقيدة، وذلك على نقيض عقيدة الآخر التي تتسم بالضلال والبطلان. وبالتالي يتعين محاربتها بلا هوادة. الإيديولوجيا هنا ترتدي إذاً طابعاً نظامياً قاطعاً يحدد مسارات الرؤية والممارسة، كما يحدد الأهداف التي ينبغي العمل على تحقيقها، ووسائل الوصول إليها. إننا في هذه الحالة بإزاء نظرة معيارية انتقائية تأويلية للذات والكون، يتخير فيها

المرء الأشياء ويؤوّل الوقائع بكيفية تظهرها دائماً مطابقة لما يعتقد أنه الأصح والحق والواجب المطلوب الإلتزام به، والسعي من أجل تحقيقه. حيث لا تستقيم الأمور إلا بإدراك هذه الغاية[19].

نكون بصدد ثقافة أصولية بمعنى الإطار الجامع، في حالات التجمعات التي تكتفي، في سعيها للخلاص، بالتمسك بالشعائر والممارسات والدعوة إلى الهداية. ونتحول إلى الإيديولوجيا الأصولية حين تنخرط الجماعة في مشروع سياسي تغييري يتوسل الوصول إلى السلطة لتحقيق غاياته، ويحاول فرض موقفه كخيار أوحد.

تتلاقى الأدبيات وتتوافق إلى حد بعيد حول مكوّنات الثقافة الأصولية. ولهذا يمكن الاقتصار على الحديث عن بعضها، لأن ما عداه يكرر الأفكار نفسها. وتتكون هذه من التعاليم من ناحية، ومن الشعائر والشارات والرموز من ناحية ثانية.

رأينا كيف أن الأصولية البروتستانتية الأمريكية تنادي بالتمسك بأساسيات الدين المسيحي المتمثلة بالتأويل الحرفي للنصوص، وولادة المسيح، وعودته الثانية التي يستتب معها السلام لألف عام قادمة، والخلو من الضلال والحصول على الغفران. ويصاحب هذه التعاليم رد فعل عنيف على كل المظاهر الاجتماعية التي تعتبر انحلالاً وضلالاً من مثل انتشار الإيدز والجنسية المثلية. إنها تعتبر نوعاً من الآفات التي تمثل العقاب السماوي على الضلال والإنخراط في مظاهر الحداثة الإستهلاكية.

---

(19) انظر بصدد الثقافة والإيديولوجيا د. مصطفى حجازي وآخرون، ثقافة الطفل العربي، ما بين التغريب والإصالة، الرباط 1988، المجلس القومي للثقافة العربية، الفصل الأول.

ويتمم هذا الموقف المتشدد، بل المتطرف من الخارج، موقف متزمت من الذات والسلوك حيث يمنع التدخين وشرب الكحول، والرقص، ومشاهدة الأفلام.

وتذهب التمامية الكاثوليكية الغربية نفس المذهب في هذه الحركة ثلاثية الإتجاه: العودة إلى الأصول والتمسك بحرفيتها، التهجم على مظاهر الإنحلال الاجتماعي، والموقف المتزمت من الذات ورغباتها.

ويعرض أحمد موصللي مرتكزات الأصولية الإسلامية بشكل موسع على الشكل التالي[20]: هناك أولاً حركة رفض للواقع الراهن تتمثل في: رفض نسبية الحقيقة ومصدرها الإنساني، رفض ملكية الشعب للسلطة، رفض إثبات صحة التفسيرات من خلال العلوم الحديثة، رفض الإقرار بالواقع الراهن والتأكيد على فساده، رفض تفسيرات الفقهاء والمتصوفة لخروجهم عن النقاء الديني، ورفض الاجتهاد.

وهناك في المقابل حركة تصحيح لهذا الواقع تتمثل في: العودة إلى أصول الدين والسنة، الإقرار بأن الأخلاق وخي وتعليمات ذات مرجعية إلهية وليست إنسانية، العودة إلى الفطرة والخضوع للإرادة الإلهية، صدارة الإيمان على العقل والحجة، نشدان مثال أعلى ماورائي إيماني، التوحيد الذي يشمل جوانب الحياة كافة وأخصها السياسية (حكم الله) وإقامة دولة حاكمية الله (للخروج من وضعية الكفر)، التمسك بالمرجعية النقية أيام الرسول

---

(20) أحمد موصلي، الأصولية الإسلامية، الموسوعة الفلسفية العربية، مجلد 2، بيروت 1988، معهد الإنماء العربي.

والخلفاء وإلغاء ما بعدهم، الإجماع ملزم للجميع في كل المسائل، وخصوصاً السياسية منها، توحيد المسلمين تحت راية القرآن، مسلّمة حل مشاكل الأمة وإصلاح أمرها بالعودة إلى الأصول النقية.

وتتوسل حركة التصحيح هذه الثورة بما هي فرض أخلاقي واجتماعي، باعتبار أن جوهر الإسلام هو الثورة على الواقع، والوحي هو دعوة إليها، وغيابها هو دليل الضعف الأخلاقي والانحطاط السياسي. وتكون غاية الثورة توحيد المجتمع المسلم تحت راية القرآن، وليس مجرد إزالة الظلم وإقامة العدل. ويحتم ذلك على المسلمين أخذ قيادة العلم والسياسة من غير المسلمين (إستعادة المرجعية المفقودة).

تتلاقى الأصولية الإسلامية مع الأصولية البروتستانتية والكاثوليكية في حركتها الثلاثية، كما هو واضح: التمسك بالحالة الماضية المثالية (بما هي الفروس المفقود الذي يجب استعادته) التي تمثل غاية المؤمن والحالة المبتغاة لوجوده، في مقابل رفض آفات الحاضر وفساده، والتمسك بسلوك متشدد مع الذات يصل حد التزمت في التعاليم والشعائر وتطبيقها، أو الاهتمام بظواهر الأمور وتفصيلاتها أملاً في استعادة حالة نقاء العقيدة. في هذه الحالات جميعاً لا يبحث عن الحالة النموذجية للمجتمع في المدن الفاضلة (مما تذهب إليه الفلسفة والعقلانية إيماناً وسلوكاً)؛ فالحقيقة الدنيوية ليست شيئاً يسعى إليه الناس مستقبلاً، بل هي، كما يذكر الجابري[21]، واقع تحقّق وتشخّص وراءهم، كما تجسّد في النصوص والسنة، وممارسات الأنبياء والرسل والخلفاء. ويضاف

---

(21) محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، ط 5، بيروت 1992، مركز دراسات الوحدة العربية.

إلى ذلك في حالة الأصولية الإسلامية ـ السياسية واجب الدعوة والثورة وصولاً إلى تغيير الواقع السياسي الراهن، وإقامة حكم الله تحت راية القرآن. يتم العبور هنا إلى الفعل السياسي كواجب، وليس مجرد الاقتصار على الدعوة.

أما الأصوليات الدينية ـ العرقية، وكذلك الأصوليات القومية المتطرفة فتمثل حالة مغايرة نوعياً في حركيتها وآلياتها، من خلال الوصول إلى حد التطرف، ليس في العقيدة بل في الموقف من الآخر وإلغاء أحقيته بالإنسانية، بل واعتباره عقبة إزاء استرداد الحالة الإنسانية المثالية. ويتعين إزالة هذه العقبة وصولاً إلى حالة النقاء الديني ـ العرقي أو القومي، فيما يجري من عمليات تطهير يشهدها المسرح العالمي في أزمنة وأماكن عدة. هذا التطهير يتجاوز العمل المبرر كي يكتسب طابع الفعل المقدس.

هناك في الحالتين (العرقية والقومية) إلغاء كامل للواقع الراهن والإعتراف بمشروعيته باعتباره يمثل البطلان والفساد. وأكثر من هذا يمثل حالة الإعتداء على الجماعة العرقية ـ الأصولية، وحلول الغبن فيها. ويتم الخلاص من خلال أسطورة العرق النقي وشعب الله المختار الذي يتمتع وحده بحق الإنسانية. إنه ينتمي إلى الفرقة الناجية التي تمتلك صفاء العنصر ويقين الحق المطلق في الوجود، دون ما عداه من الكائنات. ويصاحب ذلك موقف تصنيفي تقوم فيه مقارنة ما بين الذات والغير التي تتحول إلى مقارنة ما بين الحق والباطل، وما بين الخير والشر، وما بين الخلاص والضلال، والطيب والخبيث[22]. ومن هنا يصبح من الواجب القضاء على

---

(22) علي حرب، نقد الحقيقة، بيروت.

الغير، لإحقاق الحق وإحلال الخير، وتصحيح الخطأ التاريخي، وسيادة الأسطورة وقيام الوهم المزدوج: الماضي المثالي والمجتمع الكامل النقي والمطهر من الشوائب. أي قيام أسطورة الفردوس المفقود.

وهكذا فالأصولية ـ العرقية تقوم على عدة أركان: رفض الواقع والتمسك بماضي أسطوري، الإصطفائية والتصنيف القاطع، والرسالة[23] التي تفرض استعادة التطابق مع الأصل من خلال القضاء على الغير الذي يلوّثه. وعندها فقط يحل العصر الذهبي للفردوس المفقود، ومعه السلام الدائم.

تقوم الأصولية أساساً، كما يقول محمد عابد الجابري[24]، ضد ما تعتبره تفريطاً وتخاذلاً وتهاوناً، وبالتالي ضياعاً للهوية، وقصوراً عن فرض الأحقية. وهي في هذا تقوم ضد الانفتاح والاعتدال والتعددية. ولا تقتصر على قيامها ضد الخارج، بل هي أيضاً توجه ثورتها ضد الداخل (المقصّر والمفرّط بالحق القاطع). من هنا لا تنصب أعمال العنف على الغير فقط، بل تطال الداخل في تخاذله وتقصيره وميوعته وخيانته. ذلك ما يجعل العنف ضد رموز التقصير هذه رسالة تاريخية من مثل اغتيال رابين، والسياق الأسطوري الذي حدث ضمنه. فهذا الاغتيال لا يعدُ كونه الوجه الداخلي من مجزرة الحرم الإبراهيمي الموجهة إلى الغونيم الذين يلوّثون الأرض الموعودة(؟) ويتم ذلك كله ضمن حالة من الهوى الأسطوري الذي لا يلتفت كثيراً للواقع الموضوعي. بل هو يعتبر

---

(23) نفس المرجع.

(24) محمد عابد الجابري، نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي، بيروت 1992، مركز دراسات الوحدة العربية.

هذا الواقع حالة الفساد التي ينبغي التخلص منها.

ولا تختلف أصوليات النقاء القومي (البيض الأوروبيين، الأمريكان في الوسط الأمريكي) عن ذلك من حيث العنف المزدوج الموجه إلى الداخل والخارج في آن معاً: تقصير من خانوا حالة النقاء، وتلويث الغرباء لهذه الحالة. ففي مقابل انفجار أوكلاهوما، واغتيال رابين، وتسميم قطار الأنفاق، هناك الحرب على الزنوج والعرب، وحرق المهاجرين وإغراقهم، وإبادة الغونيم، والتصفيات العرقية في البوسنة إلخ...

هذه الديناميكية تدفع الجماعة الأصولية بالضرورة نحو التطرف الداخلي والخارجي. ويقع التطرف في النظرة السحرية القطعية والإختزالية للعالم. ويتوسل في أحاديثه لغة مجازية يقفز من خلالها على الواقع مستبدلاً إياه بالشعارات[25]. وتحتاج الدعوة الأصولية كلما ازدادت تطرفاً إلى مزيد من تكثيف وتبسيط الشعارات التي تشكل بالنسبة للأعضاء والجماعة خلاصة الدعوة. ومع هذه الشعارات المبسطة والمكثفة وبفضلها يبدو الأمر وكأنه منزّل قاطع؛ يحمل برهانه في منطوقه ذاته. وتتحول الشعارات إلى مسلّمات يقينية غير قابلة للفحص والنقد والمساءلة. تقديس الشعارت ـ المسلّمات يحجب كينونة الواقع، ويهدم جسور التواصل مع الآخر، وإمكانية الغيرية سواء بسواء. وكلما زاد تكثيف الشعارات زادت بديهيتها ويقينها وإطلاقها. وهو لا يترك من خيار سوى التسليم الإيماني بها، والاطمئنان الذي لا يتزعزع

---

(25) محمد عابد الجابري، محاضرة بعنوان «العقل العربي بين التطرف والعقلانية»، 1994، غير منشورة.

بأحقيتها، أو أحقية وصواب من يعتنقها. ليس هناك من حلول وسط، بل حال قاطعة من نوع إما/ أو.

على أن هذه البنية الفوقية لا تكفي وحدها لاستمرار الحالة الأصولية وترسيخها. لابد لها، إضافة إلى ذلك من أمرين اثنين:

الأول هو التصادم في رؤى العالم. حيث يحدث رفض متبادل ما بين الأصولية ونقيضها. ففي مقابل الأصولية تقوم رؤى وافتراضات ترفضها وتسيء تأويلها. المثل الأبرز على ذلك هو ذاك المتمثل بصراع افتراضات الأصولية الإسلامية وافتراضات نظرية الفاعل العقلاني التي تروج لها أمريكا[26].

هنا يحدث صدام ما بين الذرائعية العقلانية والأصولية. لكل من هاتين النظريتين إفتراضات متعارضة ومتناقضة حول السلوك الإنساني. فنظرية الفاعل الإنساني التي تقوم على المنفعة والمعرفة البشرية وقوتها، ستصطدم لا محالة بسوء تأويل الأصولية التي تقوم على افتراض السيادة الإلهية المحددة للعالم، إذ أن افتراضات الأولى تقوم على نفي الثانية وبالعكس. هذا التنافي المتبادل يؤجج درجة الهوى في كل من الموقفين على حد سواء. ذلك أن كلاً منهما يتحول إلى نوع من الوعي بأن الذات أو «النحن» هي ضحية تنكر الآخر. ويكون رد الفعل التلقائي زيادة لحمة الجماعة في حربها

---

(26) انظر ملخص مقالة:

BUBEN, - ROXANNE (1995): WHEN WORLD VIEWS COLLIDE: CONFLIGTING ASSUMPTIONS ABOUT HUMAN BEHAVIOR HELD BY RATIONAL ACTOR THEORY AND ISLAMIC FUNDAMENTALISM. SPECIAL ISSUE, JOURNAL OF POLITICAL PSYCHOLOGY, VOL 16(1). MAR. 1995, PRINCETON UNIVERSITY PUB., NJ, USA.

(التي تبدو عندها مشروعة) على الغبن الواقع عليها.

على أن الجماعة الأصولية تكون هي المحرضة أحياناً لإثارة عدوان الآخر عليها، كما هو حال تيارات النقاء العرقي ـ الديني. حيث تنخرط الجماعة في عمليات اضطهاد عدواني وتطهير ضد من تعتبرهم ملوثين تجاهها. إلا أنها تتخذ من هذه الحرب مبرراً لمشروعية عملياتها باعتبارها دفاعاً واجباً عن الكيان. ويؤدي ذلك إلى تصعيد عدوانيتها الخارجية وتلاحمها الداخلي الذي يتلازم مع مستوى هذه العدوانية وإسباغ المشروعية عليها في آن معاً. وهكذا فإن مشروعية العقيدة، وقوة مرتكزها الإيماني تتعزز بتصعيد الهوى التعصبي الناجم عن تصاعد عملية التنكر المتبادل.

أما الأمر الثاني الذي يعزز الأصولية ويقينها القاطع، فهو السند الاجتماعي المتمثل باللحمة العصبية التي تشكل أساسها المادي ـ الاجتماعي.

رابعاً: الأصولية والعصبية:

لا يستقيم حديث عن بنية الأصولية ودينامياتها إلا بالرجوع إلى سوسيولوجية العصبية بما هي غريزة التجمع والتعصب له، والميل إلى القطعية في الانتماء، وإلغاء المغاير والمخالف. فالعصبية هي إسمنت الأصولية. والبون شاسع ما بين الحداثة وفرديتها وضياعها، وعصبية الأصولية حيث يصبح الفرد كل الجماعة في نوع من الذات مطلقة القوة من خلال ذوبانها في «النحن».

والعصبية نسبة إلى العصبة[27]، هي جماعة الأقارب المرتبطين

---

(27) سنعتمد في عرض أسس العصبية ودينامياتها على المنظور الخلدوني الذي يشكل بإجماع الآراء أبرز وأدق تحليل اجتماعي للموضوع. وأما المرجع الأساسي

ببعض والمتلازمين ببعض[28]. والتعصب لغة (بمعنى الإنتماء إلى العصبة) يعني التجمع الذي يشد الفرد إلى الجماعة في روابط مادية ومعنوية تجعل انتماءه إليها حالة من الذوبان الكلي في الوحدة الجماعية. وتصبح هويته قائمة على هذا الانتماء الكياني. وذلك في مقابل الهوية الفردية (بالمفهوم الغربي). وينمو لدى الفرد استعداد دائم لتجسيد هذا الانتماء في حالة من الفناء الكلي في العصبية، خصوصاً في حالات التهديد الخارجي. ويعم الشعور بالعصبية، أفراد العصبة كلهم بالتساوي مما يجعله يرتقي إلى مستوى الوعي الجماعي المتيقظ، الذي يوجه رؤية الفرد وسلوكه ومواقفه وآرائه.

وكما يذوب الفرد في «النحن» عندما تتعرض للخطر أو التهديد الخارجي، فإن العصبة ذاتها تتماهى بالفرد عندما يلحقه مكروه. هنا تزول الفوارق ما بين الكل وأجزائه. فالفرد عندما يتعصب لعصبته فهو يتعصب لذاته باعتبارها إياه[29]. وكذلك عندما تهب العصبة لمناصرة أحد أفرادها، فهي إنما تتعصب بالحقيقة لذاتها باعتبار أن الفرد هو هي. هناك إذاً تماهٍ دمجي ذوباني ما بين العصبة وكل من أعضائها.

وتولد العصبية مشاعر الولاء والانتماء، والأنفة والكرامة بين أعضائها مما يعطيهم ذلك الإحساس بالقوة التي تتسامى على الفردي والجزئي الذي يمكن استفراده. وبالتالي فالأعضاء يعيشون عدم الإلتزام بالعصبة كَنَيْلٍ من صورة الذات وتهديد خطير لها.

= الذي سنعتمده في ذلك فهو كتاب محمد عابد الجابري بعنوان: فكر ابن خلدون ـ العصبية والدولة، ط 5، بيروت 1992، مركز دراسات الوحدة العربية.

(28) نفس المرجع، ص 168.

(29) نفس المرجع، نفس الصفحة.

تقوم العصبية في الأساس على النسب والقربى[30]. ومن هنا فأعضاء العصبة هم إخوة في رابطة الدم. وفي حالة الإيديولوجيات تتحول الأخوة من رابطة القربى إلى رابطة الأخوة العرقية (في العصبة العرقية التي تستند إلى وحدة العرق)، أو رابطة الأخوة القومية، أو الأخوة في الدين والعقيدة.

ومن هنا فإن العصبية تتخذ شكل «النحن العصبي» أي النعرة، والعزوة (التي تمد بإحساس قوة الكثرة وغلبتها) والتناصر والتعاضد والإلتحام، والمطالبة، وصولاً إلى حالة الدفاع في المواجهة. فالعصبية عند ابن خلدون تعني أساساً القوة الجماعية التي تمنح القدرة على المواجهة.

إلتحام العقيدة بالنسب، واكتسابها دلالة وقوة رابطة الدم (التي لا تنفصم بما هي رابطة حتمية) يرسخ دعائم بنيتها بشكل يجعلها غير قابلة للتساؤل. وهكذا ترتقي إلى مستوى القطعية (إما/ أو). فرابطة الدم إما أنها موجودة أو غير موجودة، مما لا يحتاج إلى برهان أو جدل. وهكذا تتحول علاقة الإلتحام من القرابة إلى النسب الجديد. ويتحول النسب الجديد إلى رابطة تقوم على الأصل المشترك.

لا تنحو الأصولية نحو تأسيس واقع جديد أو ابتداع واقع مستقبلي (كما تطمح إليه الحداثة) بل إلى استعادة حالة سابقة؛ هي حالة نقاء العرق، أو نقاء العقيدة. الأصولية لا تهدف إذاً إلى تأسيس طور جديد، بل إلى تصحيح الخروج عن الطور (طريق الصواب) باستعادة الأصل. وبالتالي فهناك لاوعي جماعي يسند الأصولية

---

(30) نفس المرجع، ص 172.

وثقافتها هو الحسب والنسب والغلب، حيث تحل العقيدة محل علاقات العصبية القبلية.

وكما يذهب إليه ابن خلدون[31]، فالدين لا يقضي على العصبية، بل هو ينقلها فقط من إطار ضيق، إلى إطار أوسع: من التعصب للنسب الخاص، إلى التعصب للنسب العام، الذي يتخذ شكل عبور من عقيدة التميز أو التفوق (عرقياً أو قومياً) إلى الصلاح والهداية دينياً (خير أمة أخرجت للناس). وبالتالي فالعقيدة بحاجة إلى عصبية كي تنتشر وتكتسب منعتها المادية. ويذهب ابن خلدون إلى أن العلاقة بين العصبية والدين (في حالة الأصولية) هي علاقة تآزر وتعاضد وتكامل: فهو يقدم التحاماً روحياً يضاعف من قوة التحام النسب، كما أن العصبية تمنح الدعوة الدينية قوة وفاعلية ماديتين. والدين يكتّل العصبيات المحلية في عصبية كبرى قادرة على الفتح والحكم. وهكذا تنشأ حالة ذات دينامية وزخم داخليين غير مسبوقين. فلا دعوة بدون عصبية تكون لها الغلبة على ما عداها من العصبيات. ذلك أن طموح كل دعوة أو عقيدة يكمن في أن ترقى إلى مرتبة اليقين الديني في بنيتها الفوقية، وأن تكون لها الغلبة والسلطة على مستوى بنيتها التحتية، وأن تصل درجة من التلاحم الذي يوفر لها المنعة على المستوى الاجتماعي.

وهذا يطرح بدوره جدلية العلاقات الداخلية والخارجية في العصبية، والتي بدونها لا تتضح كامل أبعاد ديناميكيتها. فبمقدار ما تكون العلاقات إيجابية تجاه الداخل، تكون العلاقة صراعية سلبية مع الخارج. نحن هنا بإزاء جدلية الذوبان/ الإنفصال.

---

(31) نفس المرجع، ص 188.

على المستوى الداخلي يشيع في العصبيات، كما في كل الجماعات التي تقوم أساساً على الهوى، توظيف لكل المشاعر الإيجابية على الجماعة بما هي كيان قائم بذاته يتحدد بهوية «النحن»، وعلى القائد أو الرئيس الذي يلعب دور السلطة المرجعية المادية ـ المعنوية، ويحتل موقع المثل الأعلى، وعلى الأعضاء الآخرين في الجماعة، بما هم إخوة الدم أو العرق أو العقيدة. ويقوم تماهٍ متبادل ثلاثي الأبعاد في الجماعة.

على مستوى «النحن» تحدث حالة مَثْلَنَة[32] للجماعة ترفعها إلى مرتبة النقاء والتنزه عن الشوائب وحالة الأمل المرتجى تحقيقه. وتدعم العقيدة التي اتخذت شكل الدين حالة المَثْلَنَة هذه وتمدها بأساسها العاطفي الذي يضرب جذوره في الأبعاد الأسطورية. تكتسب الجماعة دلالة الحالة المتعالية التي تتجاوز الواقع المادي على المستوى السيكولوجي. وبالتالي يصبح الإنتماء إليها مصدراً للإحساس الكامل بالحق المطلق، والخير، وتجاوز الذات، والواقع المادي سواء بسواء (أسطورة شعب الله المختار، والعرق الأرقى. . .). ويطلق البعد الأسطوري هوامات الخلاص من خلال العودة إلى الفردوس المفقود والسعي من أجل إقامته (استتباب السلام والخير لمدة ألف عام، كما تذهب إليه الحركات الألفية).

أما على مستوى القيادة، فيحدث مَثْلَنَة لقائد الجماعة أو سلطتها المرجعية ـ بما هو ممثل للعقيدة ومجسد لها من ناحية.

---

(32) المثلنة، مصطلح نقترحه في مقابل IDEALIZATION، ونعني به الرفع إلى مرتبة المثل الأعلى الخالص الإيجابية والمنقى من الشوائب، حيث يصبح نموذجاً لما يجب الوصول إليه.

وبما هو الأجدر والأقدر أو صاحب البطولات، أو صاحب النسب النبيل من ناحية ثانية. يُرفَّع القائد من منزلة الإنسان إلى مرتبة المثل الأعلى الذي يشكل النموذج المرجعي لأعضاء الجماعة. وتسبغ عليه السلطات النفسية والمادية التي تجعل الجماعة تسلِّم له زمامها. وتقوم حالة من العلاقة متعددة الجوانب معه. فهو من ناحية المثل الأعلى والقدوةلأعضاء الجماعة. وهو من ناحية ثانية المعبّر عن حلم الجماعة. وهو من ناحية ثالثة ذو القدرة الخارقة (الأسطورية) على تحقيق هذا الحلم. وهو صاحب السلطة (الوازع) الذي يفرض غلبته المعنوية والمادية على كل الأعضاء ويدخلهم في طاعته، ويقيم العدل بينهم، ويمنع الجور أو التنابذ، ويحقق المساواة. وتستند السلطة الأسطورية للقائد في العصبيات الأصولية إلى ما يحتله، أو ما يسبغ عليه من رمز بديل، أو وكيل للمخلص الأصلي أو المنقذ. فالسلطة العليا في الأصولية هي بمعنى ما سلطة إنابة، ليس عن الناس، بل عن صاحب الأمر الأصلي: المنقذ الغائب الذي سيعود. ومع عودته سيحل الوفاق النهائي وتتحقق الأسطورة. مرجعية القائد تتناسب على هذا الصعيد مع مقدار مستوى وكالته عن المنقذ، أو قدرته على خلافة السلطة الإلهية.

وهكذا فالقائد ليس مجرد شخص فوَّضت إليه الجماعة أمر قيادتها، بل هو الشخص الذي أسقطت عليه الجماعة أسطورتها، أو تمثيله لهذه الأسطورة. ومن هنا رفعه إلى مرتبة المثل الأعلى. تقوم العلاقة معه من خلال التماهي بالأسطورة المتجسدة بشخصه. وهو ما يرفع أعضاء الجماعة إلى مرتبة تجاوز القصور والضعف الوجودي الذي يعتري واقعهم المادي. وفي مقابل التماهي تتعزز علاقة التبعية والإنقياد شبه الطفلي السلطته. ويعزز كل من التماهي والرضوخ

سلطته المعنوية والمادية سواء بسواء. وبمقدار هذا التعزيز يكتسب مزيداً من القدرة على لعب دور المرجعية المثالية والسلطوية القاطعة.

أما على مستوى الأعضاء، الإخوة في الدم أو النسب أو العقيدة، فتقوم بينهم بدورهم حالة من التماهي المتبادل، حيث يصبح كلاً منهم مرآة ذات الآخر. ومن هنا تتعزز ذاتية العضو بمقدار تدعيم هذا التماهي المتبادل من ناحية والتماهي بالقائد من ناحية ثانية، والإنتماء إلى «النحن المثالية» من ناحية ثالثة. وهذا ما يقصد به حين الحديث عن حالة ذوبان الذاتية في الجماعة واندماجها فيها.

على أن المسألة لا تقتصر على هذا البعد الإيجابي. بل إن العصبية، والعصبة تتوسل آليات معينة لضمان عدم تسرب الصراع إلى داخل الجماعة (صراع المصالح الذاتية، أو صراع المكانة). وأبرز ما تتمثل به هذه الآليات هي الضغوط المادية والنفسية الشديدة التي تمارس على الأعضاء لردع أي نوازع انشقاق أو صراع. العصبة تعتبر الفرد وكل ممتلكاته وإنجازاته ملكية عامة. لها حق التصرف فيها والاستفادة منها. وتبرر ذلك بحاجة العصبة إلى تعزز كيانها. ويصبح الفرد أداة العصبة؛ عليه أن يمتثل لكل ما يطلب منه من أعباء أو مهام.

أما الآلية الرادعة المكملة لها فتتمثل بالتشدد الهائل الذي يصاحب أي محاولة للخروج عن معايير العصبة. إذ ينتهي الأمر بالنبذ أو العقاب الشديد أو حتى التصفية؛ إذا لم ينجح الردع في إعادة العضو إلى وضعية التبعية والإمتثال. وتزداد هذه الحالة بمقدار درجة العصبية في الجماعة. وهو ما يفسر جانباً من التصفيات المشهورة تاريخاً في الأصوليات العرقية والقومية والدينية والإيديولوجية سواء بسواء.

وهكذا فالمَثْلَنَة والتماهي كقطب جاذب يشكل الطموح الحالم. ويقابله الردع الذي لا يقل شدة. وتكون النتيجة قوة هائلة تمارسها العصبة على أعضائها. وتزداد هذه القوة في حالات المواجهة الخارجية، أو التهديد لكيان العصبة. أما في العلاقة مع الخارج فيسود العدوان والصراع المفتوح؛ باعتبار العصبية قوة مواجهة في الأساس. فالعصبيات بطبيعتها تقوم على شرط التنازع على البقاء.

وهنا تنشط أوالية الإنشطار الإنفعالي[33]، على صعيد الحياة النفسية للعصبة. فتوظف فيها كل نزوة الحب، مما يجعلها تحتل هذه الدلالة النفسية المثالية المنزهة عن الشوائب، وذات القيمة الإيجابية المطلقة التي تدفع إلى التماهي الذوباني فيها. وبالمقابل توظف كل العدوانية ونزعات الشر في الخارج، من خلال أوالية الإسقاط. هنا يصبح الخارج رمز السوء والتهديد، أو رمز تلوث نقاء الجماعة، أو العقبة التي تقف في وجه تحقيق طموحها الأسطوري باستعادة الفردوس المفقود. هذا الإسقاط يفتح الباب واسعاً لعملية اختزال الآخر، أو الجماعات المقابلة إلى مجرد رمز سوء، أو ضلال، أو تلويث النقاء، أو العقبة. وبالتالي تقوم حالة قطيعة وتناف وغربة معها. وتبرز نعوت التبخيس والتحقير والتشهير تلصق بالآخر. ويكملها مشاعر الشر والأذى والتهديد للعصبية المختارة.

---

(33) الانشطار الانفعالي هو المقابل الذي نعتمده لمصطلح CLIVAGE الفرنسي و SPLIT - OFF الانجليزي. ويقصد به في لغة التحليل النفسي ذلك الفصل القاطع ما بين نزوة الحب، ونزوة العدوان. فيوجه الحب كله إلى موضوع معين يحتل عندها مرتبة المثال المنزه عن الشوائب (الخير المطلق، والطيبة الكاملة). كما يوجه العدوان كله إلى موضوع آخر فيصبح نموذجاً ومجسداً للشر الخالص.

ومع عملية الاختزال المزدوج هذه (التبخيس والتهديد)، يفتح الباب أمام تبرير الميول العدوانية ـ الإضطهادية ـ التصفوية.

وتتحول هذه الميول من حالة العدوان المشروع للدفاع عن (النحن) إلى حالة الواجب، والرسالة المقدسة المفروض القيام بها، وصولاً إلى استعادة الأصل والخلاص مما لحق به من غبن أو ضلال أو تيه. فعل العنف والقضاء على الآخر يصبح واجباً بمقدار ما تتصعد المثالية الأسطورية للعصبة من ناحية، وما تتعرض له من تهديد خارجي من ناحية ثانية. وكلاهما يعزز بضعه بعضاً.

على أن أوالية الإنشطار الإنفعالي تستثير مثيلتها لدى الآخر ضد العصبة كرد فعل دفاعي. وهو ما يجعل الصراع مفتوحاً على البقاء من خلال الإلغاء المتبادل. وبذلك قد تتصعد حلقة العنف الذي يغذي بعضه بعضاً.

وهكذا تقودنا العصبية الأصولية إلى ضرورة البحث في سيكولوجية التعصب.

خامساً: الأصولية والتعصب:

الأصولية بما تقوم عليه من بنية سوسيولوجية تتمثل في العصبية، وما تدعو إليه وتتمسك به من وحدة العقيدة وأحاديتها (حيث لا انقسام للعقيدة ولا للمرجعية، ولا قبول بالتعدد) تتغذى على التعصب كموقف سيكولوجي، طالما أن هناك نفي لإمكانية أو جواز العقيدة المخالفة. العلاقة بالعقائد المخالفة هي علاقة تضاد وتنافٍ، وليست علاقة تعدد وتجابه.

نجد العديد من الدراسات الأمريكية حول النزعة التعصبية لدى الأُصوليين.

ففي دراسة على عينة من 426 طالباً[34] من كليات أمريكية وكندية ينتمون إلى 3 مجموعات: أصولية، ومتدينة، وتقليدية، بينت النتائج حصول الأصوليين على درجات عالية على مختلف فئات مقياس التمييز العنصري ضد السود والجنسيين المثليين، والشيوعيين والنساء.

وفي دراسة كندية حول الأُصولية الدينية والسلطوية[35] في علاقتها بالتحيزات، وُجد ارتباط دال ما بين الأصولية والسلطوية. كما وُجد ارتباط دال أيضاً ما بين السلطوية وكل من التحيز والأفكار المسبقة ضد الجماعات العرقية، والعداء للجنسية المثلية، والميل إلى التشدد العقابي.

كذلك أظهرت دراسة أمريكية مماثلة النتائج نفسها حول العلاقة ما بين الأُصولية الدينية اليمينية، وكل من السلطوية والتحيز والميول والعدائية.

---

(34) انظر ملخص مقالة:

KIRKPATRICK, - LEE - A (1993): FUNDAMENTALISM, CHRISTIAN ORTHODOXY AND INTRINSIC RELIGIOUS ORIENTATION AS PREDICTORS OF DISCRIMINATORY ATTITUDES. JOURNAL FOR THE SCIENTIFIC STUDY OF RELIGION, VOL 32,3,SEP 1993, USA.

(35) انظر كلاً من:

WYLIE, LINDA; AND FOREST, JAMES (1992): RELIGIOUS FUNDAMENTALISM, RIGHT - WING AUTHORITARIANISM AND PREJUDICE, JOURNAL OF PSYCHOLOGICAL REPORTS, VOL 71, DEC. 1992, CANADA.

وفي دراسة على 418 من ولاية أنديانا[36] حول التحيز المضاد للعرب، يتضح ارتباطه بالاتجاهات التسلطية، كما يرتبط بالإحساس بالتهديد الاقتصادي. ويظهر هذا التحيز عند البروتستانت الأصوليين البيض، أكثر من ظهوره عند أمثالهم من السود، أو عند الكاثوليك. فلقد وجد أن الأصولية السوداء أقل تعصباً بدرجة كبيرة من الأصولية البيضاء.

تتوافق هذه الدراسات وغيرها كثير، على تواتر الميل التعصبي ضد ما يعتبر غريباً عن الجماعات على مستوى العرق (السود) أو الجنسية (العرب) أو العقيدة (الشيوعيين). كما ينصب الميل التعصبي ضد من تعتبره الجماعة ضالاً عنها وعن مبادئها (الجنسيين المثليين).

وينصب التعصب داخل الجماعة على المرأة كما تبين العديد من الدراسات في مختلف المجتمعات، مما لا يقتصر على الحال في العالم الإسلامي، كما يحاول الإعلام الغربي ترويجه.

هناك العديد من الدراسات حول موقف الجماعة الأصولية من المرأة في بريطانيا. وكذلك هو الحال في نيوزيلندا حيث تظل المرأة في وضعية الخضوع والتمثل للنموذج البطركي، رغم دورها النشط جداً في استقطاب الأعضاء للحركات الأصولية[37]. وهو ما يشبه

---

(36) انظر ملخص مقالة:

JOHNSON, STEPHEN. D(1992): ANTI - ARABIC PREJUDICE IN «MIDDLETOWN» JOURNAL OF PSYCHOLOGICAL REPORTS, VOL 70, NO31, 1992, USA.

(37) انظر ملخص مقالة:

VODANOVICH, IVANICA - M(1994): WOMEN AND FUNDAMENTALISM IN NEW ZEALAND: A RE - EXAMINATION, DEPT. OF

حال المرأة في الأصوليات الإسلامية حيث تتماهى المرأة بالبنية البطركية للجماعات الأصولية، وتبشر لها بحماس.

ومن المعروف أن الأصولية اليهودية تركز على طاعة المرأة اليهودية وتواضعها وخضوعها للنظام الأبوي وتبعيتها له. ويتم ذلك من خلال إمطارها بالخطاب الذي يحض على الانقياد[38].

ويبدو من هذه الحالات وأمثالها، وليس آخرها ما حدث من فرض حركة طالبان منع التعليم والعمل على المرأة، أو تشبيه أحد حاخامي الأصوليين اليهود للمرأة بالبغل، أن مكانة المرأة وضبطها هو في قلب جدول أعمال الحركات الأصولية. ويبدو أن امتثالها للقيود الصارمة على الأنوثة تشكل شرطاً ملازماً لإنتاج الصيغة الأصولية للجماعة والحفاظ عليها. ولا يقتصر ذلك على الأصوليات الدينية، بل هو يلاحظ في الأصوليات العرقية القومية المتطرفة سواء بسواء. وفي كل الحالات يبدو أن التعصب ضد الأغراب، كما ضد المرأة، يهدف ليس فقط إلى خلق حالة نقاء العقيدة، بل كذلك نقاء العصبية البطركية التي تتكون من مجتمع ذكوري في الأساس.

قبل بحث وظيفة التعصب، لابد من وقفة عند معناه وديناميانه. يرى أديب إسحاق أن «حد التعصب هو غلو المرء في

SOCIOLOGY, U OF AUKLAND, NEW ZEALAND, 1994.

(38) انظر ملخص مقالة:

EL - OR, TAMAR (1993): THE LENGTH OF THE SLITS AND THE SPREAD OF LUXURY: RECONSTRUCTING THE SUBORDINATION OF ULTRA - ORTHODOX JEWISH WOMEN TROUGH THE PATRIARCHY OF MEN SCHOLARS, JOURNAL OF SEX - ROLES, VOL 29, NOV. 1993, U OF JERUSALEM.

اعتقاد الصحة بما يراه، وإغراقه في استنكار ما يكون ضد ذلك الرأي، حتى يحمله الإغراق في الغلو على اقتياد الناس لرأيه بقوة. . . ذهاباً مع الهوى في ادعاء الكمال لنفسه وإثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق»[39].

نحن بصدد آلية الغلو والقطيعة التي تذهب إلى حد الشطط في ادعاء الحق والكمال للذات ورأيها، في مقابل استنكار ما يكون غير ذلك والتصدي له بالقوة، إما وصولاً إلى إخضاع الآخر في رأيه أو موقفه، أو في إنكار حق وجوده؛ كما يحدث في التعصب العرقي.

وفي مقابل هذا التوجه يعرض جمال الدين الأفغاني مزايا التعصب وضروراته، فيقول «إن التعصب هو قيام بالعصبية (. . .) نسبة إلى العصبة، وهم قوم الرجل الذين يعززون قوته؛ ويدفعون عنه الضيم والعداء. فالتعصب وصف للنفس الإنسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه»[40]. ولذلك «فهو عقد الربط في كل أمة، وبه يقوم بناؤها، حيث يوحد المتفرق تحت إسم واحد (. . .) إنه وحدة أعضاء البدن في جسم كلي تديره روح واحدة، تميزه عما عداه»[41]. ويؤدي التعصب بما هو مبعث المباهاة إلى إطلاق الطاقات الحية، وصولاً إلى الفخار بوسائل العزة والمنعة وسمو المقام ونفاذ الكلمة. ويذهب الأفغاني بعيداً في إبراز مزايا التعصب مبيناً «أنه يكاد يكون روح كلي مَهْبَطه هيئة الأمة

(39) أديب إسحاق، التعصب والتساهل، في كتاب أضواء على التعصب، مكتبة الفكر الاجتمعي، دار أمواج، بيروت 1993، ص 13.

(40) جمال الدين الأفغاني، التعصب، نفس المرجع أعلاه، ص 28.

(41) جمال الدين الأفغاني، نفس المرجع، ص 28 ـ 29.

وصورتها. وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره (. . .) فإذا ألمَّ بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبي عنه، إنفعل الروح الكلي وجاشت طبيعته لدفعه. فهو مثار الحمية ومسعّر النعرة. وهو لذلك يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدَّنايا، وارتكاب الخيانات. وإن استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها»[42]. وهكذا فإن الأمم لا تنهض بعد تفكك إلا بإفاضة روح التعصب فيها ثانية. وعلى العكس من ذلك، فإنه كلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب، تراخت وتداعى بناؤها وتقطعت أوصالها، وتزايد تأثير التدخل الخارجي.

وعلى ذلك «فالتعصب (في نظر الأفغاني) هو النعرة على الجنس، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد. . . ومن توسيع الاستعمال يطلق على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً»[43]. وتتواجد رابطة النسب ورابطة الدين في مختلف أقوام البشر، وتتبادلان التعزيز. ولهذا فإن العصبية الاعتقادية وعصبية النسب هما أقوى الروابط في الجماعة. حيث يطمس التعصب الاختلاف بين الأشخاص المتعددين، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال، ويحوّل أهواءهم المتضاربة إلى مقصد واحد يرمي إلى تأصيل المجد وتخليد الذكر تحت الإسم الجامع لهم.

وهكذا بين الإفغاني من خلال دفاعه عن التعصب أنه الرباط النفسي الأمتن الذي يعزز وحدة العصبية، ويوحّد ما بين أفرادها الذين يذوبون في هوية «النحن» ويُشَدُّون إلى عقيدتها الهادية. تكمن أهمية هذا الرأي، ليس في صوابه النظري بل في إظهار الوظيفة

---

(42) جمال الدين الأفغاني: نفس المرجع، ص 29.

(43) جمال الدين الأفغاني، نفس المرجع، ص 30.

النفسية للتعصب في تعزيز عصبية الجماعات عموماً، والجماعات الأصولية على وجه الخصوص: التلاحم والوحدة والتماهي المتبادل والافتخار بالانتماء وسمو مرتكزاته. ولا شك أن التعصب بمقدار ما يقوم ضد الخارج تنكراً، وصراعاً، فإنه يقضي على التناقضات الداخلية من خلال يقين قطعية صواب الجماعة وسمو كيانها وعقيدتها.

ولم يجانب الأفغاني فيما ذهب إليه الصواب تماماً. فالتعصب يبدو أنه حاجة نفسية قوية لترسيخ الانتماء وإبراز قوته وتماسكه وشد أعضاء الجماعة إليه. ذلك أننا نرى حالات من التعصب الموسمي ليس في الأصولية، بل في العديد من المناسبات الإجتماعية: التعصب للفريق الوطني في الرياضة، والتعصب في مواسم الانتخابات وبعض الظواهر والمناسبات الاجتماعية. وكأن هناك حاجة للتمايز والاختلاف من خلال التباهي والتفاخر في الانتماء. إلا أن ما يشكل جزءاً موسمياً من أوالية الذوبان / الإنفصال التي يحتاجها الإنسان في انتمائه، يتحول إلى تناقض مفتوح مع الآخر في حالات التعصب الأصولي.

ولا بد في هذا المقام من التمييز ما بين التعصب الفردي والتعصب الجماعي. فالتعصب الفردي الذي تتناوله أبحاث علم النفس من النوع الذي أشرنا إليه أعلاه يتخذ طابع التشنج المفرط في الموقف والسلوك. بينما يرتبط التعصب الجماعي بالانتماء إلى جماعة ما بحيث يصبح مرجعية تحديد الهوية والوجود.

ويُبيّن ناصيف نصار[44] خصائص التعصب الفردي في السمات

---

(44) ناصيف نصار، مقالته «من التعصب إلى التضامن، والاقتناع المنفتح»، في كتاب أضواء على التعصب، دار أمواج، بيروت 1993، ص 206 ـ 208.

الآتية: الإقتناع بصحة الرأي واحتكار حق الصحة مما يؤدي إلى رفض المناقشة. التصلب والرسوخ والجمود في هذه القناعة، حيث لا تلعب المناقشة سوى وظيفة الإثبات والتعزيز، وليس إمكانية إعادة النظر. الاختزال والتبسيط الفكري من خلال مجموعة محدودة من الأفكار ترتدي طابع اليقين. وكأن هناك حاجة للتبسيط والتكثيف والتجريد من كل الفروقات والاحتمالات وصولاً إلى حالة نقاء العقيدة أو الفكرة. ذلك أن التبسيط يتخذ في هذه الحالة قوة البرهان على البداهة التي تسند كل يقين إيماني. تغليب البعد العاطفي بشكل حاسم على البعد العقلاني من خلال غلبة الاعتناق على الإقتناع (آمن ثم جادل!). وأخيراً فرض الرأي بالإرغام والقهر.

أما التعصب الجماعي فيتخذ نفس الخصائص النفسية الذهنية إنما لا يتوجه إلى رأي أو موقف (كما هو حال التعصب الفردي)، بل يتوجه إلى الكيان الجماعي. ويبلغ التعصب أقصاه، تبعاً لنصار[45]، حين يكون تعصباً لعقيدة متجسدة في جماعة. في هذه الحالة يصبح التعصب مزدوجاً: للعقيدة، وللوجود الموضوعي للجماعة ومصالحها. وفي كل الحالات يكون بعد الغلو النفسي هو القاسم المشترك بين حالات التعصب، فردية كانت أم جماعية. هذا الغلو هو الذي يظهر حقيقة التعصب ومنطقه الديناميكي الداخلي والخارجي على حد سواء. فالتعصب هو تعصب للوحدة الداخلية، بقدر ما هو تعصب لتمايز الجماعة عن الخارج وإلغاء إمكانات اللقاء والقواسم المشتركة ما بين الداخل والخارج؛ بين «النحن» والآخر. العلاقة مع الخارج تصبح علاقة «نحن» في مقابل رموز وأساطير

---

(45) ناصيف نصار، نفس المرجع، ص 199.

مجسدة للشر. وقد يكون التعصب هجومياً أو دفاعياً. إلا أن التعصب الهجومي بحاجة كي يجد كامل تبريره إلى إسباغ طابع الدفاع المشروع عليه.

تقودنا جدلية التعصب من جديد إلى أوالية الإنشطار الانفعالي التي سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن العصبية. هنا يحدث إنشطار في العواطف بشكل قطعي ما بين إيجابي طيب، وسلبي خبيث. وتستقطب العصبية كل العواطف الإيجابية بينما تسقط على الخارج كل المشاعر والإنفعالات السلبية. يوظف الحب كله خالصاً في الجماعة فتكتسب معه دلالة المثل الأعلى الخير والمطلق. بينما يوظف العدوان كله في الخارج مما يفسح السبيل إلى اختزال الآخر وتبخيسه، وحتى تحويله إلى أسطورة الشر والسوء. وأكثر من ذلك يتحول إلى العقبة الوجودية التي يصبح من الواجب إزالتها في فعل إلغاء يتفاوت في مأساويته؛ حتى يحق الحق ويسود الحب، ومعه يسود السلام الأبدي في استعادة الفردوس المفقود. هذا الإنشطار وحده هو الذي يجعل العصبية تعيش وتستمر متماسكة. وبدونه فإن التناقضات الداخلية الهامة التي تتضمنها سوف تبرز على السطح، ومعها تبدأ الصراعات الداخلية والانقسامات. ومن المثير للدهشة أن هذه الصراعات حين تظهر فإنها تتخذ طابعاً مفرطاً في عنفه وقطعيته، مما يعادل العنف الموجه إلى الخارج. عندها تلعب أوالية الإنشطار العاطفي على مستوى الداخل.

تهديد تفجّر التناقضات الداخلية هو الذي يزيد من اندفاع الجماعة لإسقاط العدوانية على الخارج. وآلية الإنفصال والفرز ما بين الداخل والخارج تتصعد كي ترفع من درجة الذوبان في كيان الجماعة. على أن هذا الذوبان يحمل مأزقه في بنيته ذاتها؛ تماماً

كالإنشطار العاطفي. فكلاهما يخلو من التوازن النفسي والجماعي الضروري لاستمرار الجماعة ونموها. ومن هنا التشدد في رد الفعل تجاه العضو الذي يحاول الخروج على الجماعة. ذلك أن هذا الخروج يعني عودة تناقضاتها المقموعة والمهددة لكيانها. اللحمة والنعرة والغزوة، التي تكلم عنها الأفغاني/ ملغومة ليس فقط إنفعالياً بل مصلحياً. ذلك أنه (كما يبيّن ابن خلدون في علم العمران) بعد مرحلة الأخوة الكاملة التي تقوم على المساواة، وتطلق آلية التضحية الذاتية، والتسابق على العطاء والغيرية، تأتي مرحلة الصراع على السلطة الذي يشكل مكوناً عاماً في أي جماعة. والسلطة هي ذات طبيعة مصلحية في الأساس. وبالتالي فهي تقع في مقابل البذل والعطاء والغيرية. وفي الصعبيّات تطوّب السلطة لمن له الغلبة في الحسب والنسب، أو لمن له القدرة على فرض سطوته مادياً وعقائدياً. وهو ما لخصه ابن خلدون في القول بأن السلطة لا تقوم إلاّ على الشوكة. وبالتالي فلا بد أن تصل العصبية إلى نزاع العصبيات الفرعية. وحتى يحسم هذا التهديد تبالغ العصبية في تصعيد مشاعر الإنشطار والذوبان/ الإنفصال، طالما ارتكز الأمر على الاعتناق وليس الإقتناع.

وتتوسل العصبية الأصولية عدة أواليات لتعزيز هذا التماسك الداخلي، وذوبان الأعضاء في كيانها: منها التبسيط الفكري للعقيدة التي تتحول إلى عدد محدود من المسلمات البديهية التي تدرَك بفعل إيماني بدون فحص أو تحليل أو نقاش. ويقوم ذلك على مبدأ «فاعلية النصوع» في الإدراك. فكلما بدت المدركات أكثر بساطة وتجريداً اكتسبت قوة نفاذ أكبر. هذا التبسيط الإدراكي المكثف والمجرد من التلوينات والإحتمالات، يُشحن عاطفياً من خلال السحب من الرصيد الإيماني الذي يشكل حاجة إنسانية. فالأنسان

يحتاج إلى يقين يشعره إنه على صواب، مما يساعده على تجاوز تناقضاته الداخلية، وتجاذباته الوجدانية الطبيعية. كما أن الدماغ البشري يعمل أصلاً تبعاً لمبدأ الاقتصاد في الجهد من خلال التمسك بالصيغ الكاملة المكتملة التي لا تتضمن ثغرات. ذلك ما يعرف في الإدراك بإسم مبدأ الإغلاق. حيث يقوم الذهن بسد الثغرات أو أوجه النقص في المدرك حتى يكتسب طابع الشكل الجيد، الذي يحمل توازناً عصبياً دماغياً.

من هنا يبدو أن التساؤل والتحليل والنقد، كفعل ذهني، يتطلب جهداً خاصاً، ومغالبة لميل الدماغ إلى الاقتصاد في الجهد والركون إلى مبدأ الإغلاق، أو مبدأ المدرك الجيد. ولهذا السبب يقفل باب الاجتهاد ضمن العصبية الأصولية على الأعضاء. ويرفع شعار اليقين المستند إلى مشروعية إلهية (وهي مشروعية المشروعيات) أو مشروعية قومية ـ عرقية أسطورية. ومع رفع هذا الشعار لا مجال للنقد أو التحليل أو التساؤل، حيث يُعتبر ذلك تشكيكاً يرقى إلى مستوى الضلال.

ومنها كذلك مختلف آليات الترغيب والترهيب التي تمارسها العصبية على أعضائها: ما بين القبول والمنعة والحماية والمنفعة، وبين الوعيد والنبذ والتهديد. وتمارس هذه العملية من خلال مختلف آليات الرقابة والسيطرة والحصار الذي يصل حد إغلاق إمكانية رؤية المختلف. ومنها كذلك إطلاق آلية التبعية التي تشكل بدورها بعداً مكوناً من النفس البشرية. ولا تكتفي هذه الآلية بالارتكاز إلى مثل أعلى إيماني ماورائي، بل هي تعززه بذلك الميل النفسي المتفاوت في شدته عند البعض إلى الإنقياد. وهو حالة أصبحت معروفة جيداً في سيكولوجيا الأعماق، تنطلق عادة حين يتصعد الشعور بالتهديد وانعدام الطمأنينة الداخلية، مع فقدان القدرة

على المجابهة. وأكثر حالات التبعية فاعلية (على صعيد التوازن النفسي) تلك التي تتخذ طابع الإنقياد لسلطة مرجعية كاريزماتية تشكل نواة الجذب لأعضاء الجماعة. وهو ما لا يمكن أن تخلو منه عصبية أصولية بأي حال. ذلك أنه حين تزول هذه المرجعية مادياً أو معنوياً، ولأي سبب كان، تتحرك آلية الإنقسام داخل الجماعة على شكل صراع أجنحة.

ويبقى دور المرأة ومكانتها في العصبية الأصولية من الآليات الهامة في هذا المجال. سبقت الإشارة إلى أن الأصوليات على اختلاف جنسياتها وانتماءاتها، تجعل من المرأة قضية مركزية في مشروعها. وأن المكانة المفروضة على المرأة تتمثل دوماً في التبعية والخضوع. هناك حركات أصولية تثور على حركات تحرر المرأة وتطالبها بالعودة إلى المنزل وإلى درجات متفاوتة من الطاعة الزوجية. ولقد وصلت المسألة حدها الأقصى في موقف حركة طالبان في كابول. وفي حالات أخرى يوجد صراع ضد المرأة حيث تعتبر مسؤولة عن بطالة الرجل؛ إذ تنافسه على فرص العمل (؟!) ماذا يمكن أن تكون وظيفة هذا الموقف من المرأة؟

بادىء ذي بدء، لا بد من الإشارة إلى أن العصبية الأصولية تقوم على هوام مجتمع الذكورة المقاتل. ويصدق ذلك على الأصولية الدينية، كما على الأصولية القومية العرقية. كل مكونات الضعف والعجز تسقط على المرأة التي تتعرض للإخضاع. وهو ما يطلق قوى القتال والمجابهة المجردة من مظاهر الضعف الذي تم إسقاطه على المرأة. وتعيش الأخُوّة الأصولية الذكرية مشاعر القوة المضخمة هوامياً بهذا الشكل، مما يزيد من إحساسها بالقدرة على مجابهة الخارج.

كما يمكن أن تسقط على المرأة كل نزوات الشهوة والغواية. ولذلك تبالغ العصبية الأصولية في فرض القيود على المرأة في جسدها وسلوكها، كما في رغباتها وإرادتها. هنا أيضاً تبرز النزعات القتالية منقَّاة من شوائب الغواية عند الأخوّة الأصولية الذكرية. ومن المعروف في سيكولوجيا الأعماق، أن تصعيد الميول المتطرفة والذوبان في الجماعة الذكرية، يمر بقمع الميول العاطفية: الحرب ضد الحب، أو تحويل المرأة إلى أداة متعة المحارب في لحظات راحته.

نحن هنا بإزاء أوالية إنشطار أخرى الحرب/ الحب، والقوة الكلية الذكرية / الضعف الكلي الأنثوي. بإزاء تركيز العلاقة ضمن الأخوَّة الذكرية حيث تبقى المرأة خارجها، حتى لا تستقطب قدراً كبيراً من العلاقة. أو حتى لا تتوزع طاقة علاقة الحب والتعلق خارج الجماعة الذكرية وتضعف جذوتها.

وقد يكون في ملكية العصبية عموماً والعصبية الأصولية للمرأة وسيلة لتعزيز قوتها الداخلية (استبقاء النساء ملكاً للجماعة) وقطع الصلة مع العالم الخارجي، أو العصبيات المنافسة. ذلك أن المرأة اجتماعياً تقوم بدور إقامة الروابط بين الجماعات من خلال المصاهرة. ففي المصاهرة يتم الانفتاح على الخارج، وفي منعها تتحول المرأة إلى وظيفة تعزيز العلاقات الداخلية، من خلال الزواج الداخلي. وفي ذلك تصعيد للقطيعة «النحن»/ الآخرون.

وفي جميع الحالات تعزز العصبية الأصولية سلطتها وسطوتها من خلال فرض قانونها على المرأة بأشد حالاته تزمتاً. ذلك أن هناك علاقة طردية ما بين تزمُّت العصبية الأصولية، وبين درجة إخضاعها للمرأة. في هذه العملية تحصر كل مظاهر الضعف والعجز

في المرأة (المرأة العورة)، أو كل مظاهر إغراء الخروج عن الجماعة (المرأة الغاوية) وتوطد الجماعة سلطتها وتفرض قانونها بشكل غير مباشر على الأخوة الذكرية. من هنا يُحرم عضو الجماعة أحياناً من حق الخيار على صعيد العلاقة مع المرأة.

وقد تلعب المرأة، من موقع الضحية هذا، دوراً نشطاً في العصبية الأصولية، يصل مستوى قيادياً أحياناً. إلا أن هذا الدور يتم عادة من خلال التماهي الذكري في السلوك والمواقف. أو هو يتم من خلال تمثل المرأة لدور القمع الذي فرض عليها، حيث تشتط في تبني التحريم والقيود المفروضة على جسدها وعلى رغباتها. إنها تدخل فعلاً في حالة حرب ضد الجسد والرغبة. وحين تفعل فإنها تكرس بشكل شبه قطعي سلطة الجماعة وقانونها، وبالتالي منعتها الداخلية: طاقة الرغبة التي تميل إلى الإفلات من القانون عادة، تتحول إلى طاقة حرب على الرغبة ولخدمة هذا القانون.

على أن كل آليات التعصب ووظائفه التي تمت الإشارة إلى بعضها، تبقى عناصر مساعدة في تعزيز العصبية الأصولية. ولا بد حتى تتجلى كامل أبعاد هذه الحالة من الوقوف عند التجربة الوجودية الأصولية في دلالاتها ووظائفها وسيرورتها.

سادساً: التجربة الأصولية: دلالاتها وسيرورتها:

بيّنا في التمهيد لهذا الفصل إن الأصولية تتزايد في انتشارها شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، سواء على صعيد الأديان السماوية أو الأصوليات العرقية والقومية. وبيّنا كيف تشير الأدبيات إلى نوع من الردة بعد الإنخراط المحموم في الحداثة من ناحية، وفي حركات التحرر الوطني ذات الصبغة العلمانية من ناحية ثانية. ويتعين علينا هنا تفحص هذه الحالة لتبيان دلالاتها وسيرورتها، بعد أن عرضنا

لثقافة الأصولية ومرتكزاتها السوسيولوجية والسيكولوجية. ذلك أن الاقتصار على عرض هذه المرتكزات وخصائصها لا يقدم التوضيح الكافي لهذه الحركة الإرتدادية المتزايدة إلى الأصول.

إننا بصدد حركة مزدوجة: بعيداً عن الحداثة وطموح التنمية ذات الطابع العلماني من ناحية، وانشداداً إلى الحالة الأصولية من ناحية ثانية. فما الذي يدفع بعيداً عن الحداثة ومغرياتها؟ وماذا يجد الإنسان في هذه العودة إلى الأصول برغم الثمن الذي يقتضيه هذا التحول؟ قد يكمن بعض الجواب في دلالة كل من تجربة الحداثة والأصولية، ودلالة عملية التحول هذه.

تتوافق الأدبيات في هذا الموضوع، على أن حركة الإبتعاد مدفوعة بعوامل أصبحت معروفة. وهي تختلف في العالم الصناعي ما بعد الحداثي عن العالم الثالثي. ولو أن الدلالة واحدة في الحالتين. إذ تتمثل في خيبة الأمل الكبرى، والإحساس بالفشل والضياع، وفقدان الهوية، وانسداد آفاق المستقبل، وما يحمله من تفاقم المأزق الوجودي.

في العالم الصناعي تطلّ الأصوليات كرد على ما آل إليه حال هذا العالم في نهاية القرن العشرين. تراكم هائل لرأس المال، وهيمنة غير مسبوقة للإعلام. رافقهما بروز أزمات شغلت الفلاسفة والمفكرين الذين يتجلى لهم المأزق. فمن ناحية تحولت كل قيم العقلانية والانتاجية إلى تسابق خطير على الربح واقتناص الفرص بدون الالتفات إلى الآثار والأثمان التي يفرضها. ويرافق ذلك كل محاولات التكيف البنيوي الذي يقتضيه التنافس الطاحن الذي يفرضه اقتصاد السوق، وما يفرضه هذا التكيف من سلب المكتسبات الإجتماعية والتربوية والصحية التي ناضلت المجتمعات الصناعية

عقوداً طويلة ومريرة لتحقيقها للمواطنين. التكيف البنيوي لخدمة التنافس بدأت تهدد نوعية الحياة التي حققتها الثورة الصناعية. ومعها أيضاً تفاقم سيف البطالة الذي أصبح يضرب بدون تمييز، حتى أكثر الطاقات الشابة كفاءة، باعتراف مفكري الغرب. ومع تسلط هذا السيف بدأ المأزق يطل بوجهه في زعزعة اليقين باحتمالات المستقبل وآماله وفرصه.

وفي خط مقابل، هناك حرب نفسية تتخذ شكل غسل الدماغ الإستهلاكي من خلال فيض الإعلانات التي تروِّج لرغبات وشهوات هي بصدد أن تصبح أكثر فأكثر عَزيزة المنال. وتختزل عملية غسل الدماغ الإستهلاكي هذه الوجود الإنساني في اللذة الراهنة، ومتع اللحظة، وإشباع الحواس على حساب كل القيم الأخرى التي تشكل في مجموعها حالة التوازن الوجودي الضروري لإسباغ معنى على الحياة والكيان. اختزال الإنسان في بعده اللاهث وراء الإستهلاك زعزع معنى الوجود الذي لا يستقيم إنسانياً إلا بتجاوز المادي، رغم أهميته الأساسية. تأليه المال والإستهلاك جعل الإنسان الغربي يتيه في غربة حقيقية، إذا لم تتوافر له فرصة اللحاق بالقطار. إنه الإحساس بالتخلف عن الركب. وأما من أتيحت له الفرصة وأُشبع استهلاكاً فلا بد أن يبرز عنده السؤال: وماذا بعد؟ ذلك هو شأن إشباع الحاجات الأساسية. إنها تظل هدفاً هاماً حتى يتم إشباعها. وحين ذاك يطرح سؤال التجاوز الوجودي. وأمام هذا السؤال يجد الإنسان ذاته أمام الفراغ. إذ لم يترك الإستهلاك مجالاً سوى لهيمنته كدين.

ويضاعف من عناصر المأزق بروز الوعي الحاد بالأخطار المحدقة بنوعية الحياة على كوكب الأرض: التلوث الذي شارف

على الوصول إلى حدود إحتمال النظام البيئي. والتسلح وانتشار العنف وتحوله إلى حالة مبتذلة تحت تأثير شحن الإعلام بكل ما هو مأساوي ومثير. تفكك المؤسسات المرجعية ووهن قوتها الضابطة والمطمئنة نفسياً، وهن السلطة في اختلاف مجالاتها (السياسية والأسرية، والتربوية والمهنية والمجتمعية) وإلقاء الإنسان إزاء نزواته وشهواته وقلقه مع كل ما يحمله من انعدام الشعور الأساسي بالطمأنينة. فقدان الإحساس بالهوية والانتماء مع تفجر حدود المكان والزمان، وإلغاء التاريخ والجغرافية الذي تحمله العولمة وإعلامها. إنتشار الأوبئة الصحية الاجتماعية والنفسية. كلها عوامل تتضافر كي تنال من ذلك الشعور الضروري جداً، للتوازن الحيوي والحياتي، بالطمأنينة والإنتماء ومعنى الوجود، والآمال والطموحات وخوض معركة الحياة الموجه بمُثل تُعطيها معناها، وتُحدد لها مرجعياتها القيمية.

تم تضخيم ملامح الصورة عن قصد لتبيان تلك القوى المتفاوتة في وضوحها التي تشكل عناصر المأزق الوجودي الذي يحتاج إلى حلول. ومن هنا تأتي الأصوليات على اختلاف ألوانها ودرجات تطرفها السياسي زاعمة بأنها تملك الجواب، وتقدم عناصر الخروج من المأزق.

وأما في العالم الثالث، بما فيه العالم الإسلامي، فإن الصورة تبدو أكثر قتامة. نحن هنا بصدد حالة تتجاوز فقدان معنى الوجود، (كما يشيع الحديث في الغرب)، وصولاً إلى حالة جذرية من انعدام التوازن الكياني.

هناك خيبات الأمل لتعثر طموحات التحرر الوطني، بقيادة إيديولوجيات العلمانية على اختلافها. فبدلاً من الوصول إلى

الاستقلال واستعادة الإعتبار، والدخول في الشراكة العالمية على قدم المساواة مع الدول الأكثر تقدماً، إذا بالتبعية تطل من جديد بوجوه مختلفة: تبعية تكنولوجية، واقتصادية، وإعلامية. تحول الاستقلال الوطني في حالات عديدة من أمل بالعدالة والمساواة، إلى انفصام ما بين الجماهير ونخب الإدارة والتسيير التي توجه موارد المجتمع وإمكاناته لخدمة فئة خاصة ومصالحها. وبدلاً من روح الكفاح ذات الأخوة التضامنية، إذا بأنظمة متزايدة في ضبطها وسيطرتها هي التي تبرز. وبدلاً من الآمال الكبار بالوحدة والقوة، إذا بالتفتت والتناقضات هي التي تشيع.

حتى التقديمات التي عرفتها فترة ما بعد الإستقلال الوطني على شكل دولة الرعاية، إذا بها تصبح أكثر صعوبة في توفيرها نتيجة للأزمات المالية وتراكم الديون الوطنية. وأتت سياسات التكيُّف الهيكلي والخصخصة لتقضي على ما تبقى بناء لتعليمات وشروط ملزمة مفروضة من الوكالات المالية الدولية التي أصبحت اقتصادات العالم الثالث مرهونة لها، من خلال الديون الثقيلة، وخدمتها التي تستهلك الموارد النادرة.

سياسات التكيُّف البنيوي تتطلب التحول من سياسات الخدمات والعدالة إلى سياسات التنافس مع السوق العالمية من خلال إلغاء الإنفاق الاجتماعي والتربوي والصحي، أو تخفيضه إلى الحد الأدنى. وهكذا فبعد فترة دولة الرعاية التي لم تهيء المواطن للاستقلالية، بل حاولت ربطه أساساً بالتبعية للنظام القائم، إذا بهذا المواطن يجد نفسه مباغتاً بلا سند ولا استعداد ذاتي لما يطلب منه، أي يجد ذاته أمام المأزق الحياتي. مع هذا المأزق تعددت الأزمات: السكن، التعليم، البطالة المتفاقمة حتى بين الكفاءات. ويضاعفها

الانفجار السكاني بكل ما يحمله من تبعات وأعباء. وهكذا أضحت الأجهزة المسيّرة للمجتمع قاصرة عن استيعاب الحالة، مما يؤدي إلى تفاقمها بشكل متسارع. وأما التكيُّف البنيوي من أجل التنافس، والذي يزين للناس الحلم بالفردوس الموعود، فهو ذو ثمن اجتماعي باهظ يزيد من حدة مأزق الغالبية السكانية.

وبالتلازم مع المآزق المعيشية المستقبلية، تلاشت الأحلام والطموحات التي كانت تتغذى من حركات التحرير. تلك الطموحات التي كانت تجعل للتضحيات معنى، وللمعاناة قيمة وجودية تعطي الحياة دلالاتها. أصبح الناس عموماً والشباب خصوصاً إزاء مأزق معيشي متفاقم، بدون قضية وطنية نضالية تعوّض عنه أو تجعله محتملاً. فقد الناس عموماً، والشباب خصوصاً الدور الذي يوفر لهم مكانة تمدهم بالاعتبار الذاتي.

بطالة الشباب الجامعي المتزايدة، وانحسار فرص المستقبل، وتناقص إمكانات الاستهلاك، مع غياب الدور الوطني النضالي، يشكل حالة حصار يلفهم من كل جانب. إنه مأزق الفرصة غير المتاحة، والمكانة الضائعة. ويفاقم هذه الحالة الإنفتاح الإعلامي العالمي بشكل مزدوج. لم يعد هناك عزلة ممكنة تجعل فئة الشباب ترضخ لأمر واقع وكأنه من طبيعة الأمور. التعليم والإعلام كلاهما فتحا عيون الشباب وبصائرهم وزادا من حدة وعيهم بالمأزق الذي هم فيه، وحالة الحصار المزدوج المضروب عليهم. الإعلام تحديداً يلعب دوراً مميزاً في المأزق. فهو من ناحية يروِّج لعالم الإستهلاك ومتع الدنيا والإثارة والمغامرة. إلا أن هذا العالم بعيد المنال وغير متوفر إلا للقلّة. وتكون النتيجة تزايداً لمشاعر الغبن الوجودي والإحباط المادي، حين يجد الشباب ذاته إزاء هامشيته الإستهلاكية.

ومع الغبن تتصعَّد حالة الإحتقان. والإعلام من ناحية ثانية يعرض على مدار الساعة مشاهد العنف والقتال والصراعات الدموية، والانتفاضات، وحالات التمرد والسلوكات التدميرية من أربعة أرجاء الأرض. كما يعرض مشاهد التعصب والتطرف، ومعها حالات الإحتقان في العلاقات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات. وهو كله يسبغ على دنيانا المعاصرة، كما يكشفها الإعلام بتقنيات الإثارة التي يمتلكها، طابع سهولة المرور إلى الفعل العنيف. وهكذا تتضافر مشاعر الغبن إزاء الحرمان المادي والفرص غير المتاحة، مع الشحن الإنفعالي واحتقان خيبات الأمل وفقدان المكانة، وابتذال العنف.

هذه الوضعية تتضمن كل مقومات المأزق الوجودي الذي يتعذر احتماله طالما أن المستقبل لا يبدو أنه يحمل بوادر الحل. هنا يعتري التوازن الكياني خلل لا بد له من مخرج، أو مخارج. ذلك أن صورة الذات في الوجود، الخالية من التوازنات والانفراجات والبدائل، يتعذر استمرارها بدون فعل أو رد فعل. فهي تصبح غير محتملة، لأنها أمست دليلاً على انعدام القيمة الكيانية. ولا بد من فعل يغير موازنة الوضعية ودلالة الوجود. وهو يتخذ شكل التصرفات شبه السحرية التي تقلب المعادلة: الإنتحار، الإدمان، الهامشية، العنف، أو البحث عن الفردوس المفقود.

لا بد من تحطيم صورة الذات غير المقبولة، أو استبدالها بأخرى تحمل التوازن الوجودي، أو التحول في دلالة الوجود من انعدام القيمة الكلي إلى قيمة معقولة. هذه الحالة الأخيرة هي تحديداً حالة الأصولية، والانتماء إليها. وإذا كان هذا السيناريو الذي عرضناه صحيحاً، لا يعود من المستغرب انتشار الأصوليات شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً. إذ أننا بصدد تحرك وجودي، ليس عنيفاً

بالضرورة، من هدر كياني راهن، إلى فردوس مفقود، قابل للاستغلال السياسي.

فما هو هذا الفردوس المفقود؟ وما هي الإجابات ـ الحلول التي يقدمها على أنها برنامج الخلاص من المأزق الوجودي؟ ثم ما هي تلك المكونات النفسية الذاتية التي تجعل مشروعه قابلاً للتبني؟ تتعدد العوامل التي يمكن أن تشد الفرد إلى الأصولية كما تتنوع في وظائفها ومرتكزاتها.

1 ـ رأينا أن الأدبيات تتوافق على الحاجة إلى البحث عن معنى للوجود في مجتمعات اللامعنى الإستهلاكية. وهناك العديد من الفئات من الناس يبحثون بلهفة متزايدة عن قيمة مطلقة تساعدهم على التعامل مع حاضر متزايد في تيهه. وتقدم الأصولية قيماً كهذه. ذلك أنها تمد الواحد منهم بارتباط بقيم ومثل ما ورائية تجاوزه، وتتجاوز وجوده المادي الفاني. والإنسان بحاجة دوماً إلى الإرتباط ببعد ماروائي يمثل نموذج الإرتقاء عن الماديات. هذه الحاجة عالمية الطابع تتجلى في الأديان على اختلافها. كما قد تتجلى في المثاليات أو الإيديولوجيات التي ترتفع إلى درجة الأديان. المحدود والمادي والفاني لا يكفي لملء حياة الإنسان، إلا بقدر ولمدة محدودة. فالإنسان محكوم بالتجاوز: تجاوز واقعه، كما تجاوز ذاته.

ولقد تكوّن المأزق الوجودي في الغرب حين ردت الفلسفات الفردية الإنسان إلى مجرد كيانه الفردي، وردت وجوده إلى مجرد بعده المادي. وحين رفعت من شأن إشباع الحاجات المادية مكرّسة إياها كحاجات أساسية وكافية، في مختلف الفلسفات المادية والحسية التجريبية التي أزاحت الفلسفات المثالية عن المسرح وحشرتها في دوائر ضيقة. لقد كرست هذه الفلسفات كلاً من

الحاجات والعقلانية، وجعلت من الإنسان مركز ذاته، ومن إشباع حاجاته المادية وعقلانيته، المرجعية الوحيدة في حياته.

إلا أن الإنسان وجد ذاته أمام المأزق الكبير حين وصل الإستهلاك أشده وفقد جاذبيته[46]. لقد أنكر الغرب كما يقول فرانسيس فوكوياما في كتابه الشهير «نهاية التاريخ»[47] بعداً هاماً من الوجود الإنساني هو «الثيموس». هو تعبير يوناني أخذه عن سقراط وأفلاطون، والفلسفة المثالية من بعدهما (هيجل ونيتشه) وهو يتمثل بالصراع من أجل نيل الإعتراف والتقدير. وهو صراع قد يصل حد العنف حتى الموت من أجل المنزلة الخالصة، وإسباغ الدلالة على شيء ما أو موقف ما. كما يعني الثيموس ذلك التطلع إلى تجاوز الذات باعتباره مصدر العواطف النبيلة من مثل: الوطنية والشجاعة والكرم والبذل والفداء، وانتزاع الإعتراف الاسمي. وبذلك يصل الإنسان إلى الوفاق مع ذاته من خلال تحقيق الثيموس في مقابل الرغبات والعقل؛ أي من خلال إسباغ قيمة فوقية على الأشياء، ومنها نفسه ذاتها.

ويصدق ذلك على العالم الثالث، ولو من مدخل آخر، حيث نجد الإنسان إزاء مأزقه المادي، وهدر كيانه الإنساني، مع اليأس من

---

(46) في فيلم وثائقي عرضه التلفزيون البريطاني في كانون الثاني/يناير 1997، عن تكاثر جماعات «الجيش الجديد للمسيح» في بريطانيا، يقول أحد الشبان الملتحقين بهذه الجماعة أن المدينة توفر الجنس والمخدرات بلا حدود، ولكن ماذا بعد؟ لقد جئت هنا أبحث عن شيء آخر، بالطبع أراد أن يقول إنه التحق بهذه الجماعة بحثاً عن معنى لوجوده من خلال انتماء ماورائي.

(47) فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، القاهرة، 1993، ط أولى، دار الأهرام للترجمة والنشر.

إمكانية الوصول إلى الرفاه وهناء العيش. هنا يتحرك الثيموس فيزداد غضب الإنسان إزاء قهره، ويثور على واقعه من خلال الارتباط بمثل أعلى وشن المعركة ضد حرمانه والتنكر لقيمته الإنسانية، ولو دفع فيها ثمناً باهظاً، متمثلاً بالجوع والبرد والتهديد[48]. فالثيموس لا تعدو أن تكون المصدر النفسي للرغبة في الاعتراف الذاتي بالقيمة، من خلال انتزاع الإعتراف بإنسانيتها من الآخر. فهناك حاجة إنسانية محضة ومقتصرة على البشر دون ما عداهم من كائنات حية تتمثل في التقييم والبحث عن قيمة، فيما يتجاوز الأمن والثراء المادي والإستهلاك. ينقل فوكوياما عن نيتشه قوله بهذا الصدد «التقييم وحده خالق القيمة. وبدون التقييم يضحى الوجود مجرد قشرة خاوية. فعوا ذلك يا معشر البشر»[49]. ويذهب هذا الكاتب إلى الاستنتاج، تبعاً لنيتشه، بأن الثيموس أهم من الرغبة والعقل. ذلك أنهما سبب انحطاط الإنسان ومآسيه، من خلال إغراقه في عالم الإستهلاك، على حساب القيمة والمعنى.

من خلال الإرتباط بمثل أعلى والبحث عن معنى يتجاوز الوجود المادي، تكتسب الذات قيمة تتجاوز قيود الواقع وإحباطاته وحرمانه وقهره ولا جدواه. وتتجاوز المأزق الذي يحاصرها ويعصف بتوازنها. ومن هنا يتضح سر ذلك الحماس في تجاوز الماديات والشهوات خلال فترات النضال من أجل العقيدة التي

---

(48) نفس المصدر ص 152. حديث فوكوياما هنا ليس عن العالم الثالث بل عن المعسكر الاشتراكي وانهياره وسقوط أوروبا الشرقية واستقلال بلدانها، في المعركة ضد توتاليتارية تأمين الحاجات المادية على حساب الكرامة وتقدير الذات، في رأي المؤلف.

(49) نفس المرجع ص 171.

تعطي الوجود طابعاً كونياً. ففي هذه العملية تقلب عناصر المعادلة جذرياً: من الهامشية والحرمان والقهر واللاقيمة، يتحول المرء إلى موقع مصدر القيمة الكلية ذات الطابع الكوني الماورائي، إذ يصبح حاملاً للرسالة. وتقلب المعادلة بشكل مضاعف حين يتحول الكائن المحكوم بانعدام القيمة (نظراً لهامشيته وغبنه وحصاره الوجودي) إلى مرجع إطلاق أحكام القيمة على الآخرين: المجتمع الفاسد، الناس الضالين، أصحاب السلطة الذين فقدوا شرعيتهم... إنه يصبح، في نظر ذاته بالطبع، صاحب الشرعية وحامل لواءها والمعبِّر عنها. وخصوصاً أنها في حالات الأصولية الدينية شرعية إلٰهية، تأتي فوق كل الشرعيات الدنيوية.

وهكذا يتحول الوجود في الأصولية من فقدان للقيمة والمعنى، إلى احتلال مرتبة أحقية القيمة والمعنى. ويتم تجاوز الذاتي وكل مآزقه من خلال إعطائه المعنى الكوني.

2 ـ ويتعزز ذلك كله من خلال الذوبان في الجماعة، التي تصبح حاملة للقيمة المرجعية والمشروعية الوحيدة، في مقابل الخارج الذي يصبح لا مشروعاً بفضل أوالية الإنشطار التي عرضنا لها فيما سبق. من خلال الذوبان في الجماعة يتم تجاوز الذات الفردية مثالياً ماورائياً (باعتبار الجماعة حاملة للعقيدة وممثلة للمشروعية)، وجماعياً غيرِّياً في آن معاً. وهنا يصبح البذل والعطاء، والتضحية والفداء تكريساً للذاتية المتجاوزة لواقعها الفردي (منعدم القيمة)، من خلال تحولها إلى مصدر القيمة ذاتها.

الحاجة إلى الانتماء إلى عصبة موضع الفخار والافتخار، ومصدر القوة والمنعة والعزة، حاجة إنسانية أساسية، طالما عملت الفلسفات الفردية الغربية على طمسها وتغييبها. لقد حطم الغرب

صدارة «النحن» مكرساً سيادة الفردية، كي يتم استفراد الإنسان وتسخيره أداة للإنتاج والإستهلاك. ولقد شحن هذا الإنسان بكل القيم الفردية والإستهلاكية وانتهى به الأمر إلى الغربة والإستلاب حيث وجد ذاته وحيداً أمام آلة جبارة تبتلعه في دوامتها. ذلك هو أحد أبعاد المأزق الوجودي الذي يغذي الإنشداد نحو الجماعات الأصولية في الغرب. من خلال الذوبان في الجماعة يشعر الواحد منهم بأنه تجاوز غربته في وضعية «المعيّة» والمشاركة الجماعية في الأناشيد الدينية والسلوكات الجماعية. الفردية تعيد اكتشاف ذاتها المستلبة من خلال هذا الذوبان في «النحن»، واكتسابها مدى جماعياً ذا مرجعية مثالية ماورائية. تتجاوز الجماعة، سواء في ممارستها اليومية، أم في احتفالاتها الدينية، واقعها ليس فقط من خلال اكتساب القيمة الأسطورية، بل من خلال تفجير الطاقات الوجدانية وتأجيجها في عملية تعزيز متبادل يتخذ طابع سلسلة التفاعلات العاطفية المتصاعدة، وصولاً إلى حالة الكل في واحد. ويسبغ هذا الواحد الممثلن والمضخم القيمة دلالته على كل من أفراده.

هنا تلعب سوسيولوجية العصبية دورها بكامل طاقاتها: التماهي المتبادل بين الأعضاء، والتماهي بالقائد أو المرشد إلى الخلاص ووكيل المشروعية الماورائية. ولهذا تلاحظ حالات الحماس الأسطوري الذي يبلغ درجة الوجد في التجمعات، والمناسبات العقائدية الكبرى للحركات الأصولية الشرقية. كما تلاحظ مظاهر السعادة الغامرة بالتفاؤل النعيمي على أعضاء التجمعات الدينية خلال ممارستهم لشعائرهم وحفلاتهم. الحبور يكسو الوجوه التي استعادت الذات المستلبة والقيمة المضيعة. وبذلك يستعيد الوجود معناه، وتكتسب الحياة روحها. وبهذا كله يخلق الإنسان ذاتاً جديداً لنفسه من خلال استعادة «النحن» الممثلنة.

وبها يشعر الواحد من هؤلاء أن الوجود قد استقام.

ذلك ما يفسر التفاؤل والأمل الذي يعيشه الإنسان الأصولي، كما بيّنهما عدد من الدراسات في أمريكا. فلقد بين تحليل نتائج استقصاء طبق على عدة مجموعات من المتدينين الأصوليين والليبراليين في جامعة ستانفورد في قسم علم النفس عام 1993، أن الأصوليين أكثر تفاؤلاً من المتدينين العاديين، وأن هؤلاء أكثر تفاؤلاً من الليبراليين. فالإيمان والإرتباط بمثل أعلى، والإنتماء إلى الجماعة هو مبعث على الشعور بالحماية والخلاص في آن معاً[50]. ولقد تبين من تحليل لاحق لنتائج هذه الدراسة أن الأمل ينبع من ثلاثة مصادر: ارتباط الأصولية بمزيد من الأمل، ودرجة أقل من اليأس، ومن ملامة الذات بل وتبرئتها من الأحداث السلبية.

وتبين دراسة أخرى[51] حول الأصوليين المرتدين، أن هؤلاء يعانون من تكوين مرضي يتمثل في تجربة الإنشطار الديني: فهم يفقدون الإيمان بالمصدر الأول لمعنى حياتهم من ناحية، إلا أنهم يشعرون بحالة من الضياع والوحدة، حيث لا يوجد مصدر بديل لإعطاء معنى لحياتهم. وتصف دراسة غيرها صعوبة ترك الإنتماء

---

(50) انظر:

SETHI, SHEENA, SELIGMAN, MARTIN (1993): OPTIMISM AND FUNDAMENTALISM, JOURNAL OF PSYCHOLOGICAL SCIENCE, VOL4, NO4, JULY 1994, USA.

(51) انظر ملخص مقالة:

MOYERS, JAMES - C (1994): PSYCHOLOGICAL ISSUES OF FORMER FUNDAMENTALIST, JOURNAL OF CULTIC STUDIES, VOL 11, NO2, 994, USA.

الأصولي البروتستانتي، والمراحل العديدة التي تمر بها وصولاً إلى تجاوز الأزمة.

3 ـ يكمّل الإرتباط بالماضي ومثلنته، الركنين السابقين (المثل الأعلى، والذوبان في الجماعة). ففي الأصولية، كما يدل عليها إسمها، هناك حنين إلى الأصول الأولى التي يسبغ عليها طابعاً مثالياً إذ تمثل الحالة النقية في سوائها وصلاحها. بمقدار تيه الحاضر وإحباطاته وقهره وحرمانه، هناك عودة إلى تلك الحالة الهوامية التي يسبغ عليها طابعاً نعيمياً. هذه الآلية تمد الذات المنتمية إلى الأصولية بشعور قاعدي من الإحساس بطيب الأصل وسموّه، مما يعطي هذه الذات قيمة حميمية تشعر المرء بالرضى والقبول والوفاق الداخلي. وتحتمي الذات من مأزق الحاضر وانعدام توازنه بهذه العودة الهوامية إلى ماضٍ مفترض من صلاح الوجود والكيان. وتتمثل الآلية الأصولية، كما سبق بيانه، في العمل على استعادة هذه الحالة الأولى المتخيَّلة أو الأسطورية (كما في الأصولية العرقية ـ الدينية) باعتبارها الرسالة الموجهة للرؤى والسلوك، من خلال السعي لتصحيح الواقع من ناحية، وانتظار المخلص والمنقذ من ناحية ثانية. وبذلك يستقيم الأمر، وتجد الجماعة ذاتها وتستعيد اعتبارها السليب، وتعم حالة نعيمية جديدة. إننا هنا بصدد إسقاط فردوس مفقود على المستقبل، وصولاً إلى أمل تحقيق الفردوس الموعود. فالمستقبل لا يُبنى انطلاقاً من خيارات بشرية كما تذهب إليه الإيديولوجيات الليبرالية، بل من خلال استعادة فردوس مفقود، حيث الحالة المثالية تتمثل في تفعيل الماضي مستقبلياً. وبهذا يتم تعليق الحاضر، أو اعتباره حالة نشاز عابرة. ومع هذا التعليق يتم تحجيم المأزق الكياني الراهن وتجاوزه، مما يدخل التوازن إلى الوجود ويسبغ على المعاناة والقهر دلالة خارجية. إن الجماعة

الأصولية تتمكن بهذه الآلية من تحصين ذاتها ورفع شأنها من خلال إتخاذ مسافة سيكولوجية عن الحاضر. جاعلة منه حالة برّانية غير معترف بها، ولا تمت إلى الهوية وصورة الذات.

ذلك هو مبرر التفاؤل، وحتى الحماس الذي يميز الجماعة الأصولية مما تشير إليه الدراسات، وتدل عليه الوقائع. فمع عدم الإعتراف بالحاضر وإرغاماته يلغى المأزق الوجودي نفسياً.

ترتكز هذه الديناميكية على دافع نفسي عام إنسانياً. فالحنين إلى الماضي وتصويره بشكل أسطوري مثالي هو مكوّن من مكوّنات النفس البشرية، يجد أفصح تعبير عنه في نشأة الجنس البشري من المنظور الديني: خلق الإنسان وعيشه في الفردوس ثم خطيئته وخروجه منه. حيث تصبح الملحمة الإنسانية موجهة نحو غاية كبرى هي استعادة حالة النعيم، من خلال استعادة الفردوس المفقود. هذا المنظور لا يقتصر على دين معين، ولو أنه يتخذ تلوينات متنوعة؛ إلا أن بنيته الأساسية واحدة. تتضافر طفولة البشرية مع طفولة الإنسان في هذا المنحى. فلكل أمرئ أسطورته الذاتية عن مرحلة النعيم الخاصة التي عاشها في بداية تاريخه. ويشكل نعيم المرحلة الجنينة مرتكزها ومنبعها، ويتلوه الميلاد ومغامرة الحياة. إلا أن الحنين ينشط بشكل واع أو لاواعي حين تتحول المغامرة إلى مأساة أو معاناة. ويخبو حين تكون مغامرة الحياة في حالات مدّها وانتصاراتها. إنما هو دائماً حاضر في كمونه، كي ينشط كلما دعت الظروف.

كما أن الانشداد إلى الماضي يعتبر مكوناً إنسانياً أساسياً، له مرتكزه النفسي البيولوجي. تظهر الدراسات الإيثولوجية (علم دراسة سلوك الكائنات الحية في بيئتها الطبيعية)، أن الانتماء إلى مجال

حيوي خاصية بيولوجية عامة، تماماً كالميل إلى التجمع. إننا بصدد الإرتباط بالمكان والإنغراس فيه، مما يشكل أحد أسس الانتماء إلى الهوية عند الإنسان، كما يشكل الأرض الخاصة التي يعتبرها الحيوان مجال سيطرته ويقاتل الدخلاء عليها حتى طردهم أو هزيمته، في نوع من معركة إثبات الوجود. إن دراسة الإنطباع تؤكد هذا المرتكز البيولوجي، مما يعرف عن بعض الأسماك والزواحف التي تعود إلى موطن نشأتها الأولى في موسم التكاثر، قاطعة إليه إلاف الأميال أحياناً.

الإنتماء الزماني ـ المكاني يشكل مرتكزاً أساسياً لكل انتماء إلى جماعة أو عصبة، وهو يمد العصبية بجذورها التي تتجاوز الإجتماع وصولاً إلى البيولوجيا. وفي الأصولية على اختلافها (وخصوصاً القومية منها والعرقية) تنشط هذه الآلية، بشكل مفرط، مما يعطيها ذلك السند القوي.

4 ـ وتتكثف الأركان الثلاثة السابقة متجسدة في شخص قائد الجماعة الذي يتخذ دلالة الإمامة أو المرجعية، أو الزعيم المنقذ، أو الأمين على الرسالة وحامل لواءها، حتى عودة الأصيل الذي يجسد المشروعية المثالية المطلقة. فلا عصبية، ولا أصولية، كما لا جماعة تتخذ هذا المنحى النضالي، إلا من خلال إمامة أو زعامة تجسد هذا التكثيف الذي يشكل نواة هوية الجماعة ومركز الجاذبية فيها. وهو ما يضمن التماسك والوحدة، من خلال عملية التماهي بهذه المرجعية، الذي ينعكس تماهياً جانبياً ـ أفقياً بين الأعضاء الذين يكتسبون دلالة الأخوة. ولقد سبق الحديث عن عملية الإنشطار والمثلنة الذاتية، مع إسقاط النقائص والسلبيات على الخارج كآلية تعزز لحمة العصبية، وتكثف تحديد الهوية.

إلا أنه لا بد من إشارة إلى مرتكز نفسي آخر يمد التماهي بالزعيم أو الإمام بقوة أولية، هذا المرتكز يتمثل في الحاجة إلى الإتكال أو الإعتماد. وهي حاجة تبينها بوضوح الدراسات النفسية حول التعلق باعتباره ميلاً إنسانياً ناشطاً منذ الميلاد، ويمثل أساس نشأة العلاقات الإنسانية التي تبتدىء بالثنائي: الأم ـ المولود الجديد. إن الاعتماد في علاقة تعلق إيجابية هو الذي يوفر أساس الطمأنينة النفسية القاعدية الضرورية للنمو السليم، والقدرة على مواجهة تحديات الحياة وأزماتها.

في العصبية الأصولية ينشط التعلق التبعي بالزعيم أو الإمام، منشطاً معه مشاعر الإنتماء والطمأنينة القاعدية. قد يكون في ذلك تفسيراً لذلك الميل إلى الذوبان في القيادة المرجعية التي ترفع إلى مرتبة المثال. وتفسيراً للاستعداد إلى البذل والعطاء وصولاً حتى إلى إلغاء الذات لمرضاة تلك المرجعية. وهو قد يفسر تلك الحاجة إلى مرجعية مجسدة في شخص، في كل تجمع إنساني على تفاوت درجات الإنتماء. وهي حاجة طمستها الفلسفات الفردية التي رفع الغرب لواءها جاعلاً منها الأساس للوجود الإنساني. ليس غريباً إذاً تكرار حماس الجماهير للقائد وإعلانها الاستعداد للتضحية بالذات والدم من أجله في فورات الحماس المعهودة في العالم الثالث، وحتى في سواه.

من خلال هذه الأركان الأربعة يتجذَّر كيان الإنسان المنتمي إلى العصبية الأصولية. ومعه تقلب المعادلة، ويتحول الوجود المأزقي إلى أمل بوجود متسام طموح يثير الحماس ويعبىء الطاقات الحيوية في نوع من التضخم الذاتي. تلك هي في تقديرنا بعض الجوانب الأساسية في الوظائف النفسية في الإنتماء إلى العصبية

الأصولية. وهي وظائف من القوة بمكان، بحيث تفسر ذلك التحول الكياني الذي يحدث في حياة هؤلاء، ولو إلى حين. ويكمل هذه الديناميكية بالطبع إسقاط العدوانية ومعها كل النقائص والعيوب، وحتى الآثام الذاتية على الآخر الغريب. ومع هذا الإسقاط تكتمل مثلنة الذات وسمو الهوية المنقَّاة من الشوائب. ويتم الخلاص من مأزق العدوانية الذاتية المعتاد، والذي يتمثل في مختلف حالات محاسبة الذات وملامتها والحملة عليها، وحتى جلدها أحياناً. تصبح الذات مطهَّرة بعد ذلك الإسقاط، كما تجد صك غفرانها في إسكات صوت الشهوات النزوية من خلال تغليب الميل إلى البذل والعطاء والتضحية. هكذا يصبح المأزق الكياني (من استلاب وقهر وغبن، وحرمان من فرص المستقبل) وراء الشخص الذي يشعر عندها أنه سيد زمانه، بعد أن كان ضحيته. وسيد مكانه، بعد أن كان مهمشاً ومستبعداً منه. ذلك ما تعد به الأصوليات. إلا أن هذا الوعد الطموح لا يخلو بدوره من العديد من المآزق.

سابعاً: وقفة أولية:

تتوافق الأدبيات في الموضوع على أن الأصوليات تأتي كرد على المأزق في الشمال، كما في الجنوب، إلا أن الأجوبة ـ الحلول التي تقدمها لا تخلو بدورها من مآزق جدية، خصوصاً في حالة الأصوليات القومية والعرقية والدينية التي تتوسل العنف سبيلاً إلى تحقيق مشروعها السياسي. هنا قد يصبح الجواب على المأزق مأزقياً بدوره، من وجهة نظر الرؤى الثقافية التي تحتاجها الأجيال الطالعة للتعامل مع متطلبات المستقبل وتحدياته، وصولاً إلى أخذ قسط معقول من فرصه. يمكن أن يتخذ المأزق بعدين: خارجي، أو داخلي. ولا يندر أن يتكامل هذان البعدان ويتواجدان في آن معاً.

على الصعيد الخارجي تنخرط الأصوليات ذات المشروع السياسي العنيف في صراع مفتوح محلياً وعالمياً في سعيها إلى فرض توجهاتها. هذا الصراع المفتوح، إذا انتشرت مشاريع الأصولية (كما هو الحال راهناً) سينتهي بمشهد عالمي أبعد ما يكون عن تهيئة سبل بناء المستقبل. ذلك أن العنف يستدعي العنف، أو هو رد عليه. وبالتالي سيؤول الأمر إلى حالة استنزاف مفتوح لموارد أصبحت ثمينة جداً نظراً لندرتها. وفي حالة العالم الراهنة ستعم الخسارة مختلف الأطراف[52]. قد يصل الأمر إلى سلسلة من الأفعال وردود الفعل التي تطلق العنان لنزوات التدمير التي تصبح سيدة الموقف، وتكاد تغيّب أهدافها الأصلية. وهنا قد يتحول الشباب الذي يعيش في المأزق الوجودي المتمثل بالغبن والقهر وانعدام الفرص، إلى وقود للعنف. ذلك أن الشباب المهمش هو الوقود الأساسي للعنف. يتخذ الأمر طابعاً نضالياً حماسياً في البداية، إلا أنه قد ينزلق إلى تدمير ذاتي وغيري في آن معاً، من خلال الوقوع في فخ العنف الذي لا يترك مجالاً كبيراً للإفلات منه. ذلك هو الجانب الآخر الذي يمثل الخطر الكامن في طلب الفردوس المفقود. وهو على كل حال فردوس مستحيل في واقع العالم الراهن، حيث يتواصل كل شيء مع كل شيء آخر، ويتأثر كل شيء بكل شيء آخر. وحيث

---

(52) لابد من التأكيد في هذا المقام على ضرورة عدم الانزلاق إلى تعميم وصف الأصولية والإرهاب على حركات التحرير الوطني، كما يشيع كثيراً في الإعلام الدولي. ذلك أن هذه الحركات قد تتوسل العنف وصولاً إلى الحوار السياسي الذي يقيم حالة مقبولة من التوازن بين الأطراف في المكاسب والخسائر. العنف هنا ليس إلغاءاً للآخر، وليس إسقاطاً للتناقضات الداخلية علية، بل هو عمل سياسي بشكل آخر، يهدف إلى انتزاع الاعتراف وصولاً إلى حالة التكافؤ التي تشكل المدخل إلى التصالح والمشاركة.

أحلام العزلة الفردوسية أصبحت محالة (كما تطمح إليه مشاريع الأصوليات). فكما أن طموحات الأصوليات العالمية لم تعد ممكنة، كذلك فإن طموحات الأصوليات المحلية الإنعزالية غير ممكنة بدورها، مع التحولات التي حملتها وتحملها تكنولوجيا المعلومات. فلم تعد القطيعة مع الآخر أو إلغائه أو التنكر له هي المدخل الممكن لأخذ الفرص المستقبلية سواء للذات أو للآخر. الذاتية والغيرية أصبحتا مرتبطتين بمصير محتوم، كما لم يسبق في أي فترة من تاريخ البشرية. من هنا يتضح التعارض ما بين ثقافة الأصولية والثقافة التي يقتضيها المستقبل، والتي ترتكز في الأساس على المشاركة وتقاسم المسؤوليات في إيجاد الحلول. أي مشروع سياسي أو ثقافي قائم على ادعاء المشروعية الوحيدة وإنكار مشروعية الآخر، محكوم بطريق مسدود، ولو خيّل إلى أصحابه أنه ممكن في البداية.

وأما على الصعيد الداخلي وضمن العصبية الأصولية، فالمآزق كامنة في بنيتها ذاتها، ولو استمر هذا الكمون فترة طويلة. هناك على الصعيد العام احتمال بروز الصراعات الداخلية، بعد مرحلة الحماس الأولى المتسمة بالأخوة والمساواة والعطاء ونكران الذات، من خلال الإنشداد إلى المثل الأعلى. وتبدأ التناقضات بالتراكم والبروز بعد غياب الزعامة أو الإمامة الأولى التي جسّدت روح الرسالة، أو بعد إحكام العصبية سيطرتها على السلطة. بعد غياب الزعامة لا يندر تفجر الصراع على السلطة، خصوصاً إذا لم تكن هناك زعامة بديلة بذات قوة النفوذ النفسي والمعنوي للزعامة الأولى الموحدة. ومع صراع الزعامات يبدأ صراع الأجنحة. والبقية معروفة، حيث تتفاوت ما بين تصفيات داخلية، ومحاولات إستئثار إلى هدر للإمكانات والطاقات، تحت شعار الأحقية في المرجعية وبالتالي المشروعية.

هنا أيضاً يكون الشباب المتحمس للرسالة وقود العنف الداخلي. وهو إن بدأ فسترتد كل طاقة العدوان التي أسقطت على الخارج في البداية إلى الدخل. ولا يندر أن يكون العدوان الموجّه إلى الداخل في صراع الأجنحة، أشد عنفاً وأكثر دماراً وأفدح خسائراً، قد لا يبقى معه من القضية الكثير. وقد تبرز ظواهر التناقضات الكامنة إذا صادفت العصبية الأصولية مقاومة منيعة من الخارج تحول دون تحقيق غاياتها. فهي إذا لم تقدر على الفعل الخارجي، فستتحول إلى فعل داخلي تحمل غرمه الطاقات الشابة.

أما على الصعيد الفردي، فإن الانتماء إلى العصبية الأصولية، لا يخلو بدوره من المآزق الممكنة. فهناك الثمن الغالي الذي لا بد من دفعه لتغذية العصبية الأصولية، على شكل تضحيات جسام. منها التنكر طويل المدى للحاجات الشخصية الأساسية الذي لا بد أن يؤدي إلى حالة من إنعدام التوازن الكياني. فكما أن الإستلاب والقهر والغبن تشكّل مأزقاً، كذلك فإن طول إحباط الحاجات الأساسية يؤدي إلى الإختلال الحيوي الذي لا يستقيم إلا بالتوازن ما بين الماديات والروحانيات. فالأحادية الوجودية ممكنة بقدر، ولفترة محدودة فقط في الحالات الإنسانية المعتادة. بعدها يبدأ التساؤل الذي قد يتطور إلى الشك ومنه إلى الإحساس بالغبن.

ويزيد من تفاقم هذه الحالة، تلك الضغوطات الشديدة، التي تصل حد التهديد المادي الجدي، التي تمارس على الأعضاء لغرض استمرار انتمائهم، مع استمرار التنكر لحاجاتهم وتوازنها الحيوي، مع متطلبات التضحية ونكران الذات. وقد يحدث أن يمارس الإرهاب الداخلي على الأعضاء كي يتحول الأمر إلى حالة حصار. وهنا قد يدب الوهن في جذوة الحماس الأولى وتدخل العملية في

الإنقياد الروتيني، والتمرد النفسي المقموع. ذلك أن التلاعب بالعقول الذي قد يمارسه الإرهاب الداخلي والإبتزاز وحتى الإستغلال، هو من أبرز مقومات تراكم المأزق الداخلي. كذلك هو حال الرشوة المادية لاستمالة الأعضاء من خلال مختلف التقديمات وإشباع الرغبات وتحقيق المصالح.

في الحالتين قد يتحول الأمر من رسالة إلى تجمع مصلحي. وبالتالي تفقد العصبية الأصولية قوتها ومكانتها في تقديم الأجوبة ـ الحلول على المآزق الحياتية التي تشد الناس إليها في الأصل. على المستوى الفردي أيضاً، تحمل الثقافة الأصولية إمكانية إعاقة المشاركة في القرار والإنفتاح والتواصل التي تشكل في مجملها متطلبات بناء المستقبل، وأخذ الحق من فرصه. وهكذا قد يقع مشروع الخروج من المأزق في حالة مأزقية بديلة.

الفصل الثالث

شراكة الأضداد ومآزقها

أولاً تمهيد:

استعرض الفصلان السابقان المعالم العامة للثقافتين اللتين بدأتا تشكلان حالة حصار للعقلانية وتجلياتها: الليبرالية العلمانية، الإنفتاح، الحوار، التفاعل والتوافق والاختلاف من موقع الاعتراف بالآخر. ومن المحتمل أن تتفاقم حالة الحصار هذه وصولاً إلى تهميش المثقف والثقافة النقدية التي تشكل صمام الأمان في التوازن الفكري والانفتاح على الوقائع وتنوعها، كما تضمن الاختلاف ومجابهاته التي تحمل الإغتناء المتبادل لكلا الموقفين. فالثقافة النقدية تجدد إطلاق ديناميات الفكر من خلال التركيز على ثغراته وتناقضاته ومآزقه. أي باختصار، وكما يقول علي حرب، تتعامل مع الممنوع والممتنع في آن معاً. والثقافة النقدية على صعيد آخر، ومن خلال ما تثيره من شكوك وقضايا، تلعب دور تصويب مسارات الفكر والممارسة.

لقد قام الفكر الغربي المعاصر بشكل أساسي على النقد، ونقد النقد. وقام العلم الحديث انطلاقاً في سلسلة الانقطاعات في تاريخه، من خلال نقض البديهيات والمسلّمات، وحتى القوانين العلمية التي تربعت على عرش اليقين لفترات تطول أو تقصر. وإذا

كان العلم لازال يمر بمغامرة مفتوحة من الإنقلابات، فإن الفكر الثقافي الناقد معرَّض لسلبه دوره، وحصاره في دوائر ضيقة تشدد عليه الخناق، وتمنعه من ممارسة تأثيره المجدّد، والمفتّح لمزيد من الآفاق التي ترتقي بطروحاته، ومعالجاته. الثقافة الناقدة معرضة لتهميش دورها الداعي إلى التيقظ الذهني والتبصر بقضايا الكيان والمصير.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يشكل خطراً يتهدد المستقبل والمشاركة العامة في مسؤولية صناعته وتوجيهه. وهي مهمة لم تأخذ هذا المستوى من الحدة والإلحاح في أي حقبة تاريخية أخرى، كما هو عليه الحال الآن. كما أنه لم يسبق في أي حقبة تاريخية، أن كان الفكر النقدي وثقافته، ضرورياً كما هو عليه الحال الآن، للتبصُّر بالأخطار المحدقة بالكيان البشري، وتدبر وسائل التعامل الناجع معها.

تقول هذه الدراسة بأطروحة مفادها أن كلاً من ثقافة الصورة التي تشكل أداة اقتصاد السوق، وثقافة الأصولية المضادة لها، والتي تغذي مشهد الصراعات العنيفة، تشتركان في حصار الإنسان ومصيره. وأنهما، على تناقضهما الأساسي، تتلاقيان في العديد من التوجهات والممارسات، بشكل يهدد التوازن الوجودي بين مختلف أبعاد الكيان الإنساني. وهو ما يؤدي إلى استلاب الإنسان وحرمانه فرص إغناء حياته من خلال تنوع الرؤى وتفاعلها، وتعدد المقاربات في التعامل مع قضاياه وتكاملها.

ويتلخص ذلك كله بالسير في توجهات تتعارض مع متطلبات بناء المستقبل وإعداد الأجيال الطالعة للتعامل مع تحدياته، وأخذ نصيبها مع فرصه.

نستعرض في جولة أولى نقاط الشراكة بين هاتين الثقافتين المتضادتين. ونستكمل في جولة ثانية نقاط التضاد التي تلتقي بدورها في حصار ثقافة الإنفتاح والفكر النقدي. ونختتم بالتساؤل حول مآزقهما.

ثانياً: شراكة الأضداد:

تشترك كلاً من ثقافة الصورة، أداة اقتصاد السوق، والثقافة الأصولية، في العديد من الأوجه، ولو أنهما تعارضتا في الاتجاه. وتدور أوجه الإشتراك حول حصار الإنسان أملاً في وصول كل منهما إلى التحكم فيه على طريقتها:

1 ـ فكلتاهما تدّعيان سلطة امتلاك الحل الوحيد الذي يعطي طابع الحالة المثالية للخلاص. الأصولية تتهم بأنها ظلامية، لجهة فرضها مشروعية وحيدة قاطعة وغير قابلة للنقاش. فما على الفرد إلا أن يكون في وضعية المؤمن الذي يسلم بالتعاليم التي تقدمها العقيدة. إنه أمام خيار وحيد: الإيمان مع الهداية، وإلا فالضلال مع الشك والتساؤل. أما النقد لمرتكزات العقيدة ومضامينها وغاياتها ومآلها فهو الكفر بعينه. الأصولية تحاول أن توحّد بين أعضائها باعتبارهم الأخوة في العقيدة. وبذلك فهي تحمل مشروعاً تنميطياً يبلغ غايته حين يدخل الجميع تحت رايته، ممارسين الشعائر نفسها وحاملين الرؤى والتوجهات نفسها. ليس هناك اجتهاد في الخيارات، ولا اجتهاد في الرؤى. وليس هناك من مشاركة إلا من موقع التسليم والتبعية. إننا إذاً بصدد الإنسان المنمّط الذي يفقد ملامح أصالته الشخصية متحولاً إلى واحد من عصبة.

وأما ثقافة الصورة، فلقد أطلق عليها إسم «الظلامية الجديدة» كما تم بيانه في الفصل الأول. إننا بإزاء اختزال الواقع من خلال

إنتقاء المادة الإعلامية والشغل التقني عليها كي تبلغ أقصى درجات التأثير المشابه لتأثير التسليم والإيمان الديني. إنها تحاول فرض حقائق ـ مسلمات من خلال آليات الومضة والإثارة والإبهار التقني.

وحيث يسيطر الإعلان على الإعلام، وتسيطر الشركات الإقتصادية الكبرى على محطاته، فإنها تبشر بدورها بالجنة الموعودة لإقتصاد السوق؛ إنها تختزل الكيان في ذلك الإنسان الذي يتعين عليه أن يستهلك ويسعى إلى الربح. ولقد كثر الحديث عن تبشير الإعلام الإلكتروني بالدين الجديد المتمثل بألوهية المال. كما أنها تقدم اتّباع «ملة اقتصاد السوق» على أنها روح العصر، والمدخل المضمون إلى المستقبل. وتقدم هذه الدعوة بألوان ونبرات وأصوات متنوعة تصب جميعها في خدمتها كغاية كبرى. لقد كثر الحديث عن دور الإعلام في التنميط الكوني للشباب والناشئة من خلال النموذج المحبَّب إلى النفوس الذي يقدّم لهم. وهو تنميط أحرز تقدماً هاماً حقاً، نجد صداه في الصراع الثقافي الجاري راهناً بين ضفتي الأطلنطي حول مسألة حرية سريان المنتجات الإعلامية التلفزيونية. فأوروبا قلقة على عراقتها الثقافية إزاء النموذج الجديد الذي يروّج له أمريكياً. وعلماؤها ومفكروها يرفعون الصوت منبهين. وحتى برلماناتها تتحرك حفاظاً على الخصوصية الثقافية وحمايتها من هذا الطوفان الاعلامي الذي يملأ الفضاء.

القنوات تتشابه في برامجها ومسلسلاتها من حيث البنية والمحتوى: أخبار أحداث العنف، الإثارة والتسلية، نجومية الرياضة، أخبار البورصة وأسواق المال. كلها في رسائل سريعة مكثفة ومجتزأة، لا تدع للمشاهد مجالاً للاستيعاب والتحليل والنقد. الغاية التي يُعتبر الإعلام المصور معها أنه حقق هدفه هو

النفاذ إلى لاوعي المشاهد. إنه يحاول الإحاطة به بحيث لا يبقى لديه حيزاً شخصياً نقدياً، تماماً كما يحيط الإيمان الأصولي بأتباعه.

وكما أن العقيدة الأصولية تتمثل في نظام من المعتقدات والتعليمات المبسطة والمتماسكة التي لا تقبل سوى الإيمان بها (المشروعية الإلٰهية، أو العرقية، أو القومية المتطرفة)، كذلك فإن إعلام اقتصاد السوق لا يفعل سوى الترويج لمجموعة التعاليم التي وضعتها وكالاته وأدواته: العولمة، الأسواق المفتوحة، التنافس غير المحدود، الربح القصير الأجل. يتوسل من أجل ذلك مجموعة الوصفات الشافية المتمثلة بالخصخصة، التكيف البنيوي (الذي لا يعدو كونه تحويل الاقتصادات الوطنية لخدمة اقتصاد السوق)، إلغاء الخدمات والتقديمات الاجتماعية، ودولة الحد الأدنى. وتشترك هاتان الثقافتان في هذه المسألة تحديداً، أي في محاولة تجريد الدولة الوطنية من مرجعيتها ومشروعيتها. فهي دولة الضلال عن سواء السبيل التي تجب محاربتها من وجهة نظر الثقافة الأصولية. وهي الدولة التي لا لزوم لسلطتها ورقابتها ومرجعيتها لمصلحة اقتصاد السوق الذي لا يجب أن يعيقه عائق من الناحية المقابلة. وكلتاهما تحاولان استبدالها في وظائفها التقليدية كضابط وحكم ومُسَيِّر، بسلطته هو: رأس المال وألوهيته من ناحية، أو سلطة المشروعية الأصولية وعقيدتها من الناحية المقابلة.

وفي الحالتين، تفرض مكان سلطات التفويض الشعبي سلطات فوقية غير قابلة للمساءلة. مشروعية العقيدة الأصولية تتجاوز الناس وتعلو على مساءلتهم ومحاسبتهم. وهي ليست رهنا باختيارهم لمن يمثلونهم وتفويضهم السلطة لأجل. كذلك فإن سلطة سوق المال أصبحت ما فوق وطنية، وليست رهناً بانتخابات أو تفويض. فمن

يحركون هذا السوق ويديرونه هم هيئات وأشخاص غير مرئيين؛ فلا هم انتخبوا، ولا هم يساءلون أو يُسألون؛ كما ذهب إليه المفكر جون برجر، الذي أبدى قلقه البالغ بهذا الخصوص. كلتا الثقافتين تريدان إذاً إنساناً مثالياً في انقياده وتسليمه، تماماً على غرار صفات «التلميذ النجيب» في المدرسة التقليدية. ذلك هو شرط تحقيق الفردوس المالي الموعود، أو استعادة الفردوس الأسطوري المفقود.

2 ـ وتتمثل شراكة الأضداد في اختزال كيان الإنسان وتكامله. فهو الإنسان المختزل في بعده اللذّوي الإستهلاكي في ثقافة اقتصاد السوق. وهو الإنسان المذوّب في «النحن»، حيث لا كيان ولا ذاتية أصيلة له خارجاً عن العصبية الأصولية. إختزال الإنسان في بعده الإستهلاكي يجد أفصح تعبير عنه في الملف الإعلاني المهيمن على الإعلام المرئي، مما أفضنا الحديث فيه: أنت بما تستهلك، وهويتك في تميزك الإستهلاكي. وتقوم ثقافة الصورة راهناً بتنميط الأجيال في هذا الإتجاه اللذّوي المتعي. كما أنها تستغلهم، باعتبار الأطفال، في اعتراف أرباب الإعلانات أنفسهم، هم آخر سوق إعلاني، بعد أن تشبعت بقية الأسواق. والإعلان، كما رأينا، لا يعدو كونه صناعة الموافقة وبيع الأحلام، ينجح حين يلتف على العقل ويتمكن من تعطيل الحس النقدي. وتخلق هوية جديدة هي «النحن الإستهلاكية» التي يطلب من الكبار والصغار المشاركة فيها. ويتغلغل الإعلان وتزداد فاعلية تقنياته من خلال مبتكرات تكنولوجيا المعلومات والواقع الإفتراضي.

أو ليست العصبية الأصولية صيغة مقابلة ومشابهة: الإذابة في «النحن» المنغلقة، حيث لا كيان للإنسان الفرد إلا ضمن حدود مرجعية «النحن»؟

وتتوسل كلاً من الثقافتين آليات متشابهة ولو أنها متعارضة لإنجاز هذا الذوبان. العصبية الأصولية ترفع راية صفاء العقيدة ونقائها، وتسبغ على العصبية طابعاً مثالياً يجعلها مستودع كل الفضائل والمفاخر والإيجابيات الكبرى. ومن خلال الذوبان فيها يجد الفرد هوية مضخمة له ويتعزز كيانه من خلال تضخم نرجسيته العصبية، وهو خارجها لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً. أما ثقافة اقتصاد السوق فهي تمثلن النجومية والربح باعتبارهما روح العصر. وتربط قيمة الإنسان بمقدار تشبعه بهذه الروح ونجاحه في خوض مغامرتها: المهم أن تكون من النجوم (نجوم الصفات، أو الرياضة، أو الفن لا فرق). أن تكون موجوداً هو أن تنتمي إلى هذه النخبة المحظية التي لا معنى للوجود ولا قيمة له خارجاً عنها. في كلتا الحالتين يستلب المرء في أصالته الذاتية من خلال تزيين الإنتماء إلى «نحن» مضخمة وممثلنة ترتقي إلى مستوى اليقين غير القابل للتساؤل.

3 ـ يتجلى مما سبق أن كلتا الثقافتين تحمل مشروعاً يغيّر الانتماءات المعتادة، ويشكل حرباً على صناعة المستقبل. فثقافة الصورة تبشر بلذّوية الحاضر من خلال كل آليات المتع الحسية وتقنيات الإثارة المصاحبة لها. ليس أقلها توالد القنوات الفضائية المتخصصة بالتسلية دون ما عداها، والتي تتفنن بالإثارة بدون قيود مما أصبح مثار الشكوى المتعددة المصادر (قنوات الأفلام الإباحية). وليس أقلها قنوات الموسيقى والرقص التي تستهدف الشباب على مدار الساعة، وعلى مدار الكون. وتجعل من نجوم الديسكو نموذج النجومية والمتعة والإثارة والعيش في الحلم الدائم. وهو ما ينسف الديمومة قاضياً على الماضي، وجاعلاً المستقبل حاضراً. ومع نسف الديمومة ينسف التاريخ وتنسف معه الهوية الوطنية. وهو إضافة إلى ذلك ينسف الجغرافيا حيث ثقافة الإثارة والمتعة الآنية هي ما فوق

وطنية تأتي مع القنوات الفضائية كنعمة هابطة من السماء. ومع نسف الجغرافيا ينسف الإنتماء. ومن خلال نسفهما معاً يكتمل مشروع تغييب وتذويب الهوية الوطنية التي تكاد تصبح من منظور هذا المشروع مسألة بائدة. إلا أن الخطير في الأمر هو أن هذا التغييب يحمل إمكانية فك الإرتباط بالإلتزام بقضايا الوطن والمصير، أي فك الإرتباط بالمستقبل.

أما الثقافة الأصولية فهي تتوسل مدخلاً مقابلاً للوصول إلى النتيجة ذاتها، وإنجاز المشروع نفسه. إنها تختزل المستقبل من خلال التقوقع في الماضي الأسطوري، متنكرة بذلك للحاضر وقضاياه. هي أيضاً تنسف الديمومة في بعديها الحاضر والمستقبلي من خلال المرجعية الماضوية التي تعتبر وحدها جديرة بالاهتمام والتقدير. إنها تأخذ ناسها في رحلة إلى الفردوس المفقود الذي يعتبر الحالة الأصلية، سالخة إياهم عن الإنغراس في التاريخ ومجابهة تحدياته والنهوض إلى مقتضياته. هنا أيضاً تتلاقى الأسطورتان على نفي الواقع الذي أصبح يحتاج إلى أعلى درجات الوعي بخصائصه والقدرة على تدبر وسائل التعامل معه. وتتلاقى الثقافتان على صعيد آليات تنفيذ مشروع إلغاء الديمومة والهوية والانتماء. فثقافة الصورة تتوسل آليات المتعة الحسية، والإنجراف في فيض المؤثرات والمثيرات. بينما تتوسل الثقافة الأصولية آليات تفجر الأهواء، وتصعيد مشاعر التعصب والقطيعة والصراع المفتوح مع الآخر. وتتصعد الأهواء (التي تشكل لحمة العصبية) من خلال ربطها بنشوة الرسالة ذات المرجعية الماورائية المثالية، أو المرجعية الأسطورية (من مثل أسطورة العرق النقي).

كثافة الإثارة، كما تصعيد الهوى، كلاهما يغتالان العقل

ويقتلان الإرادة. ومعهما يقضى على همّ مسؤولية المشاركة في المصير. ويسبق ذلك بالطبع إلغاء النقد والتحليل والتساؤل والتفكر والتبصر التي لم تكن البشرية بحاجة إليها بقدر ما هو عليه الحال راهناً، وما سيكون عليه مستقبلاً. كلاً من الإثارة والهوى يتقاسمان مهمة نسف الحكمة، التي تكاد تصبح المغيّب الأكبر عن المشهد العالمي الراهن. والتي بسبب هذا الغياب ذاته يمر هذا المشهد بواحدة من حالاته الحرجة فعلياً. فأمام المآزق التي تتراكم يتصعّد التصلب في المواقف، ويتصعّد معه عدم الاستقرار، وتزعزع اليقين الذي يشغل بال المفكرين في كل مكان.

4 ـ من ضمن ما تشترك فيه هاتان الثقافتان الموقف من المرأة، وكذلك توظيفهما للنزوات الحيوية الكبرى. فالثقافة الأصولية تستلب المرأة من خلال التحريم الذي تفرضه على جسدها (سواء في الأصوليات الدينية أو العرقية). إنها تتخذ من هذا التحريم وسيلة لفرض قانون العصبية الأصولية على أتباعها. ثم هي تتخذ من كيان المرأة أداة لإسقاط الضعف عليها حتى تصعّد بذلك من قوة الذكور القتالية بعد أن تزيح نقاط ضعفهم الطبيعية على كائن آخر. ومن خلال التحريم وإسقاط عورات الجماعة تتحول المرأة إلى أداة وملكية لخدمة ديناميكيات هذه الجماعة وتماسكها الداخلي. ويتصعَّد الأمر من خلال إعلاء شأن الرسالة في مقابل الغواية التي تسبغ على المرأة كنقيصة. وتكون النتيجة أن تستعبد المرأة بعد اختزال كيانها هذا واستلابها المتعدد الأبعاد. وهي إن احتلت موقعاً نشطاً، فإنه يكون مشروطاً بتخليها عن أنوثتها، أو من خلال تماهيها بالذكور.

ويتحول الأمر في ثقافة الصورة (أداة اقتصاد السوق) من

التحريم والتأثيم، وإسقاط النقائص، إلى التسليع. فالمرأة هنا سلعة الغواية والفتنة والإثارة. إنها تستخدم كأداة لترويج المنتجات على اختلافها في إعلانات. تربط السلعة، كي تفتح شهية المشاهدين وتجذبهم إليها، بفتنة الجسد الأنثوي التي يتمّ التفنن بإبرازها. وتتم دغدغة أحلام المشاهد الذي تثيره هذه الفتنة، ويعمم الحلم إلى السلعة المراد ترويجها.

وفيما يتعدى استغلال جسد المرأة في الإعلان، يتم استغلاله في قنوان الأفلام الإباحية والتفنن في إثارة أحاسيس اللذة ودغدغة أحلام المتعة. ولقد أصبح ذلك مثار شكوى عامة مع انتشار القنوات الفضائية. ثقافة الصورة التي تقوم على الإثارة تستخدم هذه الأفلام لأغراض تجارية ربحية محضة: إما من خلال رسوم الاشتراك في تلك القنوات، أو من خلال الإعلانات باهظة الثمن التي تبث خلال عرض هذه الإفلام، أو الأمرين معاً.

هكذا تتأكد مسألة استلاب الإنسان في الثقافتين، من خلال آليات استلاب المرأة. فهي لا تعود كائناً قائماً بذاته بل مجرد أداة. ومن المعروف أنه كي يتم التعرف على درجة الإستلاب ونوعيته، لا بد من التفتيش عن حلقته الأضعف، وفحص واقعها.

فيما وراء استلاب المرأة هناك في كلتا الثقافتين مشروع السيطرة على النزوات الحيوية الكبرى المحركة للسلوك والعلاقات، أي نزوات الجنس والعدوان.

أصبح الجنس بما له من قوة دفع مؤثرة نفسياً، أداة ممتازة للسيطرة والتلاعب في كلتا الثقافتين؛ ولو أن الأمر يتخذ مدخلين متضادين: التحريم في حالة، والإتجار بالإثارة والإباحية في الحالة الثانية. من خلال هذا التلاعب تفرض كل من الثقافتين قانونها

التسلطي مموَّهاً بشعارات ظاهرية.

يقدَّم الأمر في الثقافة الأصولية على أنه ارتفاع فوق الشهوات، وتسام عليها من أجل غايات كبرى. بينما هو يقدَّم في ثقافة اقتصاد السوقَ على أنه كسر للقيود والتحريم وإطلاق لحرية الجسد ونزواته وحق الاستمتاع. إنه يقدَّم كثورة على الحرمان الذي طال أمده، والذي أصبح موضة بائدة يتعين نسفها.

على أن النزوة الحيوية الكبرى، الأخرى لا تفلت من مشروع السيطرة بدورها. بل هي تشكل أيضاً إحدى أهم أدواته.

في ثقافة الصورة هناك شحن للمادة المعروضة بالعنف بقصد الإثارة. تتفنن وكالات الأنباء في سعيها المحموم إلى إحراز الكسب الصحفي وبيعه بأثمان عالية لقنوات البث، باصطياد أخبار المجازر والاغتيالات والإنفجارات. وتعرضها لقطات مجردة عن سياقها، بغية إحداث الصدمة لدى المشاهد وشده إلى الشاشة. ولقد أصبح للقنوات الدولية كما هو معروف مراسلوها المنتشرون في مختلف أصقاع الأرض. وهم يركزون خصوصاً على أخبار العنف المادي والمجابهات والصراعات بشكل انتقائي، طالما أنها المادة الأكثر جذباً للجمهور، والأكثر مردوداً بالتالي. وفيما وراء الأخبار تشحن البرامج بأفلام العنف للغرض ذاته. وهو ما أخذ يشكل قضية كبرى تقلق المربين والمفكرين حول آثارها اللاحقة على الأجيال الطالعة. فإذا كان هذا هو نموذج العالم الذي يعيشون فيه، فإن هناك خطراً في أن يتمثلوا هذا النموذج، وبالتالي يقدمون على ممارسة سلوكات العنف الذي أصبح ظاهرة مبتذلة.

أما في الثقافة الأصولية فإن استغلال نزوة العدوان يشكل عملية أساسية في إذكاء العصبية والتعصب. تجد العصبية لحمتها من خلال إسقاط العدوانية على عدو خارجي هو رمز الشر الذي تجب

محاربته والقضاء عليه. العدوانية الموجهة إلى الخارج هي إحدى أهم ضمانات تماسك العصبية، وتنقية بنيتها من الصراعات الممكنة. وتوجيه العدوانية إلى الخارج هو أيضاً وسيلة لإلهاب مشاعر الأتباع حين يهبون إلى الدفاع عن الرسالة المهددة من الأعداء. وكما رأينا فلا تستقيم عصبية بدون شحن عدواني.

على أن الأمر يتجاوز هذا الشحن وصولاً إلى إضفاء المشروعية على السلوك العدواني الموجَّه إلى الخارج. المعركة ليست مشروعة فقط بل هي تمسي واجباً سامياً. ومع هذه المشروعية يتم تخليص الأتباع من كل شعور بالإثم أو تأنيب الضمير أو حتى الندم. يصفًّى حسابهم مع الأنا الأعلى (بلغة التحليل النفسي). ومع هذه التصفية تصبح العدوانية متحررة من القيود الذاتية التي تفرض عليها عند الإنسان العادي. وهكذا فبينما يعيش هذا الإنسان العادي أزمة ذاتية مع عدوانيته، مما يضبط سلوكه العنفي، يتحرر عضو العصبية الأصولية من أزمته هذه ويصبح طليقاً ضد الخارج، إنما أكثر تقييداً تجاه المرجعية الداخلية التي أعطته صك البراءة، وبالتالي أكثر تبعية لها.

. في خضم استغلال النزوات الحيوية الكبرى من قبل هاتين الثقافتين لخدمة مشروعهما، ومن خلال إحلال هذه النزوات في موضع الصدارة تتصعّد الإثارة، ويتصعّد الهوى، ومعهما يتراجع العقل ويطمس التفكر، ويتوقف التبصر. وبالتالي تسلب من الإنسان إرادته وسيطرته على إدارة دفة وجوده وتوجيه مصيره.

ثالثاً: حرب الأضداد:

رغم شراكتهما في حصار الإنسان، إلا أن هاتين الثقافتين تقعان فيما بينهما في حالة واضحة من العصبية المتطرفة. كلاً منهما

تلقي التحريم على الأخرى. فإذا بنا إزاء الضلال والفساد والإنحطاط إلى مستوى اللذائذ كتهمة موجهة إلى ثقافة اقتصاد السوق، وإزاء الظلامية والتحجر والعنف والتخريب (وما تبقى من سلسلة النعوت) كتهمة موجهة إلى الثقافة الأصولية. الحرب المفتوحة هي الحالة الوحيدة القائمة بينهما. وكل منهما تدعي المشروعية في حربها هذه، بل وتجعل منها واجباً لإنقاذ الإنسان من الخطر الذي يتهدده.

التكفير المتبادل هو نتاج الأسطرة المتبادلة. وتتفاقم هذه الأسطرة لأن كل ثقافة تنغلق في مسلماتها ومرجعياتها. لا هي تحاول، ولا هي تستطيع أن تتفهم أو تستوعب غيرية الثقافة الأخرى. ثقافة العصبية الأصولية تطلق حكم الضلال والفساد المسبق، على ثقافة الصورة بدون أن تجشم ذاتها عناء فهم مرتكزاتها الحيوية، وقوة الدوافع والحاجات المحركة لها. ودون أن تحاول إستيعاب حقائق ثورة ما بعد التكنولوجيا في منطقها وحتميتها. تتم الأسطرة من خلال إختزال هذه الثورة في مجموعة مبسَّطة من الأحكام السالبة. ومع هذا الإختزال يتم تجاهل الإمكانات الكبرى التي تحملها تكنولوجيا المعلومات الإعلام، والفرص غير المسبوقة لتوظيفها في خدمة بناء المستقبل. وتبالغ الثقافة الأصولية في تنكرها لثقافة الصورة من خلال التنكر للحاجات الإنسانية التي تحققها: فالحاجات المادية الحسية، والمتعة، واغتنام الفرص، وتحقيق الربح، والحلم بالبحبوحة المادية كلها دوافع بشرية أساسية لا طائل من التنكر لها، ناهيك عن الحرب عليها. كذلك هو حال التنافس والتميز، والبروز والنخبوية، وحتى الأنانيات الذاتية، هي بدورها محركات نفسية ذات قوة دافعة من العبث التنكر لها، وتجاهل العمل على إشباعها، أو على الأقل حسن توجيهها.

أما ثقافة اقتصاد السوق فليست أقل عصبية ولا تعصباً. كما أنها ليست أقل انغلاقاً وقطعية وإختزالاً في موقفها من الثقافة الأصولية. إنها حبيسة مسلماتها عن الطبيعة البشرية في بعدها المادي: إربح أكثر كي تستهلك أكثر. كما أنها حبيسة نظرتها الفردية الأنانية إلى الوجود الإنساني: معركة التنافس على الكسب المادي هي الوحيدة التي يجب أن تشكل دستور الحياة! إختزال الجهد الإنساني إلى آلية وحيدة هي اقتصاد السوق القائم على المضاربة واقتناص الفرص. وليس عجيباً بالتالي أن نجد من أطلق على هذا الإقتصاد إسم «سوق الكازينو»: بمعنى المغامرة والمقامرة التي آل إليها حال السوق المالية العالمية. يضاف إلى ذلك مسلَّمة البقاء للأقوى التي تحكم إقتصاد السوق وثقافته.

هذه الثقافة التي تسبغ المشروعية على بديهياتها تحت إسم روح العصر، لا تحاول أن ترى القوى النفسية التي لا تقل دافعية، والتي تحرك الثقافة الأصولية. إنها لا تستطيع أن تخرج عن إطار إيديولوجيتها المبرمجة كي ترى الأبعاد الأخرى للوجود الإنساني: أبرزها الحاجة إلى الإرتباط ببعد ماورائي، والحاجة إلى مثل أعلى موجِّه، وغاية فوق إنسانية تقود وجود الإنسان. إنها تسقط من حسابها أن الإنسان ليس مجرد كائن مادي، ذي حاجات مادية، بل هو كائن مشروط بالمعنى. وأن إشباع الحاجات المادية على حيويته وحتميته لا يستوعب الحاجة إلى المعنى والتجاوز الذاتي. وهي تسقط من حسابها أن الفردية والتنافس ونزوة السطوة والقوة، لا تشكل سوى بعد واحد من الوجود. وبالتالي لا يمكنها أن تطمس البعد البنيوي المكوِّن للوجود الإنساني الذي يتمثل بالانتماء إلى «النحن» كحالة أصلية. إن ثقافة اقتصاد السوق لا تستطيع، إنطلاقاً من مسلماتها ذاتها، أن تستوعب أن التمرد والثورة على ما يعتبر غبناً

وقهراً ليس أقل قوة في دافعيته من التنافس. وأن الأمر قد يتحول أحياناً إلى معركة وجود، وانتزاع للإعتراف بالوجود لا يتوقف المرء أمام حساب كلفتها المادية.

يؤدي هذا التنكر في مختلف أبعاده بثقافة اقتصاد السوق إلى أسطرة الثقافة الأصولية وإختزالها في مجرد النعوت المعروفة: العنف، التخريب، الإرهاب؛ أي تهديد مشروع الفردوس الموعود. وتعمَّم هذه النعوت من خلال إطلاق الأحكام على الثقافة الأصولية في مختلف أحوالها، سواء كانت ذات مشروع سياسي يتوسل العنف المفتوح أم لا. تعمَّم الأسطورة وتضخم عمداً لتعزيز عصبية ثقافة اقتصاد السوق.

وهكذا لا يبقى من مجال سوى الإنشطار الوجودي إزاء الحرب المفتوحة بين الثقافتين. وهنا يلعب التنكر المتبادل دوره كاملاً كآلية مطلوبة من كل منهما لتبرير حربها على الأخرى. التنكر يُشَرْعِن العنف الموجه إلى الطرف الآخر، حيث يتحول إلى حالة دفاع عن الكيان. ليس غريباً إذاً قيام كل طرف بتغذية عنف الطرف الآخر في معركة الأحقية الوحيدة.

يقود التنكر المتبادل إلى حالة الإنشطار الوجودي المتمثل في «النفس المبتورة». الخيار المطروح من كلتيهما على الإنسان هو بتر كيانه إلى أحد بعديه الرئيسين: إما بعد الحاجة والرغبات، وإما بعد المثاليات. وكل منهما يطرح كخيار وحيد على حساب الآخر والتنكر لواقعيته وضرورته. النفس المبتورة هي حالة مأزقية لا تملك ضمانة الإستمرار، لأنها تفتقر إلى التكامل الوجودي. ذلكم هو أحد المآزق التي تقود إليها هاتان الثقافتان.

رابعاً: مآزق شراكة الأضداد:

تبرز مآزق كلاً من الثقافتين على المستوى النظري الإيديولوجي، كما على المستوى الإنساني الوجودي:

1 ـ المستوى النظري:

كل إيديولوجيا تميل بطبعها إلى الإختزالية والأحادية. تكاد تلك أن تكون حاجة بنيوية من أجل التماسك الداخلي والإرتفاع إلى مستوى المشروعية، من خلال ادعاء اليقين لذاتها دون ما عداها. إلا أن هذه الحاجة إلى الأحادية إذا وصلت إلى حد التعنت في رفض المغايرة والتنوع، تشكل مقتل تلك الإيديولوجية ولو بعد حين. ذلك أن الأحادية تقع في حالة السكون، والدائرية التاريخية التي تتكرر في حالة من الإنغلاق الذاتي.

قد يكون في ذلك إنعكاس لميل الذهن البشري إلى البحث عن حالة اكتمال دائرة النشاط، من خلال الركون إلى صيغة أو تصور يتسم بالتماسك والإغلاق وصولاً إلى توقف الجهد المكلف والمقلق في آن معاً. فالذهن البشري يميل إلى الإستقرار على حال تتمتع بالتوازن بدفع من الحاجة إلى الاقتصاد في الجهد. وقد يتلاقى كل من الميل الذهني مع الميل الإيماني، الذي يسبغ على الإيديولوجيا، مما يجعلها تبدو وكأنها متجردة من الثغرات؛ لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها.

على أن هذا التلاقي ذاته ونظراً لاختزاله للواقع في تعقيده وتنوعه لا يلبث أن يصطدم بمأزقه البنيوي. ولا تطول فترة الحماس للعثور على اليقين المكتمل، حتى تبدأ الثغرات في التجلي. تلك ضرورة فعلية طالما أن تيار الحياة متحرك ومفتوح النهاية. وبالتالي

فكل نهاية هي بداية لتحرك جديد يتجاوز ما سبقه فيرتقي به، أو يتعارض معه فينقضه.

الذهن البشري بحد ذاته لا يكادِ يستقر على حال يجد فيها توازنه واكتمال دائرة نشاطه في أمر ما، حتى يعاود النشاط من جديد تجاوزاً وتوسعاً أو تحولاً في الاتجاه. ومن هنا فالفكر يحتاج كيما يستمر على قيد الحياة إلى الحركة المتحولة، وإلا وقع في الجمود. وعندها يبرز التزمت رافعاً شعار الإيمان اليقيني مقابل التساؤل العقلي. ويشتد التزمت كي يسكت ذلك الميل الحيوي إلى العودة إلى طرح الأسئلة.

من هنا يتضح كيف أن الإيديولوجيا، وخصوصاً إذا اتخذت طابعاً أحادياً، محكومة بالوقوع في الإستبداد الذي يكاد يكون في تعريفه فرضاً لحالة ما من الأحادية وترسيخها، والحرب على كل ما يثير التساؤل حولها. على أن الاستبداد لا يطال الخارج فقط، بل هو يصيب الداخل ذاته فيجمده، وقد يحجِّره. وهنا تتوقف الحياة في هذا الداخل، حيث تشل الدينامية التي تشكل مكوناً بنيوياً من مكونات الحيوية والنمو. كم من إيديولوجيات وقعت نظراً لأحاديتها في هذا المأزق وتحولت بالتالي من حالة النمو والتوسع والإنتشار إلى حالة التصلب الدفاعي؟ وحيث يفشل الدفاع فإنه يستدعي دفاعات إضافية، كما يعلمنا التحليل النفسي، لا تفعل سوى تعزيز تصلبه وانغلاقه. وهو ما يقضي على الدينامية الحركية المنفتحة على الخارج بما هي شرط النماء. ذلك هو حال الإستبداد الشرقي تحديداً: الأحادية التي تختزل الوجود في حيز محدود من مداه. هي الأحادية ذاتها التي تضرب التحريم وتوسع من نطاقه باضطراد وصولاً إلى الوقوع في عهود الإنحطاط. وعندها لا يبقى من

ديناميكية الحياة سوى الإجترار والإنتظار.

في المقابل تعلمنا فلسفة العلوم، كيف أن النظرية العلمية والممارسة المتصلة بها والمندرجة عنها لا تعيش وتنمو إلا من خلال نقضها وقتلها. فتاريخ العلم، هو تاريخ انقطاعاته وتناقضاته ونقائصه. تاريخ العلم هو تاريخ نسف النظريات التي تربعت ردحاً من الزمن على عرش المعرفة وفرضت قوانينها على أنها قوانين الكون ذاته. ولقد تسارعت عمليات النقض والقتل هذه حتى وصلنا إلى حالة انعدام اليقين في العلم. وهو ما حدا بأحد فلاسفة العلم المعاصرين إلى القول «إن الشيء الوحيد الأكيد في العلم راهناً هو انعدام اليقين». وانطلاقاً من حالة انعدام اليقين هذه تنفتح مغامرة المعرفة البشرية على مصراعيها.

ذلك أيضاً ما يكاد يوجز تاريخ الفكر الغربي الحديث: النقد ونقد النقد؛ المعرفة ونقضها. لقد قام على سلسلة من الجدليات المتقابلة والمتجابهة التي تزعزع كلاً منها الأخرى، مما يفتح السبيل إلى الإغناء المستمر والتجاوز. ابتدأ الأمر في انفجار المادية في وجه اليقين اللاهوتي وهيمنته. وبعدها قامت الجدليات الفلسفية الكبرى. ومنها ولدت الجدليات المعرفية: الجزئية في مقابل الكلية، والمثالية في مقابل المادية، والعقلية في مقابل الحسية، والبنيوية في مقابل الوظيفية والتاريخية، وصولاً إلى التفكيكية والفوضى ونظريتها في مقابل الإنتظام والسكون. وكل منها تتربع ردحاً من الزمن على عرش الموضة المعرفية، حتى تظهر تناقضاتها، ويأتي من يفجر كوامن «خانتها الفارغة» التي تحمل المسكوت عنه فيها «أممنوع كان أم ممتنعاً». ومعها تبدأ جولة جديدة، ورؤى مغايرة.

الحياة كنظام مفتوح تأبى السكون، وتفلت من أي محاولة

لاستيعابها في أحادية نظرية معرفية، أم ايديولوجية إيمانية. وباعتبار الحياة نظاماً مفتوحاً، فهي دوماً في حالة قلقة وغير مستقرة من التوازن المحكوم بالتجاوز. تلك هي حركية الحياة تحديداً. والدخول فيها هو دخول في التاريخ الحي. قد تكون مآزق هاتين الثقافتين أصبحت أكثر جلاءً على هذا المستوى النظري الإيديولوجي. إلا أن هذه المآزق لا تقتصر على هذا المستوى وحده. بل تتعداه إلى المستوى الإنساني الوجودي. وهنا قد تكون أكثر حدة.

2 ـ المستوى الوجودي:

الوجود الإنساني كنظام حيوي مفتوح محكوم بتآلف الثنائيات الجدلية وتناقضها. ذلك ما يوفر له توازناً شبه مستقر. لا يصل إلى حالة ويركن إليها، إلا ويتحرك في اتجاه تجاوزها وصولاً إلى توازن أعلى وأكثر تعقيداً، وبالتالي أكثر ارتقاءً. ذلك هو الوضع عموماً في حالات الصحة النفسية، التي تتصف بالنماء والإغتناء. أما الجمود والركود، كما التصلب والوقوع في النمطية الوجودية، فهي جميعاً نتاج إحدى حالتين: أما استبداد خارجي يفرض الجمود والركود، أو إضطراب نفسي شديد يوقع الذات في حالة النمطية والتصلب الدفاعي. وكلاهما مناقض للعافية والنماء، حيث يتلاقى القهر الخارجي مع الإستلاب النفسي المرضي ويتبادلان التعزيز. ثنائي الإستبداد الإستلاب هو الحالة النقيضة لجدلية الإنفتاح الحيوي المتغير. إنه القيد المزدوج المفروض من الخارج أو الداخل في الآن عينه.

تتعدد الثنائيات الجدلية في الوجود الإنساني. وهذا ما جعل كيان الإنسان يتجاوز إلى الآن أي محاولة نظرية لإستيعابه.

فالنظريات تظل اختزالية، تحاول تعميم مقولاتها الجزئية ونظرتها الأحادية على كيان يفلت من الاستيعاب عمقاً واتساعاً.

هناك ثنائيات بنيوية مكوّنة هي التي تسبغ على الحياة الإنسانية طابع معركة الوجود والمصير. وهناك ثنائيات ثانوية إنما فاعلة بقوة، تردف تلك البنيوية. وفي الحالتين يتجلى الوجود الإنساني كواقع محكوم بتجاوز الأحادية والإنغلاق على حالة نمطية مستقرة.

اكتشف التحليل النفسي بعض هذه الجدليات الكبرى. كما اكتشفت العلوم الإنسانية وفلسفاتها جدليات أخرى.

تأتي جدلية الرغبة ـ القانون في رأس الثنائيات البنيوية. وهو ما توافق عليه كل من التحليل النفسي وعلم الأناسة. الوجود الإنساني محكوم بذلك الصراع المحتدم ما بين الرغبة في مرتكزاتها النزوية الحيوية، وبين القانون أو التحريم. وهو ما يعتبر في عرف هذين العلمين أساس تكوين الإنسان ودخوله في الحضارة. الرغبة ببعديها الجنسي والعدواني مقيدة بقانون يؤطّرها. وبذلك تنطلق حركية تجعل الوجود الإنساني يتأرجح ما بين الرغبات والشهوات من ناحية، وبين المنع والتحريم والتقنين والتعفف والضبط من ناحية ثانية. من هنا فإن ثقافة الصورة وما تبشر به من عالم الرغبة واللذة والإثارة، وثقافة الأصولية بما تفرضه من تعاليم الإمتناع والتعفف والتقشف والتحريم، كلتاهما متعارضة بنيوياً مع طبيعة الوجود الإنساني. الرغبة حين تغرق في مبدأ اللذة تتحول إلى إجترار وجودي، ويبرز مأزقها الذي يتمثل في السؤال: وماذا بعد ذلك؟ ما هي غاية الحياة ومعناها؟ كذلك فإن التحريم قد يتحول إلى شطط وقهر للنفس ورغباتها إذا استمر. وهنا تتخذ مغالبة النفس من أجل الرسالة السامية دلالة الإنشطار الوجودي. ولا تلبث المعاناة أن

تتفاقم ومعها الإحساس بانعدام التوازن الذي يفتح سجل التساؤل حول اليقين. ذلك أن العبء قد يصبح صعب الإحتمال حيث يتخذ دلالة إستنزاف الذات. ولا راد لهذه الحالة سوى بمزيد من التعصب والتطرف وإسكات صوت الرغبة التي هي في الأساس انفتاح على الآخر، والحصول على إعترافه. في الحالتين يؤول الأمر إلى النفس المبتورة التي لا تجد توازنها الوجودي، ومعها يطل المأزق.

على الصعيد الوجودي هناك جدلية المغامرة ـ الحميمية. لا يجد الوجود الإنساني توازنه على هذا الصعيد إلا من خلال التحرك الدوري والمتكافىء، ما بين المغامرة والرغبة في الإنفتاح على الكون ودخول المجهول والإنشداد إلى الجديد وتجريب غير المألوف، والإنطلاق في المكان الرحيب من ناحية، وبين الحاجة إلى الإنكفاء والإحتماء والركون إلى السكينة والطمأنينة والتقوقع في المواقع الحميمة التي نرتاح إليها، ونشعر بالاستقرار. المغامرة والإنفتاح بدون القطب الموازي يتحولان إلى تشرد وضياع وفقدان للخصوصية. وأما الإنكفاء والتقوقع والحياة الحميمة فتتحول بدون المغامرة والإنطلاق إلى اختناق وجودي يفتقد معه الإنسان الإحساس بالإثارة الحياتية؛ إنها حالة الحصار والأسى والإنحسار الوجودي.

هنا أيضاً يتراءى مأزق ثقافة الصورة التي تسلخ الإنسان عن انتمائه إلى المكان والزمان وتلقي به في العالمية، حيث يتهدد إحساسه بوحدة كيانه واستقلاليته. كما يتراءى مأزق الثقافة الأصولية من خلال الإنكفاء والتقوقع على الذات والجماعة والإنغلاق عن الدنيا. وكما توقع الثقافة الأصولية الإنسان أسيراً للماضي، فإن ثقافة الصورة توقعه أسيراً لإثارات اللحظة الراهنة. وهنا أيضاً تتعرض جدلية الديمومة للإختلال مما يعرض توازن الهوية الإنسانية

للإضطراب؛ إذ يضطرب تكامل الزمان والإنغراس فيه: الماضي الحاضر والمستقبل. تعلق الإنسان بالماضي الذي يسقط عليه الكثير من الدلالات المثالية لا يوازنه سوى توق الإنسان إلى المستقبل وما ينسج فيه من طموحات وأحلام. وكلاهما متفاعلين متكاملين يعطيان حياة الإنسان في الحاضر دلالتها ومعناها وجدواها. الأحادية الزمانية، كالأحادية المكانية تنفتح كلتاهما على انعدام التوازن والمأزق الوجودي.

كذلك هو الحال في جدلية الإستقلال/ التبعية على صعيد العلاقات. حيث الحاجة إلى التوازن ما بين المرجعية الذاتية والمرجعية الخارجية. وكما أن الإنسان بحاجة إلى الشعور بكيانه وقدرته على السيطرة عليه وتقرير مصيره وتحمل تبعاته؛ مما يمده بذلك الإحساس بالقوة والتفرد التي يكافح طويلاً من أجلها متمثلة باستقلاليته، فإنه بحاجة إلى الارتكاز إلى مرجعية خارجية تمثل الملاذ والحماية والعزوة والدعم حين تشتد ضغوطات الحياة وتتفاقم تحدياتها. التوازن ما بين الاستقلال والتبعية يظل متجاذباً متذبذباً وفي حالة من الإستقرار الحرج. ولا يستقيم توازن نفسي بدونهما. قد تستبدل مرجعية بأخرى، وانتماء بآخر، إنما تظل المرجعية والاعتماد عليها حاجة قائمة. كما أن الإستقلال قد يتخذ هذا المنحى أو ذاك وفي هذا المجال أو ذاك، إنما تظل المعركة في سبيله مفتوحة. من هنا يتجلى ربما مأزق التبعية التي تشكل أحد معوقات الثقافة الأصولية وشروط بقائها، كما قد يتجلى مأزق الغرق في الذاتية وفك الإرتباط بالإنتماء في حالة ثقافة اقتصاد السوق. وكما أن هذه ترفع شأن اللذّوية الذاتية التي قد تصب في الأنانية، وتقود إلى الدوران في الكيان المغلق، فإن ثقافة الأصولية تبالغ في الغيرية حتى لا تكادُ تُبقي من الكيان الذاتي شيئاً خارجها. بل إن

القضاء على الكيان الذاتي يشكل أحد شروط قيامها. والمأزق على صعيد التوازن الوجودي قائم في الحالتين. ذلك أن قطب الذوبان في الجماعة لا يوازيه في كلفته النفسية سوى قطب الإنفصال والتفرد المفرط. والمعادلة الوجودية تبقى عملية مستمرة ودائمة بينهما وصولاً إلى تكامل الكيان الإنساني. أما الاختزال في بعد أحادي منهما فهو يحمل الخلل بالضرورة إذا طال مداه.

وينفتح سجل الوجود الإنساني على مزيد من الثنائيات الجدلية التي يتعين إيجاد التوازن بينها. من ذلك جدلية المادي ـ الروحي التي تقع في صلب المعركة ما بين الثقافتين. ففي مقابل الحاجات المادية وحتميتها البيولوجية وإلحاح الحاجة إلى إشباعها، هناك الحاجة إلى الروحي، المثالي الماورائي الذي يتجاوز الماديات ويسبغ على الحياة معنى متسامياً. وبالطبع فالأحادية والإختزال في اتجاه أو في آخر لا يحملان التوازن إلى الوجود، الذي يظل محاولة قلقة للتأليف بينهما.

ومن ذلك أيضاً جدلية الفردي ـ الجماعي وما يصاحبها من ثنائية الأناني ـ الغيري. إن الجماعي ضرورة ومرتكز لتحديد الهوية من خلال الإنتماء إلى «النحن» التي تشكل إطار الذات ومرجعيتها. كذلك فإن الغيرية والحاجة إلى العطاء تمد الإنسان بذلك الإحساس الهام بالرضى عن الذات والوفاق مع الكون من خلال القدرة على العمل الطيب الذي يوفر اعتراف الآخر بنا وتقديره لنا. على أن الاستقطاب الجماعي ـ الغيري يتحول إلى استلاب واستنزاف إذا وقع في الأحادي. وفي المقابل فإن الفردي والأناني حاجة تشكل الدافع للمطالبة بحقوق الذات ونصيبها الذي بدونه يتفجر الشعور بالغبن والإستغلال. إلا أن الاستقطاب الفردي الأناني مأزقي بدوره حيث

يفتح معركة صراع الأقوى والأكثر حظاً وحظوة، مما لا يقف عند حد.

وهكذا تنفتح الثنائيات الجدلية على مصراعيها في الوجود الإنساني. وقد تتجمع هذه في مجموعة من الجدليات الكبرى. إلا أنها قد تتفرع وتتنوع بشكل مفتوح. ذكرنا بعضها، وأسقطنا غيرها الكثير، مما قد يتحول من موقع ثانوي إلى موقع أساسي في مسيرة الكيان الإنساني المتجددة والمتغيرة والمتأرجحة. ولا شك أن هناك منظورات أخرى تقدم مرجعيات مغايرة لهذه المرجعية التي تأثر بها تكويننا الفكري. وهي يقيناً ليست الوحيدة. إنها مفتوحة على احتمالات التعديل والتطوير، كما النقد والنقض.

قد يكون هذا الطرح قدّم ما يكفي من الدلائل الأولية على أن مشروع كلاً من الثقافتين موضوع بحثنا يحمل بذور مأزقه على صعيد النظرية، كما على الصعيد الوجودي. وإذا كان الأمر كذلك، تبرز الحاجة إلى إعادة طرح ملف صناعة المستقبل وإعداد العدة له.

الفصل الرابع

الذكاء الجماعي وتغيير المنظور

أولاً: تمهيد: في ضرورة تغيير المنظور:

رغم اتصال تيار التاريخ، إلا أن هناك دوماً مَعْلمات تشكل مراحل فاصلة تقتضي التوقف عندها، والتبصر بمعطياتها. وقد تكون عشية القرن الحادي والعشرين التي تحمل معها في الآن عينه، بداية الألفية الثالثة من تاريخ البشرية المعاصر، إحدى أبرز هذه المَعْلمات. وإنها لكذلك حيث تتسابق الدول الكبرى في استعداداتها للدخول في هذا الطور القادم. ولا يتخلف عن ذلك رجال الفكر والفلسفة. فهم يشعرون بأنهم إزاء تحديات فكرية غير مسبوقة لمحاولة استيعاب ما تحمله الألفية الثالثة من فرص كبرى وأخطار جدية.

والثقافة بما هي مرآة روح كل عصر، وتمثل تعبيراً عن توجهاته وطرحاً لقضاياه، مدعوة بالتالي أكثر من أي وقت مضى للقيام بدور فائق النشاط تحليلاً ونقداً، وتفكراً وتبصراً. ففي المرحلة التي تتعرض فيها لحالة الحصار المتنامي من قبل ثقافة الصورة، والثقافة الأصولية، يتعين تحديداً أن تعود إلى احتلال نقطة المركز.

ذلك أن هناك دوراً ملحاً ينتظرها على صعيد جلاء آثار وأبعاد

حالة الإنشطار ما بين الثقافتين اللتين تحاصرانها، والتجرؤ على طرح ضرورة تغيير المنظور.

هناك تيار جديد بدأ يتبلور بشكل متنام، ويحاول إيصال صوته إلى مجالات أوسع على هذا الصعيد طارحاً عدة شعارات. منها المناداة بالشراكة المستقبلية. ومنها طرح ضرورة الشراكة الكونية الكلية في الحلول. ومنها ما يذهب إلى رفع شعار الذكاء الجماعي، أو يقول بضرورة بناء عالم يقوم على استراتيجية الكسب المتبادل، عوضاً عن استراتيجية الكسب ـ الخسارة[1].

هذا التيار بشعاراته، يتخذ موقفاً نشطاً من قضايا المصير سواء في التحليل والتفاكر، أو على صعيد طرح الحلول والعمل من أجل تغيير المنظور وتحويل المسار. ولقد بدأ يبلور مقومات ثقافة عالمية جديدة، ويؤسس لها شبكات انتشارها، وقنوات تواصلها ما بين الشمال والجنوب، والغرب والشرق. هذه المحاولة تستلهم هذا التيار، وتحاول الإسهام فيه. وهو أمر أصبح ملحاً على الصعيد الثقافي العربي. إذ لا زال نفر من قيادات الفكر والثقافة في عالمنا مستمراً في اهتماماته الثقافية والفكرية من منظور الطروحات القديمة نفسها. ولا زال هذا النفر يفرض التوجهات حول ما يطرح من قضايا، وما يفرض من منظورات للتعامل معها. لازال غارقاً في

---

(1) تلك مفاهيم مأخوذة من مباريات التفاوض التي تتضمن عدداً من الإستراتيجيات تحدد الموقع الذي يحاول كل طرف أن يحتله في إدارة موقعه التفاوضي. من أبرزها وأفضلها في رأي الخبراء إستراتيجية كسب ـ كسب حيث يخرج الطرفان بمكاسب إيجابية. وأشدها سوءاً كسب ـ خسارة، حيث يقيض الربح لفريق من خلال الخسارة التي تقع على الفريق الآخر. والمقصود بهذا الشعار أن البشرية بعد أن أصبحت كتلة واحدة على صعيد المصير لن تستطيع تجاوز أزماتها إلا من خلال الشراكة في الحلول ومسؤولياتها، والشراكة في الفرص ونيل الحظ منها.

القضايا التقليدية نفسها التي ما فتئنا نتجادل بشأنها منذ القرن الماضي تحت شعار النهضة. ولازلنا أسرى قوقعتنا الذاتية، غير مبالين بالتحولات الكبرى التي تلف الكون من حولنا وتلفنا معه بالطبع. ذلك أن سوق الثقافة والفكر العربيين كاد يتصلب، في نوع من العصاب الهجاسي[2]، في اجتراره للقضايا نفسها وتحليلها وتفصيلها والتفنن في بحث لاهث عن الجواب الشافي، الذي يحمل الخلاص، وينقل الأمة من حال إلى حال. هذا الإجترار الهجاسي الذي يستنفذ الطاقات يدور على ذاته، مديراً ظهره للتحولات الكونية المتسارعة التي جعلت قضاياه شبه بائدة.

تفترض هذه الدراسة أن التحولات الكبرى التي تحيط بنا، ونقع في موقع أساسي من استهدافاتها وتحدياتها كما من فرصها، تقتضي أن نعيد النظر في منهجياتنا وصياغة مشكلياتنا. وهو ما يكمل دعوة بعض فلاسفتنا في ضرورة إعادة النظر في مسلماتنا. ومن أجل إعادة الطرح هذه، يتعين التوقف سريعاً عند كل من التحديات والفرص الكبرى التي تحملها الألفية الثالثة. فنعيد تلمس معالم وخصائص المجال الحيوي الذي نعيش فيه راهناً ومستقبلياً. وبفضل هذا التلمس يمكن طرح بعض الأفكار حول تغيير المنظور في مهام

---

(2) العصاب الهجاسي obsessive neurosis هو نوع من المرض النفسي الذي يتصف باضطرار المريض إلى القيام بسلوكات قهرية يكررها عدداً لا متناهياً من المرات، بدون أن يأنس إلى إحداها. وهي سلوكات قهرية ملزمة، إذ بدون القيام بها سيجتاح المريض قلق عارم. أما الشق الآخر المكمل لهذه السلوكات فهو إجترار الأفكار ذاتها التي تفرض على وعي المريض بشكل لا سيطرة له عليه. وفي الحالتين يقع المريض أسيراً لقهر سلوكه وإجترار أفكاره في نوع من الدائرة المغلقة التي تصرفه عن التعامل مع العالم بشكل منتج يعود عليه بالفائدة والنماء.

الثقافة المستقبلية على الصعيد العربي. وهو ما يمكن أن يشكل إسهامنا في صناعة الحلول على الصعيد العالمي، من خلال الإنضمام إلى تيار الثقافة الجديدة، وتجاوزاً لحالة الحصار التي تفرضها ثقافتي الصورة والأصولية.

ثانياً: التحديات والفرص:

يتوافق المعنيون بأمر المستقبل بأننا إزاء مرحلة من تاريخ البشرية تشكل حالة تحول نوعي في واقع الحياة والتفاعلات والعلاقات على سطح الكوكب. وهي حالة مفتوحة الآفاق، لا أحد يدري على وجه اليقين إلى أين ستسير، وعلى أي حال ستستقر. ومع انخفاض درجة اليقين في استشراف المستقبل، تنحسر درجة الثقة بإمكانات السيطرة والتوجيه. يصدق ذلك على مستوى الدول الكبرى، كما على مستوى المؤسسات ذات الإمتداد العالمي. ولهذا كله فإن الفلاسفة والمفكرين شغلوا بأمر هذه الحالة من موضع الاهتمام المصيري.

تتصف هذه الحالة الجديدة في أنها كونية. فلم يعد هناك بالطبع عزلة ممكنة. كل ما يجري في مكان على سطح الكوكب له إنعكاساته وآثاره السياسية والمالية والبيئية على مجمل نوعية الحياة على الأرض. القضايا المحلية، وإن كانت تكتسب حدتها في موقعها، إلا أن إنعكاساتها لا تبقى محلية، كما كان عليه الحال في السابق. وبالتالي فالتفرج وإدارة الظهر أصبحا ترفاً غير مأمون العواقب. وعلى العكس من التفرج، هناك تصعيد للهواجس أبرز مثل عليها ما يسمى باسم «مزاج السوق المالية». فهو يتأثر بالأحداث أنى تقع. ويصعب التنبؤ الأكيد بردود الفعل المزاجية

المالية هذه، مما حوَّل عملياتها في الكثير من الأحيان إلى نوع من المقامرة.

إضافة إلى طابعها الكوني فإن الحالة الجديدة ثنائية الوجه والتوجه: فهي تحمل من الفرص الكبرى بقدر ما تتضمن من الأخطار. ذلكم هو وجه التحدي الحقيقي الذي تطرحه على مواضع صناعة القرار ومراكز التفكير والتدبير والتسيير. تتلازم أخطارها المتفاقمة مع فرصها غير المسبوقة. وهو ما يفرض توفر استعداداً وعدة عظيمين للتعامل معها. ويتطلب اقتداراً غير مسبوق في مواجهة التحدي، كما في تعظيم النصيب من الفرص.

1 ـ الأخطار والتحديات:

تطول قائمة الأخطار، كما يتزايد الحديث عنها باستمرار. من أبرزها أخطار التلوث وهدر إمكانات البيئة واستنزاف مواردها. وهو ما جعل النظام الإيكولوجي يقترب من حافة قدرته على الإستيعاب والحفاظ على توازنه. يطرح ذلك تساؤلاً جدياً حول التركة التي سترثها الأجيال الطالعة ومدى الثمن الذي سيفرض عليها، ناهيك عن إمكانية حصولها على بيئة قابلة للعيش. بالطبع يتزايد الوعي بمدى ومستوى هذه الأخطار. إلا أن البون لا زال شاسعاً ما بين درجة الوعي والتحرك الجدي من أجل الفعل قبل فوات الأوان. فوسائل الإعلام تطالعنا كل يوم بجديد حول هذه الأخطار. ومن آخرها آثار التلوث الكيميائي ليس فقط على صحة الأطفال والكبار، بل كذلك على قدرة التخصيب لدى ذكور الإنسان والحيوان على السواء. وهو ما حدا بأحد التقارير إلى طرح احتمال انقراض الجنس البشري مع تدني مستوى هذه القدرة، بسبب التلوث الكيميائي وتفاعلاته، خصوصاً في البلاد الصناعية.

ويحاول العالم الصناعي تصدير هذا التلوث إلى العالم الثالث من خلال تصديره للصناعات الملوثة، واحتفاظة بالصناعات المعلوماتية الرقمية غير الملوثة.

يضاعف من أخطار التلوث، تبذير الموارد من أجل تكديس الأرباح الآنية بدون الإلتفات إلى الآثار المستقبلية لهذا التوجه المحموم. ويشير بعض المفكرين في هذا الشأن إلى التناقض ما بين المناداة بعالمية الأسواق بدون عالمية المسؤولية عن المصير. ويذهب آخرون إلى أبعد من ذلك حين يقررون في المناظرات العالمية ضرورة إعادة تأهيل الإقتصاديين والماليين، بيئياً واجتماعياً. فلم يعد مقبولاً أن يستمروا في احتكار إدارة العالم من خلال نظرتهم الأحادية الجانب، وفي حالة من غياب الوعي بالأضرار التي يلحقونها بالبيئة الكونية.

ويندرج في السياق نفسه أخطار السوق المالية الدولية. وخصوصاً بعد أن تجمعت رؤوس أموال عملاقة وغير مسبوقة في تاريخ البشرية في عدد محدود من المراكز. وهو ما يغري، مع ازدياد حدة التنافس، بكل أنواع المضاربات والمغامرات المالية التي أصبحت فواتيرها باهظة. وهي فواتير يدفعها المواطنون والعاملون في مختلف أصقاع الكرة الأرضية. أخبار التلاعبات والرشاوى والمغامرات تصل أرقامها إلى المليارات التي يتعين أن يغطيها المال العام. ويُكتفى بالتشهير أو الإدانة أو بعقوبات رمزية. أو قد يتحول الأمر إلى تغييب الفاعل، مع تهديد الأمن الاجتماعي الوطني. ولازال مثال ألبانيا حاضراً حين كتابة هذه السطور، ويحتل الصدارة في وسائل الإعلام المرئية.

أما الخطر الآخر المصاحب لذلك فيتمثل بآثار سياسات إعادة

التكيف البنيوي التي يفرضها اقتصاد السوق على مختلف المجتمعات والتكتلات الاقتصادية، وبدون تمييز أو مراعاة للخصائص والاحتياجات المحلية. وهي ذات ثمن باهظ على المستويات الاجتماعية، إذ لا يقل عن إلغاء التقديمات الاجتماعية والتربوية والصحية، والضمانات الحياتية التي وفرتها عقود طويلة من الجهود الانتاجية الكبرى والتضحيات الجسام، وصولاً إلى نوعية حياة لائقة وحافظة لكرامة الإنسان. كل ذلك تحت شعار رفع مستوى القدرة التنافسية. هذه الحالة من الحرمان من الضمانات والتقديمات إضافة إلى تفاقم البطالة في العالم الصناعي، بدأت تتمخض عن أزمات اجتماعية أصبحت أخبارها مألوفة في المجتمعات الأكثر تقدماً على وجه التحديد. وهي مرشحة لمزيد من التفاقم والتصعيد والانتشار. ومعها قد يتزايد تهديد الاستقرار الاجتماعي والتماسك.

أما البلاد المتخلفة فأمرها أكثر مأساوية. إنها مطالبة، بفتح حدودها، وتقديم مواردها لآليات اقتصاد السوق، والتبادل الحر للسلع والموارد. إلا أنه محظور على أبنائها العبور إلى حيث موارد الرزق في البلاد الغنية: «افتحوا حدودكم لرجال أعمالنا. ولكننا لن نفتح حدودنا لجماهيركم العاملة»! إنه منطق عالمية السوق واحتكار الاستفادة منه. وهو عينه منطق السماح للأغنياء بالإقتراض وحرمان الفقراء منه. ذلك ما يُراكم الإحباطات والمآسي بعد تدمير البنى الأقتصادية والاجتماعية التقليدية. وليس غريباً بالتالي تكرار مشاهد انفجارات العنف والمآسي والمحن، على مدى مسرح العالم الثالث. وهو عنف متعدد الأشكال والسيناريوهات. إلا أن القواسم المشتركة نفسها تجمعه. بالطبع فإن تفاقم العنف والإضطراب لن يظل محصوراً في آثاره في مواقعه المحلية أو الإقليمية. لقد بدأ يشكل حالات ضاغطة على الصعيد الكوني. وبدأ القلق يتصاعد

لدى من ينعمون بالوفرة لانعكاسات هذه المآسي على استقرارهم وهناءة عيشهم (من مثل ضغط حجافل المهاجرين الذين يدقون أبواب البلاد الصناعية ويولدون القلق فيها). هذا المشهد بدوره مؤهل للتفاقم مع تزايد الهوة ما بين التقدم والتخلف، والفقر والغنى. ومع تزايد تراكم الثروات النقدية والمادية والتكنولوجية بين يدي القلة. وهو ما أخذت تحذر منه تقارير الأمم المتحدة بنبرة متزايدة الشدة. وإذا كان العلني الصريح مؤشراً لتفاقم الأخطار، فإن الخفي ليس أقل خطورة. أبرزه تفشي المافيات ذات الامتداد الدولي، عالي التنظيم في العديد من المجالات: مافيات الإتجار بالأعضاء البشرية، مافيات دعارة الأطفال، مافيات المال والسلاح، مافيات الإتجار بالنفايات شديدة التلوث ودفنها في بلاد العالم الثالث. ويأتي على رأسها جميعاً مافيات المخدرات التي تلخصها «إمبراطورية الكوكايين» أفصح تلخيص. مع أنها ليست الوحيدة على أي حال حيث يضاف إليها إمبراطورية الهيروين بالطبع.

يذكر توفلر في كتابه «تحول السلطة» أن إمبراطورية الكوكايين هي «إمبراطورية سرية، تملك من القوة والثروة والمكانة، أكثر مما يملك العديد من الأمم. ومع أنها لا تملك علماً ترفعه، إلا أن لديها جيوشاً أعظم، ووكالات استخبارات أكثر فاعلية، وخدمات دبلوماسية أشد تأثيراً مما تملكه دول عديدة[3]». إن زعماء هذه الإمبراطورية، كزعماء السوق المالية يعملون في الخفاء ويحركون المسرح. ولديهم حرية حركة أكبر بما لا يقاس من الأجهزة الرسمية

---

(3) أنظر ألفن توفلر، تحول السلطة (المعرفة والثروة والعنف في بداية القرن 21)، ترجمة حافظ الجمالي وأسعد صقر، دمشق 1991، منشورات إتحاد الكتاب العرب، ص 810.

المحكومة بالقيود البيروقراطية.

وبالفعل تقدر الوكالات الدولية بأن حجم سوق المخدرات يساوي حجم سوق النفط. وأن الأمل ضئيل في إمكانية السيطرة عليه. ولنا أن نتصور مقدار الأخطار الإجتماعية، والإصابات الإنسانية التي يوقعها هذا السوق، وما ينتج عنها من آفات تعاود إنتاج ذاتها. وتوظف إمبراطورية المخدرات في حماية ذاتها وتسهيل عملياتها بعضاً من كبار المسؤولين الرسميين عن مكافحتها.

على صعيد آخر يشهد المسرح الدولي «حروب هوية» متصاعدة في عنفها، ومتزايدة الإنتشار: التصفيات الدينية والعرقية، وحروب الإنفصال، وما يرافقها من عمليات إبادة وتخريب ونهب. ولقد أصبحت هذه الحروب تشكل ركناً ثابتاً من نشرات الأخبار المرئية. فلا يقفل ملف حتى تُفتح عدة ملفات غيره. وهو ما أصبح يستنزف جهود المنظمات الدولية. ويترك المنظمات الإنسانية وحتى الدول ذات الشأن عاجزة عن وقف الدمار الإنساني الذاتي. ويميل بعض الخبراء إلى القول بأن «حروب الهوية» ستكون إحدى سمات القرن القادم. وهو ما يهدد بإدخال البشرية في حالة نزف حقيقي للجهود والموارد. فهذه الحروب العاصفة، لا تترك وراءها كما هو معروف لا عمراناً ولا بشراً.

على هذه الخلفية العامة وما يرافقها من قلق قاعدي، وانعدام للشعور الأساسي بالطمأنينة وإحباطات كبرى، تتغذى الحركات الأصولية المتفاوتة في ألوانها ومناحيها ودرجات عنفها... وهي تردف حروب الهوية، في حالة من تبادل التعزيز.

كما يتغذى الإعلام المرئي بقدراته الكبيرة على التغطية الكونية الآنية، من أخبار هذه الأخطار على اختلافها، في بحثه الدائب عن

الإثارة والسبق إليها. وهو ما يجعل المساحة الإعلامية تفيض بأخبار المجازر والحروب والمآسي. ويهدد ذلك، كما سبقت الإشارة إليه، بخلق حالة تشبع بالعنف عند جمهور المشاهدين فيصبح مسألة مبتذلة، ومكوناً أساسياً من مكونات الحياة الراهنة. وتكمن الخطورة هنا في غرس بذور العدوى الإنفعالية. فالمتتبع المدقق لمشاهد العنف الجماعي هذه، لا يفوته أن يرصد التعلم بالملاحظة الذي يمكن أن نتلمسه في التشابه الكبير في سلوكات العنف الجماعي وفي مختلف الملفات[4]. ويخيل إلى الملاحظ المتتبع وكأن العنف قد فقد حالة الرهبة والتحريم التي كانت تحيط به. ويعود ذلك جزئياً إلى ظواهر التشبع وسهولة المرور إلى الفعل. كما يعود بالطبع إلى تفاقم المآزق الحياتية اقتصادياً واجتماعياً، وإلى إدارة مدراء السوق المالية العالمية ظهرهم للملفات الاجتماعية المثقلة التي تتراكم.

هذا المشهد الكوني الحافل بالأخطار وملفاتها، يحتاج أكثر من أي وقت مضى، إلى أقصى درجات التفكر والتبصر والتدبر. وإلى مقدار هام من ممارسة الحكمة التي تكاد تكون الغائب الأكبر، في الوقت الذي أصبحت فيه الحاجة ماسة إليها. وتكمن إحدى مآزق ثقافتي الصورة والأصولية في السير في اتجاه معاكس للتبصر والحكمة. فكلتاهما تتعايش جيداً وبارتياح كبير مع تفاقم الأخطار.

(4) يبدو أن حركات العنف تقتبس من أساليب بعضها بعضاً. فمشاهد استخدام السلاح واستعراضاته عند هذه الجماهير، تتشابه بشكل ملفت للنظر. كما تتشابه سلوكات التمرد والتظاهر والصدام مع القوات الأمنية. وفي هذا الصدد يبدو أن ثورة الحجارة في فلسطين قد أخذت تشكل نموذجاً تتكرر بعض ظواهره كما في صدامات العمال الكوريين الجنوبيين مع الشرطة، في احتجاجاتهم على قوانين الصرف التعسفي. تستحق هذه الظاهرة دراسة قائمة بذاتها، انطلاقاً من حالات ميدانية مقارنة.

ثقافة الصورة وإعلامها الذي يقفز من ملف إلى آخر، ومن ساحة إلى أخرى مكتفياً بعرض المآسي بدون تحليل، يتغذى في مادته من هذه الحالة. وهو لتسارعه وقلة إكتراثه بتحليل المضامين والخلفيات والجذور، كما الآثار اللاحقة يكتفي بتقديم ألبوم حافل يبقى في حالته الخام. بينما أصبح من الملحّ التوقف عند كل ملف، والتفكر المتعمق فيه وصولاً إلى أخذ العبر وتعلم الدروس، صيانة للمستقبل.

أما الثقافة الأصولية فهي تجد تربتها الخصبة في هذا المشهد. كما تجد فيه المبررات المادية لمشروعيتها. إنها تقدم ذاتها كبديل يحمل الحل لهذه المآزق على الصعيدين الجماعي كما الفردي. على أن قسماً منها على الأقل يتحول إلى جزء من المشهد، مشكلاً بعضاً من ملفاته.

من ذلك تصبح الحاجة إلى تغيير المنظور أكثر إلحاحاً. وتصبح المشاركة العالمية في التفكر وإيجاد الحلول قضية عاجلة، يتعين أن يعلو صوتها، وأن تتجاوز نطاق الأصوات المفردة هنا وهناك. الحاجة ملحة للذكاء الجماعي، كما أنها ملحة بالمقدار نفسه لخوض معركة القيم.

وفي موازاة الأخطار المتفاقمة، هناك التحديات المتعاظمة. انفجار الإنفتاح كونياً بين مختلف البلدان والمجتمعات على مساحة الكوكب، جعل العزلة أمراً غير ممكن. وبالتالي فلم يعد هناك حماية محلية مع انهيار حدود المكان. كما لم يعد بالإمكان الإستمرار بالعودة إلى الماضي والعيش في أمجاده للإستعانة بها على تحمل معاناة ومآزق الحاضر. العولمة لم تعد وقفاً على الاقتصاد، بل أصبحت ظاهرة حياتية عامة.

ومع انفجار الإنفتاح، واتصال كل شيء بكل شيء آخر، أصبح مجال التحدي يتجاوز كثيراً ما ألفته البشرية من إنشغال بالقضايا المحلية. كما أن تواصل القوى الهائلة الفاعلة على الساحة الدولية جعلت ملزماً الخروج من القواقع الذاتية وتحدياتها المحلية الصغيرة. إننا بصدد مجابهات متزايدة. يصدق ذلك على التنافس الاقتصادي والأسواق وتبادل المنتجات، كما يصدق على التنافس العلمي والتقني. إننا بصدد صراع القدرات العلمية والتقنية التي لا مجال فيها لضعيف، أو متخلف عن الركب. ولم يعد يجدي إزاءها التحصن في القلاع المحلية التقليدية وإدارة الظهر للخارج. لقد حمل عقدالتسعينات معه انهيار كل المحميات الوطنية. الكل يتنافس مع الكل. والسبق للأكثر قدرة في عالم القوة الجديد القائم على العلم والمال.

وكما أن الضغط على المحميات الوطنية إقتصادياً، أصبح معروفاً، مما أدخلها في سباق لاهث للصمود إزاء المنافسة، ودرأ تهديد الإنقراض، فإن الضغوط الثقافية على هذه المحميات ليست أقل وطأة. لقد تحدثنا طويلاً عن ظواهر التنميط الكوني لأجيال الشباب. كما توقفنا في أكثر من موضع عند مشاعر القلق التي تنتاب قيادات الفكر والسياسة حتى في أكثر البلدان عراقة وحيوية على الصعيد الثقافي.

تهديد الثقافات الوطنية يهدد بالتلازم الكيانات الوطنية، طالما أن الثقافة هي نواة الهوية وخط دفاعها الأخير. وبمقدار قوة الثقافة وحيويتها تكون منعة الهوية الوطنية. وبمقدار قدرتها على التجدد والإنفتاح والتفاعل، فإنها تغتني وتتدعم. وعلى العكس فبمقدار وهنها أو تصلبها، تصبح الكيانات الوطنية نظماً مفرطة الإنفتاح فاقدة

للحصانة. وتتعرض بالتالي لخطر الذوبان (أو التذويب لا فرق) في كيانات أكبر تستوعبها وتطمس وخصوصيتها. وإذا كانت التحديات السياسية والإقتصادية علنية، وموضع انشغال القيادات، فإن التحديات الثقافية قد لا تتخذ طابع الإلحاح. ذلك أنها تتم من خلال عملية انتشار تتصف بالكثير من المرونة، مما لا يجعلها مثار قلق عارم.

لقد فرض على كل المجتمعات التي كانت بمثابة أنظمة مغلقة تدور حول ذاتها، وتعيش على مستوى ديناميتها وجدلياتها الداخلية، التحول إلى أنظمة متزايدة الإنفتاح بفعل بروز أنظمة عالمية عملاقة في قوتها وانتشارها (من مثل التكتلات الاقتصادية والسياسية الكبرى). ذلك هو التحول الأساسي الذي يمثل التحدي الأكبر المفروض على الكيانات الصغيرة أو التقليدية. وهو تحدٍ يفرض إعادة نظر شاملة في التوجهات والخيارات، كما في الممارسات والتفاعلات. ومن هنا يطرح على الشأن الثقافي ضرورة تغيير منظوراته، وطروحاته التقليدية. وتتخذ هذه الضرورة مزيداً من الإلحاح مع تسارع الزمان الذي لم يعد يترك مهلاً لأحد. كما لم يعد يتيح أي تأجيل لخوض معركة الوجود والمصير. فالأمر لا يقتصر على التكنولوجيا والاقتصاد، بل هو يصيب الاهتمامات الثقافية التي أصبحت وثيقة الارتباط بهما. ذلك أنه لم يسبق أن كانت وحدة الكيان وثيقة بهذا الشكل ما بين مختلف قطاعات النشاط الاجتماعي. وما لا يخطط له ويوجه سيفلت من السيطرة الذاتية، كي يقع في أسر السيطرة الخارجية الأكثر نشاطاً وحيوية وفاعلية.

فلم يعد ممكناً التصرف بشكل قطاعي، أحادي الجانب. بل أصبح ملحاً إدارة الكيان الكلي، بمقاربة تكاملية شمولية. من هنا قد

نلمح المهام المطروحة على الثقافة في عالم التحديات المتصاعدة، والأخطار المتفاقمة. إلا أن تعاظم الفرص المستقبلية يجعل حظوظ القيام بالمهام المطروحة كبيرة، بل وغير مسبوقة بدورها. وهو ما يمكن أن يثير التفاؤل والحماس.

2 ـ الفرص المتعاظمة:

إن العديد من التحديات التي ألمحنا إليها، تمثل في الآن عينه فرصاً غير مسبوقة. ذلك أن هذه التحديات تدفع إلى تجديد القوى الحية في المجتمع، وتشكل حوافزاً للخروج من الإتكالية والركون إلى السهولة في ظل الحماية. التنافس يدفع إلى تعزيز القوى الذاتية ورفع مستويات الإقتدار. حرب المعايير المصاحبة لتنوع وتغير الانتاج وسرعته غير المسبوقة، تدفع إلى مزيد من رفع مستوى الجودة، والسعي نحو الإتقان في النوعية والكلفة، لأخذ النصيب من الفرص.

التحول العالمي على صعيد السلطة من سلطة السلاح وعنفه، والمال ونفوذه، إلى سلطة المعرفة المولِّدة للأشكال الجديدة من القوة، سيكون له شأن عظيم في تغيير البنى الاجتماعية الجامدة، أو القائمة على العسف. كما أن «سرعة تبادل المعلومات ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببروز نظام جديد لخلق الثروة. وهو ما يشكل أحد المظاهر الهامة لتحولات السلطة»[5] راهناً ومستقبلياً. إن الإنتاج المقبل سيقوم على أبطال من نوع جديد يتمتعون «بالقدرة على التخيل وابتداع أساليب ومنافذ جديدة في التعامل مع قضايا العمل»[6].

---

(5) انظر الفن توفلر، المرجع المشار إليه أعلاه، ص 449.

(6) نفس المرجع، ص 460.

ومع أن العالم الثالث، لا زال يخضع في جله، لسلطات تقوم على العنف وعسفه، وتتوسل المال ونفوذه، إلاّ أن إنفجار الإنفتاح الذي حمله معه إنفجار المعرفة سيجعل من هذا النمط من السلطات المعطّلة لحيوية المجتمع، سلطات فائضة تبعاً لتعبير توفلر[7]. أي سلطات غير وظيفية تزيد عن حاجة المجتمع للضبط والتسيير، وتتحول إلى سلطات قمع وشل الطاقات القادرة على العطاء. وبالتالي فهي قد تصبح بائدة بمقدار انتشار قوة المعرفة باعتبارها المورد الاقتصادي المستقبلي.

الفرص كذلك متعاظمة من خلال جبروت العلم وإنجازاته الكبرى في التكنولوجيا، كما في جميع مناحي الحياة والتصدي لآفاتها: في الطب والهندسة الوراثية، والمواد المخلّقة، والتكنولوجيا، وإستكشاف الكون وتزايد سيطرة الإنسان عليه. كلها تحمل إمكانات تقديم الحلول لمآزق البشرية، إذا أحسن توظيفها وتسييرها. فبقدر تفاقم الأخطار تسير المغامرة الإنسانية نحو مزيد من السيطرة على ظواهر الطبيعة وإمكانية توظيفها.

إلا أن من أبرز الفرص المتعاظمة تلك التي تحملها قواعد المعلومات التي أصبحت متوفرة للبشرية. فإمكانية تبادل المعلومات أصبحت غير محدودة على جميع الصعد العملية والتربوية والاجتماعية، كما التجارية والسياسية. فقواعد المعلومات هذه وشبكاتها التي تزداد توسعاً وانتشاراً بإضطراد، كما تزداد قوة وشمولاً، أفسحت المجال لنشوء حالة جديدة من الأخوة الفكرية

(7) نفس المرجع، ص 830 وما بعدها.

الإنسانية. فالمناظرات الإلكترونية على هذه الشبكات أصبحت تكتسي طابعاً ديمقراطياً جذرياً؛ حيث تتساوى أهمية مختلف المؤسسات في الحضور على الشاشة. العرض يتساوى من حيث الشكل. وتكمن الأهمية في قوة الحجج المقدمة للدفاع عن الموقف. الرسائل مهما كان مصدرها تنقل رأساً على كل نقاط الشبكة، مما يتيح للمتلقين الإستجابة المباشرة بإبداء وجهات نظرهم[8]. كل من له إمكانية الدخول على الشبكة يصبح مرسلاً ومستقبلاً، قارئاً ومنتجاً ومشاركاً من خلال تواصله مع الملايين.

كل من له مدخل على الشبكة يستطيع أن يصل إلى البريد الألكتروني لأكبر مراكز القرار. ولقد بدأت بالفعل حركة مواطنية عالمية في التجاوب ما بين الهيئات والمنظمات، وممارسة ضغوطها المتزايدة، وصناعتها للرأي العام، مما يؤثر على أصحاب القرار. نحن بصدد بروز الأخوة العالمية، والمشاركة في رفع الصوت عالياً وممارسة الضغوط لحل مشكلات البشرية. إننا بصدد مرحلة جديدة من أنسنة الإنسان. حيث لم تعد الكيانات المغلقة التي تمارس عسفها على هواها، قادرة على الاستمرار لمدى طويل من الزمن. أصبح الفضح ممكناً وعالمياً في آن.

نحن على عتبة عهد جديد «من زيادة قوة الإنساني من خلال الحد من قوة السلطات، وتطوير الديمقراطية المباشرة، ووضع الإنسان في قلب القضايا والمساجلات، وتحويل الذكاء من خلال

---

(8) انظر Roberto Bissio الذي يشغل منصب مدير معهد العالم الثالث في منتفيديو الأرغواي، في مقالته بعنوان: CYBERSPACE ET DEMOCRATIE. LE MONDE DIPLOMATIQUE, NO 27, AOUT 1995.

المشاركة في الشبكات إلى فرصة للتشارك والاقتسام المحرر للبشرية جمعاء»[9].

فالبريد الإلكتروني لا يمثل مجرد تكنولوجيا جديدة. بل هو يشكل فرصة غير مسبوقة إلى «إعادة نظر عميقة في العلاقات بين المواطنين على المستوى العالمي. وهو ما يتجاوز قيود الرقابات البليدة والمتحجِّرة والقمعية، من خلال آليات تبادل المعلومات وبروز اللامركزية والديمقراطية والشفافية»[10]. طبعاً هذه فرص يتعين الشغل عليها وتثميرها في خدمة قضايا تحرير الإنسان.

ويساعد الإعلام الحاضر على مستوى الكون لتغطية الأحداث بشكل حي ومباشر في تقريب الكون وناسه من بعضهم بعضاً إذا أحسن توظيف إمكاناته الهائلة لخدمة قضايا البشرية، وفيما يتجاوز إعلام الإثارة والسبق إليها بغرض الربح. ذلك كله ما قصد إليه إحد علماء الإجتماع حين جعل من «الذكاء الجماعي»[11] عنواناً لمؤلَّفه الهام الذي يتحدث فيه عن أنتروبولوجيا الفضاء المعلوماتي، باعتباره المحدد التقني للإنسان المستقبلي.

ثالثاً: الذكاء الجماعي والشراكة المستقبلية:

البشرية هي فعلاً بصدد حالة إنسانية مغايرة مع توطد الفضاء المعلوماتي وشموله. ومع تزايد قوة تكنولوجيا المعلومات التي أصبحت تحدد بلا منازع مسار تطور العلم وتطبيقاته، والتفاعلات

---

(9) نفس المرجع.

(10) نفس المرجع.

(11) انظر Pierre Levy, L'intelligence collective, pour une anthropologie du cyberspace, paris 1994, ED - La decouvert

الاجتماعية والاقتصادية الوطنية والعالمية. هذه الفرص يتعين الارتقاء إلى مستوى الاستفادة منها وتثمير إمكاناتها. تماماً كما يتعين التعامل مع الأخطار والتحديات التي تشهدها الساحة العالمية بالمقاربات الملائمة.

من خلال هذين المدخلين (الفرص والأخطار) بدأت تبزغ مؤشرات ثقافة جديدة؛ كونياً ووطنياً. وهي ثقافة بحاجة إلى الكثير من التفاكر للإنخراط فيها وتحديد توجهاتها وآلياتها وأهدافها. يشير عنوان هذا القسم، إلى طبيعتها وتوجهاتها.

وإذا كنا فعلاً بصدد مهمة من هذا النوع، يتضح أن كلاً من الثقافتين المتناقضتين رغم شراكتهما، بحاجة إلى مقاربة جديدة. ويتعين أن تذهب هذه المقاربة في اتجاه تفعيل إيجابيات وإمكانات وإسهامات كلاً منهما، في توليفة مستقبلية تتجاوز مآزقهما كلتيهما. وهو ما يلبي الإحتياجات المستقبلية. ويمكن أن يطرح هذا الأمر على مستويين متكاملين: كوني، ووطني.

1 ـ احتياجات الثقافة كونيا:

تتزايد الكتابات في الاحتياجات الثقافية كونياً، من قبل العديد من المفكرين وقيادات الرأي. كما تتزايد التقارير الدولية حول الموضوع. ويتلخص الأمر في عدة محاور تشكل المهام الثقافية القادرة على التعامل مع الأخطار والتحديات وتثمير الفرص، نشير إلى أبرزها:

1,1 معركة القيم: تجعل التقارير الدولية حول التربية المستقبلية من الأخلاقيات والقيم، القضية التي ستدور حولها معركة المستقبل. ويقصد بالقيم في هذا المضمار محاولة استعادة التوازن الكياني للإنسان بعد طول انشطار ما بين مادة وروح. لقد أسرفت

الثورة الصناعية في عقلانيتها وثقافتها، في توطيد صدارة المادي على الروحي. ولقد أصاب العلوم الإنسانية، والمباحث الفلسفية الكثير من هذا التوجه، حيث اعتبرت الروحانيات خارج نطاق العلم. وبالتالي فلقد تم تهميشها بل والاستعلاء عليها، حيث حشرت في دائرة الغيبيات التي لا تعني العلم، وقليلاً ما تعني الفكر. رفعت العقلانية الغربية شأن المادية عالياً. وهو ما أدى إلى بروز عالم مادي بلا روح، يوجهه الاستهلاك ولذائذه. ووصل المأزق إلى فقدان المعنى. وكما رأينا فإن العودة إلى الأصولية غير العنيفة ما هي سوى ردة فعل لإستعادة التوازن الوجودي.

على أن القيم والمعنى والروحانيات جميعها تحتاج إلى إخراجها من مسار الماضي وسلفيته وأسطوريته، وإدماجها في مشروع مستقبلي تلعب فيه المصالح والحاجات المادية والمنافع دوراً محورياً. فالتحدي الثقافي الأكبر قد يكمن على صعيد التنشئة في التكامل ما بين عالم المعنى والإرتباط بقيم التسامي والتجاوز، مع عالم المتعة واللذة والمنفعة والمصلحة. المهمة المطروحة تكاد تتلخص في تجاوز الإنشطار الوجودي ما بين الثقافتين، في نقطة تقاطع تكامل بينهما.

من ذلك نرى كم يتعين على ثقافة الصورة من جهود لآداء قسطها في التربية القيمية. كما نرى في الآن عينه، كم يتعين على الثقافة الأصولية من جهود لتجاوز العصبية والتعصب وإلغاء الآخر. من المطلوب أن تعيد كلاً من الثقافتين صياغة ذاتها، بل تجاوزها. بذلك يمكن إعادة الاعتبار إلى الإنسان.

2,1 ـ من حروب الهويات إلى الشراكة المستقبلية: هنا أيضاً مجال لثقافة جديدة تؤلف ما بين الهوية الوطنية وانفجار الإنفتاح

العالمي. وهنا يتعين على كلتا الثقافتين تجاوز ذاتها لإسهام مشترك. العولمة التي تذهب إلى إلغاء الحدود الوطنية، ومعها إلغاء الثقافات الوطنية بما هي مرتكز الهوية، ستؤدي إلى ضياع وفقدان المرتكزات والجذور الضرورية للتوازن الحيوي. العولمة في توجهاتها الراهنة هي بصدد صناعة قلة محظية على حساب تهميش وإتباع الغالبية. ولهذا تحتدم حروب الهويات على المشهد العالمي. وتتحول المنظمات والهيئات الدولية إلى حالة طوارىء مستمرة لإطفاء الحرائق الناتجة عن التنكر للآخر وحقه في الكيان. ثقافة الصورة التي تلغي التاريخ والجغرافيا لا يمكنها الذهاب بعيداً في مشروعها. ذلك أنها كما رأينا تفاقم قوة نقيضها المتمثل في العصبيات والإنغلاق. كما أن الثقافة الأصولية بما تتغذى عليه من مشاعر ضياع وغربة وفقدان للجذور، لا تستطيع الذهاب بعيداً بدورها. فالعزلة عن المشهد العالمي لم تعد ممكنة، والإنكفاء على الذات لم يعد متاحاً، في عهد النظم متزايدة الإنفتاح عن رغبة، أو عن ضرورة.

في مقابل الضياع والغربة والإنكفاء تبرز الشراكة المستقبلية. يبرز الحس المشترك والإيمان بالمصير والمسار الواحدين. وتبرز ثقافة الإنفتاح من مواقع الأصالة. كما تبرز الحاجة إلى التربية على التواصل الثقافي ضمن إطار التنوع والإختلاف. فلا خلاص ممكناً على المدى الطويل للقلة على حساب الكثرة. كما لا إمكانية لذهاب الأحادية الثقافية بعيداً، مهما كان لونها ومنحاها.

3,1 ـ الذكاء الجماعي: تمت الإشارة تحت عنوان تعاظم الفرص إلى العديد من أوجه الذكاء الجماعي. ويقصد به عموماً استخدام الإمكانات الهائلة لتكنولوجيا المعلومات والإعلام في تنمية حركة نامية من الوعي الجماعي، ومن المشاركة الجماعية. وهو ما

يمد المواطن على الصعيد المحلي، كما على الصعيد العالمي، بوسائل القوة المعرفية كي يتمكن من استيعاب ما يجري حوله، وما يخطط له، وما يفرض عليه. وبفضل ذلك تتاح له إمكانية أفضل للمواجهة والتصدي للإعتداء على حقوقه، وعلى إنسانيته.

قواعد المعلومات وذخائرها الهائلة، وتوفرها للملايين هي بصدد كسر الهيمنة على العقول وحصارها. كما أن إمكانية التواصل المباشر على شبكات هذه القواعد تخلق حالة فعلية من الوعي العالمي واقتسام الهموم والتضامن في خوض المعارك التي تحفظ حقوق الإنسان، وتزيد من فاعلية مشاركته. يستوي في ذلك معارك البيئة والتلوث والتسليح، ومعارك المخدرات وتدهور القيم، وقبلاً معارك السياسة والمطالبة بالحقوق.

هذه الفرص مطلوب الإقبال عليها، ومطلوب تعزيزها وتعميمها. إلا أن الحال لازال بحاجة إلى جهود كبيرة للوصول إلى مثل هذه الأهداف. فهناك تفاوت كبير في الفرص ما بين الشمال، منتج ومستهلك تكنولوجيا المعلومات وقواعدها، والجنوب الفقير في إمكانات الإستفادة منها. فما يتاح لتلميذ ثانوي في دولة متقدمة مثل أمريكا على صعيد الوصول إلى المعلومات والتعامل معها والإستفادة منها، يكاد يعادل ما يتوفر لدولة بأكملها من دول العالم الثالث. لا زالت فرص الإستفادة محدودة ببعض مراكز النخبة المرتبطة بالدول المتقدمة معلوماتياً وإقتصادياً، في العديد من دول العالم الثالث الفقيرة.

أما الخلل الآخر فيتمثل ليس في توفر الشبكات، بل في محتويات قواعد المعلومات، فهناك ندرة في تلك المعلومات التي تهم العالم الثالث وقضاياه. هنا أيضاً يقتضي الذكاء الجماعي، بما

هو المدخل إلى الخلاص الجماعي، بذل جهود كبيرة لخلق حالة من توازن مقبول في الفرص.

أما البعد الآخر للذكاء الجماعي فينصب على الإعلام الذي كسر العزلة وغطى بشبكاته الكوكب. يقتضي الذكاء الجماعي توظيف فرص الإعلام الهائلة وفيض المعلومات التي يوفرها ويبثها، لأغراض بناء المستقبل. وهنا يتعين على ثقافة الصورة أن توازن ما بين تبعيتها لاقتصاد السوق وخدمته، وبين القيام بالدور التربوي ـ التوعوي الذي لا يقتصر على الناشئة بل يغطي جميع الشرائح السكانية، طالما أنها كلها مستهلكة للمادة الإعلامية. الإعلام يمكنه أن يقدم تربية مستمرة، وتكوين حالة من التوعية وإيقاظ الإهتمام والإلتزام بقضايا الحياة والمصير، لم يعرفها التاريخ قبلاً. تتيح تكنولوجيا الإعلام إطلاق ورشة تنمية كونية على صعيد رفع نوعية الحياة على الكوكب.

على أن ذلك يستدعي تحولاً جذرياً في وظائف الإعلام الفضائي، من مشاريع الربح إلى مشاريع التنمية. وهو أمر غير ممكن نظراً لضخامة التوظيفات المالية الداخلة في هذا القطاع، والتي يتطلبها تشغيله. وهي ميزانيات لا تتاح حتى للدول الكبرى. وقد يكون من الواقعي، ضمن إطار الذكاء الجماعي، إطلاق حركة ضاغطة وتكوين رأي عام من أجل تعديل المسارات، بإدخال شيء من التوازن عليها. الرأي العام هنا حاسم في تأثيره، طالما أن الإعلام الفضائي يقوم في إزدهاره، وتتزايد أرباحه على نمو جمهوره. فهو بمقدار ما يخلق الرأي العام يظل أسيراً له، ولا يستطيع تجاهله أو التنكر لتوجهاته. الذكاء الجماعي يمكن أن ينمو بمقدار ما يجهد في إطلاق أخلاقيات إعلام جديدة تكون في خدمة

تطوير نوعية الحياة. وله في نجاحات حركات البيئة مثالاً طيباً يحتذى.

إن مساع من هذا القبيل تساعد على علاج الإعلام المحلي في العالم الثالث، والذي لا يزال في جله إما مفرطاً في فقره، أو مصادراً من قبل السلطات المحلية وموظفاً في خدمة تعزيز هيمنتها على المواطنين. ورغم الجهود الرائدة هنا وهناك، لا تزال إمكانيات التطوير، وإطلاق حركات ذكاء جماعي وطني ضئيلة جداً على مساحة العالم الثالث. التحدي الفضائي يظل نصيبه أكبر للقيام بهذه المهمة، حين تنمو حركة ذكاء جماعي متعلقة به.

كم هو شاسع البون ما بين هذا التوجه، وبين الإنشطار الثقافي الذي طرحت قضاياه وعرضت مآزقه. وبمقدار إتساع هذه الفجوة تصبح مهمة بناء ثقافة جديدة على الصعيد العالمي أكثر إلحاحاً.

2 ـ مهام الثقافة وطنياً:

إنطلاقاً من التعريف الاجتماعي ـ الأناسي للثقافة، بما هي هوية المجتمع وروحه الموجهة لتفاعلاته والمحددة لرؤاه، نكون في العالم العربي بصدد طرح يتجاوز المعنى الفكري للثقافة وقضاياها كما هي مطروحة على الساحة. فبالإضافة إلى هذه القضايا وضرورة كسر حلقاتها المفرغة التي طال الدوران فيها، هناك مهام تتعلق بالتنشئة المستقبلية. هذه التنشئة هي التي ستحدد توجهات الأجيال القادمة. ولقد أصبحت هذه المهمة أكثر إلحاحاً مع تزايد وهن المرجعيات التقليدية، وتعاظم دور المرجعيات الوافدة. وإذا كان جيلنا يمر بمرحلة بينيّة، ويعيش حالة خليط ثقافي يتفاوت مقداره من التجاذب والتناقض والتشويش والثنائية، فإن الأجيال القادمة مرشّحة

أكثر فأكثر إلى الوقوع في الإنشطار الثقافي، ما بين ثقافة الصورة والثقافة الأصولية.

ذلك ما يفرض جهداً مضاعفاً على ساحتين في آن معاً. يتعين علينا الولوج في الثقافة العالمية بشراكتها وذكائها الجماعي واحتياجاتها وتحدياتها الكبرى. كما يتعين إحداث نقلة نوعية على صعيد التنشئة إذا أردنا أن نطمح في شيء من هذه الشراكة.

تتلخص مهام التنشئة في محورين رئيسيين هما: بناء الحصانة الثقافية، والإقتدار المعرفي. الأولى تشكل مرتكز الانفتاح ومنطلقه. بينما تمثل الثانية مرتكز الفاعلية في التعامل معه وصناعة الفرص.

1,2 ـ الحصانة الثقافية الوطنية: لا يعيش نظام أو كيان حي في التفاعل مع كيان أكبر منه، إلا بمقدار تماسك نواته وقوته الداخلية. الإنفتاح من موقع القوة يمثل فرصة الإثراء والإرتقاء. وإلا ضاع الكيان وتبدد في النظم الأكبر منه، إذا اعتوره الضعف الداخلي. وبمقدار ما أصبح الإنفتاح الكوني بديهة حتمية لا مفر منها، أخذت قضية الحصانة الداخلية وزناً وأهمية متزايدتين. ذلك أن الإنفتاح أو الإنقياد إليه دون حصانة ثقافية قد يتحول إلى مغامرة تحمل خطر الضياع والتلاشي. حروب الهويات في جانب أساسي منها، هي تعبير عن هذه الحالة.

تشكل الهوية الثقافية نواة الهوية الوطنية وخط دفاعها الأخير. ذلك ما يتجلى في كل حالات تهديد الكيانات الوطنية، حيث تبرز حركة إنكفاء إلى خط الدفاع الأخير هذا والاحتماء به. يتكرر هذا الأمر تاريخياً، كما يتجلى راهناً في بروز الأصوليات على اختلافها. لقد فطن إلى هذا الأمر المفكرون والقياديون والسياسيون، كما علماء النفس والإجتماع. وجعلت المجتمعات المتقدمة من الثقافة

إستراتيجية قائمة بذاتها، جبناً إلى جنب مع إستراتيجيات السياسة والإقتصاد والدفاع.

بدون بناء الحصانة الثقافية، هناك خطر تحول الإنتماء الثقافي إلى مجرد تسميات وأطر شكلية غير فاعلة في السلوك وتحديد مفهوم الذات والنظرة إلى الكون.

لا تقتصر حيوية الهوية الثقافية على مقوماتها التاريخية وحدها: لغة، تراث. . . بل لا بد من تفعيلها في خيارات مقصودة تتضمن أولويات واحتمالات محددة. الهوية الوطنية، كما الثقافية تتمثل في جهد واع ملتزم. إنها ليست مجرد تمسك حرفي بواقع تاريخي جغرافي. بل هي إعادة تركيب هذا الواقع المعقد الذي يطلق عليه إسم الشخصية التاريخية[12]. الهوية الثقافية، كما الوطنية، مشروع يبنى من خلال تفعيل عناصر القوة والحياة فيه، والتصدي لنقائصه ومعوقاته وعلاجها. أما التمسك الشكلي بقوالب جامدة، كما هي حال الثقافة الأصولية، فهو وقوع في خطر التستر على نقاط الضعف في الهوية الثقافية والإنزلاق إلى حالة الإنغلاق غير الممكن، أو الوهم الخطير، غير القابل للصمود أمام مشروع التنميط الكوني للأجيال الطالعة، الذي يتم شغله بإتقان.

يلخص برهان غليون[13] هذا الأمر بالقول بأنه ليس من

---

(12) انظر كتاب برهان غليون الهام حول هذا الموضوع بعنوان: المحنة العربية، الدولة ضد الأمة، بيروت 1993، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 59 ومابعدها.

(13) برهان غليون: حرب الخليج والمواجهة الإستراتيجية في المنطقة العربية، ضمن كتاب أزمة الخليج وتداعياتها على الوطن العربي، الطبعة الأولى، بيروت 1991، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 26.

المبالغة في شيء القول بأن الخيار المصيري الوحيد للعرب هو ذلك الذي يجعل منهم في المستقبل مركزاً للإنتاج الحضاري الفعلي، وليس مجرد سوقاً استهلاكية؛ وتكتلاً سياسياً، مستقلاً يلعب دوراً فاعلاً في السياسة العالمية ولا يكون لعبة بيدها.

لقد انخرط في مشروع التفعيل الثقافي الكثير من المفكرين العرب، وأسهموا إسهامات كبرى في التأسيس وفتح الملفات وطرح التوجهات. واستخدموا لذلك منهجيات رائدة محللة ناقدة. وبدأت الحياة تعود إلى هذا التراث الإنساني الهائل من موقع التفعيل وليس من موقع التمجيد والتجميد. إلا أن الجهد لازال يحتاج إلى خطوات نوعية تكسر المحظورات التي تلتف على خناق هذا التراث الثقافي وتخمد الحياة في أنفاسه(14).

وأما الشق الآخر في تحصين الهوية الثقافية فيتمثل في محو الأمية الإعلامية. كل فرص الانفتاح على الدنيا وإمكانات التعليم والتثقيف المستمر التي يوفرها الإعلام تحتاج إلى عملية شاملة لمحو

---

(14) قامت المنظمة العربية للتربية والعلوم بوضع إستراتيجية شاملة للثقافة العربية، طبعت في الكويت عام 1986 في 4 مجلدات. وهي تعتبر بحق أشمل ما وضع في مجال الثقافة العربية للكبار والناشئة على حد سواء. فلقد شارك في وضعها 600 خبير ومتخصص في مختلف مجالات الثقافة. وعقدت لها 27 ندوة متخصصة في كل من موضوعاتها. وهي تكمل استراتيجية التربية العربية التي سبق للمنظمة وضعها قبل ذلك. ويتضمن المجلد الرابع من هذه الإستراتيجية خططاً مفصلة لتنمية مختلف جوانب الثقافة (اللغة، التراث المعماري، والمتاحف، والخطوط والموسيقى والرسم، والمسرح والتراث الشعبي...) مع بيان الاحتياجات التنظيمية والتشريعية والتقنية. مما يجعلها شمولية حقاً في تغطيتها لكل ما يتعين عمله. وبالطبع ظلت هذه الإستراتيجية حرفاً ميتاً وجهداً ضائعاً، في صراع الحساسيات القطرية، رغم جودة طباعتها وإخراجها ومحتوياتها.

الأمية الإعلامية حتى يمكن الإستفادة منها. وتتعدد محاور محو هذه الأمية، كما سبق بيانه. تبدأ بمحو أبجدية الصورة وفهم كل أبعاد الرسائل التي تبث؛ الصريحة منها والضمنية، وعلى صعيدي المحتوى والشكل في أن معاً. وهو ما يؤسس للمشاهدة التحليلية الناقدة التي توفر عدة الحصانة النفسية والثقافية الذاتية. ويكمل محو هذه الأمية تضافر المطالبات بقانون خلقي إعلامي عالمي يحفظ حقوق المشاهدين من كل أشكال التلاعب والتنميط التي وصلت تقنياتها حداً عالياً من التقدم من خلال الواقع الإفتراضي والواقع المخلّق، ومزج الواقع الفعلي بمقادير متفاوتة منهما.

محو الأمية الإعلامية محلياً يتطلب القيام بحملة توعية وتدريب شاملين على صعيد تأهيل الأهل لتوجيه مشاهدة الأطفال وتحويلها إلى عملية شغل ثقافية. كما على صعيد تدريب المعلمين وإعدادهم، وصولاً إلى تحويل الإعلام المرئي إلى مادة دراسية مقررة. ويستكمل الأمر بتدريب الفنيين والخبراء والكتاب والمخرجين إلى أبعاد ثقافة الصورة وآليات فعلها وتأثيرها، والوظائف التي تقوم بها لدى الناشئة في تلبية احتياجاتهم المعرفية والإنفعالية وانتمائية والجمالية والترويحية. ولا بد من ضم مسؤولي الرقابة على المادة الإعلامية إلى هذا الركب من خلال تدريبهم على مهارات اكتشاف الرسائل وتحليلها الضمنية ذات الطابع التنميطي الثقافي، فيما يتجاوز الرقابة البدائية السياسية والأخلاقية.

التحصين الثقافي على الصعيد الإعلامي يستلزم مشروعاً حضارياً يمد القنوات الوطنية ببعض وسائل القدرة على منافسة الإعلام الفضائي. ورغم أن ذلك يشكل طموحاً بعيد المنال، إلا أنه أصبح ضرورة. هناك حاجة ماسة لنقلة نوعية في البرامج المحلية من

حالتها الراهنة التي تتراوح ما بين الهزال وفقدان القدرة على الإثارة والجاذبية، وبين رتابة الدعاية للسلطات القائمة. وذلك بدون التنكر للمحاولات الطيبة التي تبذل وطنياً في ظروف صعبة، تفاقمها ندرة الإمكانات والموارد.

2,2 ـ بناء الاقتدار المعرفي: ينبىء المشهد العالمي وأستشرافاته المستقبلية بأن الإقتدار المعرفي سيكون وبشكل متزايد المتغير الأساسي والحاسم في تحديد الدور والمكانة على الصعيدين الفردي والمجتمعي، الوطني والعالمي. فلم يسبق لقوة المعرفة أن أخذت هذا الحجم في تاريخ البشرية.

يذهب تقرير الأونيسكو حول التربية للقرن الحادي والعشرين[15] إلى القول بأن هذا القرن سيكون قائماً على المجتمع المؤسس على المعرفة Knowledge - based society بعد ثلاثة قرون من التركز حول الإنسان الإقتصادي. ويشير بقلق إلى أن هناك خطر إنقسام العالم إلى قلة قيادية تمتلك العلوم المتقدمة عالية الكثافة وتشغلها وتستهلكها، ويقابلها قاعدة عريضة جداً من أشباه أو أنصاف المتعلمين، ممن يشكلون قوة العمل التابعة. وسوف تتسلح هذه القلة بإمكانات ذهنية عالية للتعامل مع التكنولوجيا الذكية، مشكِّلة طبقة النبلاء والقساوسة الجدد الذي يتحكمون بالبشرية. ويخشى هذا التقرير من إزدراء هذه النخبة للقاعدة، ورفض التعامل معها، والتحصن ضد التهديدات التي تشكلها لامتيازاتها. وكأننا بالعلم الخارق في قوته يحل محل كل من الدم النبيل وقوة السلاح والمال،

---

(15) انظر الوثيقة المعدلة للسياسة العربية الخليجية المشتركة لرعاية الطفولة، من إعداد د. مصطفى حجازي، وإصدار المكتب التنفيذي لمجلس وزراء العمل والشؤون الاجتماعية بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، مسقط 1995.

في تحديد المكانات والمقامات والعلاقات.

يفرض هذا الواقع القيام وطنياً بمحو عدد من الأميات، إذا أردنا احتلال مكانة ودوراً مقبولين. هذا المشروع الحضاري يقضي حالة ثقافية مغايرة تماماً لتوجهات كل من ثقافة الصورة وثقافة الأصولية، بل ويتناقض معها. ذلك أنه يتطلب توظيف كامل الموارد والطاقات لبناء الإقتدار المعرفي، في الوقت الذي لا زلنا نصارع فيه محو الأمية الألفبائية ومحاولة التغلب عليها، أو بصيغة أكثر تواضعاً الحد من تفاقمها.

تأتي عملية محو الأمية المعرفية في مقدمة سلسلة الأميات. فلا زال التعليم عندنا متقادماً في محتواه ومنهاجياته. وهو يميل إلى التلقين من أجل اليقين بدون اهتمام جدي ببناء قدرات معرفية حقة. ولا زالت عملية المعرفة في عالمنا العربي تتوقف عند مستوى التعامل مع البيانات والمعلومات وتكديسها بدون استيعاب فعلي. ولازال على التعليم العربي تحقيق العبور إلى المعرفة بما هي تنمية المهارات الذهنية العليا في التعامل مع المعلومات واستيعابها وصولاً إلى توظيفها عملياً. ولازال عليه العبور من تكديس المعارف الملقنة إلى إتقان منهجيات التفكير العلمي، وبناء الفكر العلمي وصولاً إلى السيطرة العلمية على الواقع: التفكير المنطقي المنهجي، القدرة على التحليل والنقد، حل المشكلات، تنظيم المعلومات في نظم معرفية ـ مفهومية.

ولازال يتعيّن علينا إنجاز العبور من تعلم معلومات ثابتة ومرة واحدة إلى تعلم كيف نتعلم: تعلم المرونة الذهنية، والقدرة التكيفية للتعامل مع التحولات المتسارعة، وتحويل المعرفة إلى ممارسة، والإنخراط في عملية التعلم الدائم مدى الحياة. وهو ما يقتضي

تحول جميع وسائل الإعلام ووسائط الثقافة إلى عملية تعلم دائم ومتجدد. كما يقتضي إيجاد الروابط بين مختلف المعارف ومكاملتها.

ـ وتردف عملية محو الأمية التكنولوجية ما سبق في نوع من الثنائي المتلازم. ففي عالم تحول التكنولوجيا وسوق المال إلى إيديولوجيات لازلنا في موقع طرفي من هذه الحالة: نشتري التكنولوجيا وتقنيتها، ونفاخر بالقدرة على تشغيلها بأحسن الحالات. إلا أن محو الأمية التكنولوجية تستدعي التحول من الإستهلاك والقدرة على التشغيل، إلى استيعاب منطق التكنولوجيا وعقلانيتها: نظم المعرفة التي تقوم عليها وتسيرها وتطورها. لازال يتعين علينا العبور إلى حالة التمكن من الفكر التكنولوجي، وخصوصاً تكنولوجيا المعلومات، التي هي بصدد التحول إلى صناعة واقع الألف الميلادي الثالث الذي أطل علينا. إنه عهد الأذكياء العلميين الذين يتعاملون مع التكنولوجيا الذكية، في بيئة متفوقة في ذكائها، وفي حالة من تبادل تعزيز القوى: الذكاء العلمي المتفوق ينتج الذكاء الصناعي الذي يمد بإمكاناته الخارقة الذكاء العلمي في حركة صاعدة.

ويتخوف بعض علماء المستقبليات من ظهور كهنوت تقاني معلوماتي يسيطر على الكون عن بعد، ويستبد في هيمنة محكمة على الشمال والجنوب سواء بسواء، في حالة إتباع وإخضاع كاملين لكل من يتخلف عن الركب، أو يتعثر في أميته المعرفية ـ التقنية.

ما أبعد هذا السيناريو وتجلياته وتوجهاته ومقتضياته، عن لذوية وراهنية وحسية ثقافة الصورة، وعن أهواء وماضوية وأسطورية الثقافة الأصولية!

ـ ويكمل محو الأمية الإبداعية الثالوث. وهو تحد آخر مستقبلي يتعين النهوض إليه. ففي حمأة التنافس المفتوح عالمياً وصراع المعرفة والتكنولوجيا وأسواقهما، أصبح الإبداع شرط البقاء والنماء. والأمم التي لا تتخذ مواقف إبداعية من قضاياها وإيجاد الحلول لها معرضة للإنقراض.

الإبداع التكنولوجي هو سيد ساحة التنافس وسلاح الظفر فيه. فالإنتاج لم يعد يقوم على الكمية، بل على النوعية: إنتاج أفكار تخرج عن المألوف قابلة للتحول إلى تكنولوجيا خارجة عن المألوف بدورها مما يشكل سمة عصر ما بعد التكنولوجيا. السيادة المستقبلية هي لمن ينتج أكبر عدد من الأفكار العلمية والبحثية ويحولها إلى تكنولوجيا. ولهذا تتسابق الدول المتقدمة على إطلاق مهرجان الإبداع وإطلاق الطاقات الفكرية من عقالها، وتحطيم القيود والمرجعيات التقليدية، وصولاً إلى الإنطلاق في مغامرة المجهول، والتجرؤ على خطر الضياع، للظفر بمعرفة تكاد تخرج عن حدود التصور البشري.

ذلك هو لب ثورة ما بعد التكنولوجيا: إبتداع قضايا جديدة غير مطروحة في الواقع وتصنيعها في تكنولوجيا تنسف بعضها بعضاً بشكل متسارع، وفي زمن قياسي. إن الفكر المبدع هو ذلك الذي يخرج عن الطرق المعبدة، ويكسر قيود العادة والسير على خطى الأولين. إنه الفكر الذي يتجاسر على التساؤل حول كل شيء، والخوض في مغامرة تصور أي شيء، رافعاً شعار «لما لا؟ دعونا نحاول». وتكون الثمرة المدهش من النظريات والمنهجيات والتقنيات التي تأخذ قصب السبق، وتفرض سيطرتها على الواقع الاقتصادي والإنساني والسياسي سواء بسواء. تلك هي قوة الدماغ

الحقيقية التي بدأت تحل محل قوة اليد العاملة، وقوة الطاقة. إنها الطاقة المتجددة والمتنامية في مغامرة مفتوحة النهايات. فأين ثقافتا الصورة والأصولية من هذه الحالة وتحدياتها ومغامراتها؟

وهناك الأمية المؤسسية بحاجة بدورها إلى أن تمحى. وهو ما يشكل بنداً أساسياً في المشروع الثقافي المستقبلي العربي.

لابد لولوج المستقبل من إعادة تنظيم المجتمع انطلاقاً من المؤسسات المدنية التي نتغنى بها، ونتفنن في تزيين إدراتنا بهياكلها التنظيمية. إلا أن ما نعيشه ونمارسه لازال خاضعاً لقوى المؤسسات التقليدية: العصبية العرقية أو الدينية أو العشائرية. العصبية لا زالت تأتي قبل المجتمع وقبل الوطن، بل هي تكاد تسخرهما لتعزيز نفوذها ومد سلطانها. من هنا وهن المؤسسات المدنية وشكليتها. وهو وهن يخفي وهناً أخطر وأعظم يتمثل في غياب مفهوم الوطن فوق الأفراد والمجتمع فوق العصبيات. هنا تكمن تحديداً إحدى أخطر الثغرات التي تهدد الهوية الثقافية والكيان الوطني. فالعصبية بما هي أقوى المؤسسات الفاعلة في نسيجنا الاجتماعي، مستعدة للتفاوض على الوطن لقاء بقاءها، أو إرتهانه وإتباعه لقاء تعزيز نفوذها. هذه الحالة تولد نوعا من قصور المناعة إزاء النظم العالمية المفتوحة التي تقوم على مؤسسات عملاقة في حجمها وقوتها.

التربية المؤسسية هي في صلب عملية الحفاظ على الكيان. وبالتالي يتعين أن تحتل موضع الصدارة في المشروع الثقافي المستقبلي. أين من ذلك عصبية الثقافة الأصولية، أو الذوبان في النظم العالمية المفتوحة ومرجعياتها مما تروج له ثقافة الصورة؟!

3,2 ــ ويبقى محو الأمية الإنسانية هو القول الفصل من قبل ومن بعد، مشكلاً نقطة البداية وكبرى غايات النهاية. إن الكلام عن

محو الأمية الإنسانية في أوطاننا ليس قولاً مجازياً، أو صيغة من صيغ البلاغة، بل هو مقصود حرفياً: التحول من الإنسان الأداة والوسيلة إلى الإنسان القيمة والغاية. ذلك هو لب أي مشروع ثقافي مستقبلي وطني أو كوني.

مستقبليات التربية والتنمية تنادي جميعاً بمحو استلاب الإنسان مادياً ومعنوياً. إلا أننا، في عالمنا العربي، إزاء حالة تكاد تكون شائعة تتجاوز الإستلاب. وتتجاوز حتى قضية الديمقراطية بما هي حق المشاركة في صناعة القرار وتسيير المصير، وتفويض التمثيل بالأساليب المؤسسية المقننة والملزمة لمن فوّض، ولمن تم تفويضه سواء بسواء. إننا بصدد الإعتراف بإنسانية الإنسان وحصانتها وحرمتها. وبصدد الإعتراف بقيمة الإنسان وجهده. تلك هي المسألة المزمنة والمهلكة في معظم أقطار العالم الثالث. وذلك هو مصدر وسر كل إعاقة وتعثر في مخططات الإنماء، كما فيما يعانيه هذا العالم من حالات إنكشاف. إننا بصدد حالة الإنسان الأداة، والإنسان الرعية المملوكة التي يعطي المسؤول لذاته حق التصرف بها وبحقوقها وحصانتها. هنا منبع كل المآزق والهزائم. الإنسان الشيء، أو الإنسان المشيَّء هو كائن مختزل إلى مستوى الأسطورة التي تبيح جميع أشكال الإعتداءات عليها مادياً ومعنوياً. الإنسان ـ المشيَّء يجعل علاقة السلطة معه ذات بعد واحد وحيد: هناك فقط كيان واحد وطرف واحد، وإرادة واحدة، ونزوة ـ شهوة تسليطة واحدة، وكل ما عداها ليس سوى أدوات ووسائل لإروائها.

كيف يمكن أن يكون نماء، وتقدم، أو إنجاز، أو انتصار، أو عطاء في حالة كهذه؟ محو الأمية الإنسانية هو إذاً أساس كل مشروع كياني: إستعادة الإنسان لاعتباره وحرمة كيانه، وحصانته،

والإعتراف بإمكاناته وتقدير جهوده. محو الأمية الإنسانية هو باب الخروج من التاريخ الآسن، والخلاص من موات علاقة السلطان - المخلوقات الأدوات. إنه بداية كيانات تصير، وإنطلاق طاقات حية. فلا شراكة مستقبلية إلا من خلال تكافؤ شراكة الشرط الإنساني. وإلا فإن هذه الكائنات الأشياء لن تنتج سوى نسخاً مضخمة من كيانها الممسوخ فاتحة السبيل أمام المزيد من تفاقم الأمية الإنسانية، ومعها تفاقم إنسداد الآفاق المستقبلية.

أي مشروع مستقبلي كياني، أو ثقافي لا بد له من البدء من هذه النقطة تحديداً. وإلا فهو لن يبدأ، مهما رفع من شعارات وعَقَدَ من مناظرات، ورَسَمَ من مخططات، وأَنْفَقَ من موارد. ذلك ما يستلزمه الإرتقاء إلى مرتبة الذكاء الجماعي والشراكة المستقبلية. وهو ما يبرر تغيير المنظور الثقافي وطروحاته، بل ويجعله ملحّاً.

الفهرس

حصار الثقافة

بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية

مصطفى حجـازي

الأطروحة الرئيسية لهذه الدراسة تذهب إلى القول بأن هناك حالة من التناقض الأساسي بين ما تحتاجه الاجيال الطالعة للتعامل مع المستقبل بفرصه وإمكاناته وأخطاره وتحدياته، وبين حالة الانشطار الثقافي التي تتجلى معالمها بمزيد من الحدة ما بين ثقافة الصورة والثقافة الأصولية. فما بين مذهب اللذات الحسية الآنية، وأحلام الماضوية، تحاصر مقومات وإمكانات التعامل مع المقتضيات المستقبلية. ذلك أنه، في حين أصبح الحديث عن العالم كقرية صغيرة مبتذلاً، يذهب الإنشطار إلى تجاهل مقتضيات التسيير والتدبير التي تستلزمها الحتمية المتصاعدة للمصير المشترك، ومتطلباته من القدرة الذاتية والإقتدار المعرفي. فلكل من ثقافة الصورة وبلاغتها الألكترونية ،وثقافة الأصولية وأسطوريتها المثالية، مشروعها الغارقة فيه، مما يدفع بها في مسارات قد لا يكون من المبالغة وصفها بأنها ذات نتائج مأزقية.

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب